الطب العربي التونسي

في عشرة قرون

تحقيق

الحكيم أحمد بن ميلاد




الطب العربي التونسي
في عشرة قرون

الطب العربي التونسي في عشرة قرون

تحقيق

الحكيم أحمد بن ميلاد





الطبعة الأولى
تونس 1980

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
1999

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت

الإهـــداء

إني مدين لكل من أعانني على جمع هذا الكتاب وإخراجه وإن لم أخصهم بالذكر فقد أحجمت عن ذلك خوفاً من أن أنسى أحداً.

وأشكر سلفاً من وجد بالكتاب غلطاً فصححه أو نقصاً فأكمله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة أولى

هذا الكتاب

شاءت جمعية طلبة شمال أفريقيا بفرنسا سنة 1931 أن تحيي ذكرى أبي بكر الرازي قطب الطب العربي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته، وقلدتني دراسة أقوم بها خطيباً، وكنت أجهل الموضوع تماماً وكانت معرفتي للغة العربية متواضعة. فتبين لي من خلال هذه الدراسة الأهمية التي وصل إليها الطب عند العرب وأن تونس لم تفتقر إلى أطباء عظماء تدرس مؤلفاتهم وما درس منها وهو يسير كان باللغة الفرنسية، فأدركت أن هناك ثلمة كبيرة في تاريخ بلادنا يجب سدها فكان موضوع الأطروحة التي قدمتها لنيل الدكتوراه «الطب العربي في القيروان في القرن الرابع الهجري»، وعقدت العزم على التوسع في الموضوع وأن تشمل دراستي المقبلة «تاريخ الطب في البلاد التونسية» وأن ألمّ شتات الأطباء التونسيين الذين لهم كتب محاولاً تذليل الصعوبات التي تعترضني لجهلي اللغات الأجنبية ما عدا الفرنسية إذ كان أكثر المخطوطات والدراسات التي بالمكتبات الأوروبية بالعربية واللاتينية والعبرانية، وأنا موقن أن مشروعاً كهذا يستدعي تظافر جهد كتلة من الباحثين من بينهم اللغوي والمؤرخ والطبيب ويتطلب جمع ما تيسر من الوثائق التي يجب الاعتماد عليها وشرح ما جاء فيها من مذاهب في الطب وآراء في العلاج،

وما نالته من رواج في البلدان الغربية وغيرها وبيان المراحل التي خطاها الطب وأسباب نهوضه أو ركوده والإتيان على ما تيسر من حياة المؤلفين وليس لي طموح في أن يكون عملي هذا تام الإصابة، وإني على يقين أنه متواضع وأملي أن يتقبله القارىء الكريم بعطف وحلم.

الحكيم أحمد بن ميلاد

تونس في 20 ماي 1978

مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب

1 ـ لم يدخل الطب العربي إلى أفريقية (تونس) على يدي إسحق بن عمران بل على يدي يوحنا بن ماسويه الذي دخل افريقية خمسين سنة على الأقل قبل إسحق بن عمران، وكان ممن ترجم الكتب من اللغة اللاتينية إلى اللغة العربية ببغداد على ما يبدو.

2 ـ لماذا تقدم الطب بعد القرن العاشر؟؟ بل دخل في ركود إلى القرن الثالث عشر.

3 ـ وإن والد ابن الجزار وعمه الذي ذكر ابن أبي أصيبعة أنهما كان طبيبين يظن أنهما كانا يحسنان اللغة اللاتينية وقرآ الطب في اللغة اللاتينية التي كانت منتشرة بإفريقية إلى القرن الثالث عشر ونذكر هنا اسمي طبيب وعشّاب قرآ بقرطاج وكتبا باللغة اللاتينية قبل احتلال إفريقية من طرف العرب بما يقرب من ثلاثة مائة سنة فلا غرابة إن كان أطباء يحسنون اللغة اللاتينية قبل الفتح.

وكان الأفريقيون يسكنون دياراً من الحجارة ولهم حضارة يتمتعون بها قبل الفتح، وإن المؤرخين والجغرافيين العرب لم يذكروا شيئاً في كتبهم عن الحضارة التي كانت عليها إفريقية قبل الفتح. وفي هذه الطبعة نذكر كوكبة من الأطباء لم نجد لهم كتباً، وَذُكرت أسماؤهم في كتب مطبوعة أو مخطوطة، فرأيت من المناسب ذكرها.

وكذلك نجد كتباً في الطب بالمكتبة الوطنية لم تذكر أسماء الذين تولوا كتابتها، وهي تدل على ثراء المكتبة الوطنية.

أقسام الكتاب

لم ينشأ الطب العربي في البوادي وتحت الخيام، بل نشأ في دمشق ونما في بغداد وبلغ من النمو والانتشار ما خول له السمعة العالية واستكمل نموه واتسعت رقعته بتونس والأندلس وغيرهما من الأقطار. كل ذلك بفضل الخلفاء والأمراء وسخائهم واحتضانهم للعلماء، وازدهار الاقتصاد من فلاحة وصناعة وتجارة وجباية والحج في ظل الأمن والسلم. وبالعكس تقهقر الطب عند تضعضع الملك وقيام الثورات والحروب والكساد. ومن هنا يتضح تقسيم الكتاب. سيكون حسب عصور الازدهار والانحطاط وهي طريقة أقرب من غيرها حسب المنطق والصواب.

ازدهر الطب في القرنين الرابع والخامس للهجرة مدة مائة وخمسين سنة بالقيروان، فكان عصره الذهبي وكانت المدرسة الطبية القيروانية.

وكذلك بتونس مدة مائتي سنة، فكان عصر النهضة في الطب أو المدرسة الطبية الصقلية.

ثم مدة مائة سنة أخرى فكانت محاولة للتجديد وتأثير الطب الأوروبي فيه وأعبر عنها بالمدرسة التونسية.

وما عدا هذه المراحل كان ركوداً.

التعريف بإفريقية

أفريقية في الاصطلاح العربي القديم مفادها الجمهورية التونسية الحالية بإضافة شرقي مقاطعة قسنطينة وأحياناً باعتبار بجاية وعنابة والزاب وليبيا جنوباً وكانت وحدة سياسية تخضع لحكم واحد. وبفضل موقعها الجغرافي وتفتحها على جميع أقطار البحر الأبيض المتوسط: بحر الحضارات المختلفة من أقدم العصور (فنيقية ومصرية ويونانية ورومانية) أمست أفريقية الجسر بين أروبا وقلب أفريقيا السوداء. وكان سكانها الأصليون «البربر» قبائل وثنية ومسيحية وعبرية لم تكن لهم لغة تكتب وتدوَّن. كانت لهم حضارة ورثوها عن الفنيقيين واليونان والرومان والبزنطيين مع الاحتفاظ بشخصيتهم ولغتهم وعبقريتهم والنضال في سبيل حريتهم. ومن الأسف أن المؤرخين الذين تولوا كتابة تاريخ الفتح لم يبحثوا ولم يدونوا الحالة الاقتصادية والعمرانية والعلمية التي وجدوها بإفريقيّة ولا ذكروا صمود البربر في وجه الفاتحين الذي دام أكثر من نصف قرن. ولم يكن من الصدف أن تكاثر عدد القرى بإفريقية فبلغ الآلاف واللغة اللاتينية التي لم تفقد مكانتها عند سكان قستيلية (الجريد) إلى القرن الحادي عشر، وقصر الجم الذي يحتوي على 30 ألف مقعد للمتفرجين من الرومان وحدهم بل أكثرهم من التونسيين الذين يحسنون اللغة اللاتينية، ضحوا في سبيلها بأنفس الأرواح وكلما استعمرهم أجنبي تخلصوا منه واستحوذوا على أشلائه.

كانت وحدة البربر القبلية أساسها العصبية. تتحد عند الشدة، وتخضع للقوة، وتتناطح عند الضعف، وهذه الحالة الاجتماعية المتنوعة المتناقضة سنجدها في مراحل الطب بإفريقيّة. ألم يكن رقي العلم أساسه استقرار الملك والسلم والثروة؟

مواطـن الثقافـة

القيـــروان

قاعدة أفريقية خططها عقبة بن نافع سنة 50 هـ/ 670 م في أرض قفراء قليلة الأمطار والمياه أصبحت بلد الحضارة والإشعاع العلمي ومنها انتشرت اللغة العربية والدين الإسلامي ومذهب مالك بن أنس الذي ساد شمال أفريقيا كلها والأندلس وصقلية. وهي بعيدة عن سواحل البحر خشية غزوات البزنطيين الذين أفتك عقبة منهم البلاد، ولهم سفن عظيمة في صقلية يمكنها الانطلاق منها إلى غزو شمال أفريقية فيما بعد.

ومن الصدف الحسنة أن كانت مدينة القيروان في وسط أفريقية بالقرب شمالاً من وادي مجردة وفروعه وأراضيه الخصبة المنتجة للقمح والشعير وكثرة العشب لمرعى الأغنام، وبالقرب من واحات قسطيلية جنوباً (الجريد) ونخيلها وكثرة التمر وجودته، وزياتين الساحل الوافرة الزيت شرقاً، والطريق المفتوحة للغزوات المقبلة غرباً. وقد نالت القيروان طوال خمسة قرون متوالية حظاً كبيراً. انطلقت منها الغزوات لفتح شمال أفريقية والأندلس وصقلية، وأصبحت بفضل الأمن السائد في الطرقات محطة القوافل التي تحمل إلى قلب أفريقيا (المالي وتنبكتو) المنسوجات الصوفية والأواني والزجاج وترجع بالعاج وبالعبيد وبالتبر (فتات الذهب) وسادت قلاع المسلمين البحر ورجعت بشتى الغنائم من سواحل إيطاليا وسردانية.

ومن هذه الموارد التجارية والفلاحية والمكوس والخراج والجزية والغنائم

توفر المال لإبراهيم بن الأغلب وتيسر له توزيع أحمال الذهب على الجيش الذي حلّ معه بالأربص لمقاتلة عبدالله الداعي. فكان يضع صحفة من الدنانير في كم كل مقاتل. وأصبح الذهب آلة للتبادل بين عناصر البلاد والبلدان المجاورة لها (إيطاليا) والبعيدة (مصر). وكثر التبادل العلمي بين أفريقية والشرق ونما العمران وتكاثرت القرى وأقبل الناس على التعليم والتفنن في العلوم والملبس والزخرفة ونشأت من كل ذلك مدينة شاملة قوامها اللغة والدين والثقافة والتجارة والبحر. وقطع الطب أول مرحلة من مراحله فظهر ابن عمران وابن سليمان وابن الجزار وكان «عصره الذهبي».

ثم اشتد الخطب بحلول النورماند بالمهدية (سنة 484/ 1091) ونهبهم لها واستيلائهم على سواحل أفريقيا، وانقسام البلاد إلى دويلات ضعيفة، فقيرة، ولم ترجع المياه إلى مجاريها يوم حل عبد المؤمن بن علي بأفريقيا سنة (1159/ 1160) وأخضعها شرقاً وغرباً وكان في حاجة إلى المال لاسترجاع قرطبة من أيادي النصارى. فأثقل السكان بالجبايات وأخذ عنوة نصف أرزاقهم وسمى عليها وكلاء، وهاجم النصارى واليهود اندفاعاً وتعصباً للدين.

فلم يتحسن الوضع الاجتماعي ولا الاقتصادي وقد أمر من قبله المعز لدين الله قبل مغادرة المهدية منتقلاً إلى مصر خليفته بلكين بن زيري أن يفقر الرعية، فساد الفقر وازداد الطب انحطاطاً وعرف مرحلة كانت الركود بعينه، إلى انقراض الدولة العبيدية. وكانت فترة عسيرة دامت قرابة مائتي عام من الزحف الهلالي إلى ظهور الدولة الحفصية سنة 1229/627 أصبح الطب فيها ضحية التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ومما يجب ذكره أن النهضة الاقتصادية والعلمية طيلة هذه الفترة من الزمان كانت صنيعة أبناء البلاد وجهودهم. أما الواردون من أعراب الجزيرة (الغزاة) أو من المغرب الأقصى (الموحدون) فقد احتفظوا بالمناصب الإدارية والعسكرية.

المهديـــة

ولما فرّ إبراهيم بن الأغلب آخر الولاة على القيروان وحل مكانه عبيدالله المهدي لم يلبث قليلاً حتى نقل تخته إلى المهدية (سنة 920/308) وبنى سورها وشيّد قصورها وبنى قرية زويلة ملاصقة لها لإسكان الرعية. وبالرغم من الفتنة الدينية التي أحدثها بين أهل القيروان المتساكنين والمتشبثين بالمذهب المالكي فإن المهدية لم تفقد الثروة المادية. فقد أصبحت شبه مرسى عالمي بين الشرق والغرب تدخلها السفن يومياً آتية من هنا وهناك لنقل البضائع أو بيعها، ونقل التجار والحجيج، ونمت الصناعة والفلاحة والتجارة. يذكر المقدسي أن البضاعة المصدرة كانت الفواكه من لوز وفستق وزيت الزيتون والجلود والمنسوجات من الصوف والكتان وأقمشة السوستي من سوسة كان لها حظ كبير أيامها لجودتها، أما الواردات كانت المواد الحديدية ومواد الطبخ والتوابل. ولنا في مقدار الثروة آنذاك مقياس يتمثل في المال الذي نقله المعز لدين الله أحمالاً إلى القاهرة يوم انتقلت الدولة العبيدية إلى مصر وخلفتها الدولة الصنهاجية، وما أنفقه المعز بن باديس الصنهاجي في زفاف ابنته من زراب وأوان ومن أقمشة ومال ومصوغ وقد بلغ كل ذلك عشرة أحمال، وما أنفقه على وفاة أمه التي صنع لها تابوتاً مساميره من ذهب ومحلى بالجواهر وما بلغ إليه النهوض العلمي من الرقي وبلغ الطب ذروته مع أحمد بن الجزار وقطع البحر عابراً أروبا لغزوها. يذكر ابن رشيق أن عدد الشعراء بالقيروان بلغ المائة حسب ما ذكره في زمانه. وبالرغم من كل ذلك فإن الطب الذي انطلق من القيروان سوف نجده في انحطاط في آخر هذه الدولة.

ذلك أن الوضع الاجتماعي قد تغير وأن سخاء الملوك قد اتجه نحو البذخ والأيادي البيضاء صارت تمتد إلى الشعراء. وهاجر كثير من العلماء إلى صقلية والأندلس إثر زحف بني هلال وسليم ورياح وغيرهم وكانوا قرابة مائتي ألف 200،000 نسمة من الأعراب السذج الذين لا يعرفون للمدينة واقعاً فعاثوا في أفريقية نهبوا القيروان سنة (1057/449) وأفتكوا أراضي الزراعة من أصحابها

لرعي أغنامهم، وقطعوا الأشجار للوقود وقل الأمن، وحلت المصائب والمجاعة والأمراض الوبائية وانعدمت التجارة وانقطع الاتصال ببغداد والشرق بصفة عامة ووضعت العراقيل للحجيج لغرض ديني ولما كان الطب صناعة تخضع للعوامل الاقتصادية وكثرة العمران والدخل الفردي نقص عدد الأطباء ولم يفز من بينهم عبقري واحد.

تونـــس

كانت تونس العاصمة الثانية لأفريقية بعد القيروان لكثرة عمرانها وغزارة إنتاجها العلمي والاقتصادي وانتقل تخت الملك إليها بعد الاضطرابات الاجتماعية التي حلّت بأفريقية من وجود الهلاليين ونزول النرماند المسيحيين بالشواطىء التونسية المتكرر وانهيار عاصمة المهدية.

تقع تونس في الشمال الشرقي في غور خليج بالبحر الأبيض المتوسط وقنال تتحصن فيه السفن من الريح والغزوات، وهي ميناء تجاري أقرب للسواحل الأروباوية منه إلى سواحل آسيا ومصر. فكانت بطبيعة هذا الموقع مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب حيث ترسو المراكب وبين قلب إفريقيا السوداء حيث تحل القوافل. وتدعّم هذا المركز التجاري وازدهر بفضل السلم الذي ساد في مدة الدولة الحفصية التي وفرت أسباب العلم والتعلم والإنتاج الثقافي في الطب. فظهرت كتلة من الأطباء امتازت بالتآليف الكثيرة، المتنوعة الغزيرة المادة والابتكار.

يذكر العبدري الذي زار تونس حوالي سنة (688/ 1483) (رحلة العبدري طبع قسنطينة ص 187) قال: «وما من فنّ من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائماً، ولا وارداً من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله ورداً وحائماً، وبها من أهل الرواية عدد وافر...».

وفعلاً، فقد أثمرت في تلك المدة فلاحة الحبوب، ونمت تربية الحيوان ودود الحرير، وأثمرت أشجار الزيتون والتمر وأنواع الغلال والتوابل والكتان،

وأنواع الزهور الصالحة لتقطير العطر. ونمت صناعة البناء وتوابعها، وشيدت الجوامع والقصور والمستشفيات، وازدهرت التجارة في الداخل فكانت القوافل تسير من الشمال إلى قلب الصحراء مثقلة بالحبوب والزيت والمنسوجات وأواني النحاس، راجعة بالذهب وريش النعام والعبيد، ذلك بفضل الأمن. وعقدت تونس المعاهدات مع الدول الأجنبية، وصدرت بضاعتها إلى مرسيليا وجنوه وصقلية، ومن هذه البضاعة الزيت والصابون والمنسوجات الصوفية (حايك جربة) والكتانية من مدينة سوسة، والحريرية والزرابي والجلد والشمع وريش النعام والشب والدباغ والملح والسمك المصبر والقمح في السنين الخصبة. واستمرت تونس سوقاً للذهب ونمت التجارة وهي أكبر عامل للغنى والثروة، وتستورد تونس من جهتها من فرنسا وإيطاليا خاصة القمح في سني المسغبة والمواد الحديدية والكاغظ والبلور والسلاح ومواد الصبغ والحلي من الذهب والعطورات. وسهل التبادل التجاري باستعمال «السفتجة» Lettre de change.

وبدأ العسر بعد اليسر في آخر الدولة الحفصية ونزول السبنيور بتونس سنة 942/ 1553 وامتلاك سواحلها واستقلال القبائل داخل البلاد. واختلال الأمن وتوالي الكوارث من قحط ووباء وتشرد علماء جامع الزيتونة. فهجروا البلاد وداست الخيل كتب خزائن الجامع فانحط العلم عامة والطب خاصة ـ وكان الركود من جديد. ولما كانت نواة الطب التي زرعت من قبل صالحة نمت من جديد عند استقرار الأمن في الدولة الحسينية وقبلها بقليل. وأتت بثمرة طيبة بفضل لقاح جديد أتاها من أوروبا نتيجة علوم أساسها التجربة والفكر الحر. فكانت مرحلة في التجديد مصاحبة لنهضة اقتصادية ونمو عمراني، من أفريقيين وأندلسيين وفرنسيين وإيطاليين ومالطيين متساكنين آمنين حسب ما جاء في الخطاب الذي ألقاه الكاتب الفرنسي Chateaubriand شطوبريان في المجلس الأعلى لبلاده بعد زيارته لتونس سنة 1808، ومن الأسف أن هذه النهضة الشاملة لم يكتب لها الدوام[1].

---

(1) Léon l'Africain- Maison neuve- Paris 1956.
- Carthage- lapeyre et A. - Pellegrin- Payot Paris.
= A. Sayous- le commerce des Européens à Tunis du XII au XVIII ème siècle, Paris 1929

إن الدولة الحسينية ما لبثت حتى أفلست سياستها مادياً وأدبياً، وانعدمت صنائعها وتجارتها، واختلّ الأمن، فكان انحطاط الطب من جديد وركوده، وصار آلة بين أيدي المنتفعين والمرتزقة، وكان الاحتلال الفرنسي سنة 1299/ 1881.

=

De Slane- Le commerce des Européens à Tunis- Paris, 1929.

الطــب العربـي

الطب العربي هو ما كتب باللغة العربية بقطع النظر عن جنسية الكاتب وديانته. ولا نعني بهذه العبارة أن الطب الذي كتبه العرب بلغتهم وأقلامهم كان كله من قرائحهم وبنات أفكارهم. كل يعلم أنهم من شعوب وقبائل بدو يعيشون تحت الخيام لهم آداب وفصاحة وبلاغة وحروف يكتبون بها. ولم يكن لهم ضلع في العلوم الرياضية والطب. وما اكتسبوه في بداية الأمر من هذه العلوم أخذوه عن اليونان بعد ترجمتها إلى العربية وهضمها والتوسع فيها والطب ضمن هذه العلوم. وقد شارك العرب في نموه وأكسبوه طابعاً خاصاً وتتلمذ عليهم بإيطاليا وأروبا رجال وترجموا بدورهم الكتب العربية إلى اللاتينية التي كانت اللغة العلمية ولغة الكنيسة طوال القرون الوسطى، وللعرب الفضل في ازدهار المدرستين في الطب اللتين ظهرتا في أروبا وهي مدرسة سلرنا Salerne في إيطاليا، ومدرسة مقدلون (منبيلبي) Montpellier في فرنسا واللتين كانتا يؤمهما الطلبة من أنحاء أورروبا.

وجه بعض الكتاب من الأروبيين انتقاداً ضد العرب، قالوا إن العرب لم يزيدوا شيئاً في الطب مما أخذوه عن اليونان[1] وقال غيرهم إن الاكتشافات التي أتى بها العرب ليست من الأعراب أنفسهم، يعنون بذلك أعراب الجزيرة، ولكن من فرس وقوقازيين وأفريقيين وأندلسيين ومسلمين ونصارى ويهود... وأن الأعراب كان منهم الملك والأمير والجيش والقواد والفقهاء. فكانوا الأقلية

(1) براون، الطب العربي ـ باريس 1933.

الاستقراطية الحاكمة. أما الفلاحة والصناعة والتجارة فكانت بأيادي أهل البلاد ومن النقاد من أعارهم نصيباً من الإنصاف فذكروا أن العرب أخذوا الطب عن اليونان وذكوه وأدخلوه إلى أروبا يوم كانت في حاجة إليه وفي ذلك كفاية وفضل عظيم.

الحقيقة أكثر من ذلك. إن العرب أنفقوا أموالاً طائلة لجمع ما بقي من التراث العلمي اليوناني الذي ضاع أكثره، وما بقي منه كان مبعثراً فجمعوه وحفظوه من التلف. ولا جدل أن الإنتاج الفكري للجاليات التي شاركت في حفظه وترجمته بقطع النظر عن أديانها وجنسياتها ينسب إلى الوطن الذي احتضنها وأنفق عليها ووفر لها أسباب العمل. والتسامح الذي جاء به الدين الإسلامي قد خول التعايش والتعاون بصفة عامة بين سكان البلدان التي حكمها العرب. واللغة العربية التي ألفت بين قلوبهم وكانت العروة الوثقى بينهم يتخاطبون بها ويؤلفون فيها وكانت اللغة البليغة الفصيحة الغنية بمفرداتها وكثرة اشتقاقاتها وهي التي أزاحت العصبية والقبلية وجمعت بين العلماء على صعيد واحد ومستوى واحد. وأصبحت اللغة العلمية لعالم حضري متمدن. ولم يخطر ببالنا أن أطباء العرب والتونسيين خاصة أتوا بالمعجزات، فقد كان نصيبهم متواضعاً بالنسبة لما عليه الطب اليوم، والواجب أن ننظر إليه بالنسبة إلى العصر الذي نشأ فيه والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي لذلك العصر، وأن ما أخذه العرب عن اليونان كان في نظرنا طفيفاً وازدان بدقة الملاحظة، وكثرة الوصفيات والأدوية وتأسيس المستشفيات التي لم يحدثها اليونان والتي أصبحت مدارس لتعليم الطب ولولاها لما تسنى لأبي بكر الرازي أن يفصل عن مرض الجدري مرض الحصباء ويبين مظاهر وأوصاف كل منهما. ومن عمل العرب أنهم رتبوا أوصاف الأمراض وكانت متفرقة منفصلة عن بعضها بعضاً وبوبوها. وكان نصيبهم في أمراض البصر كبيراً. والجراحة مدينة لأبي القاسم الزهراوي الأندلسي فقد دوّن فيها وشرحها بالصور وهي طريقة جديدة فذة. وتولى ابن نفيس الدمشقي التشريح وإن لم يجهر به فخوله اكتشاف الدورة الدموية الصغرى ووصف القلب جهازاً دموياً غير الجهاز الهوائي كما تخيله جالينوس

وغيره من الأطباء القدماء. وأدخل العرب الموسيقى في علاج الأمراض العقلية وأتوا بكثير من الأدوية التي اكتشفوها في مملكاتهم وأفادوا الطب بنتائجها وكان اعتناؤهم بالأغذية وحفظ الصحة والتدوين فيهما كبيراً، وهذه مظاهر جديدة لم يسبقهم فيها أحد حتى أنك لا تجد كتاباً في الطب العربي إلا وجدْتَ فيه نصيباً أقل أو أكثر في هذين القسمين من الطب.

ومما هو جدير بالذكر أن الكتب الطبية العربية الموجودة في الخزائن العامة والخاصة لم يقع فحصها ونقدها جميعاً من العرب أنفسهم، كما لم يقع تدقيق كل ما أخذه العرب عن اليونان. كل ما كتب في هذا المضمار كان بطريقة عامة خالية من الدقة والعمق. ويمكننا الجزم أن الطب العربي لم يكتب عنه كما يجب وعلى كل فما ترجم منه إلى اللاتينية واليونانية والعبرية لقي حظاً موفوراً في أروبا طيلة القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر، تشهد بذلك الكتب العربية المخطوطة في مختلف العصور باللغة اللاتينية التي وقع طبعها في النصف الثاني من القرن السادس عشر ببلد ليون Lyon (فرنسا) وترينو Turin (إيطاليا) يوم ظهرت الطباعة وصار التدريس بتلك الكتب والعمل بها.

ولم يتخل الإفرنج عن نظرية الأمزجة ونظرية الأخلاط التي أخذها العرب عن اليونان وأخذها عنهم الأروباويون واعتنقوها ولم يجدوا لها بديلاً إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يوم تقدم علم الفيزيا تقدماً محسوساً ووقع اختراع المجهر وابتدأ اكتشاف المكروبات وتقدمت الجراحة بتطهير الآلات وظهرت نتائجها وخطا الطب خطواته العملاقة بتقدم علم الكيميا وعلم الكهرباء وعلم الغريزة. وأكرر القول أن الطب عند العرب يجب اعتباره حسب زمانهم لا بالنسبة إلى زماننا هذا خشية الانزلاق في هوة الخطأ[1].

---

(1) Histoire de la médecine par Charles Lichtenthaeler- Paris, 1975.

تاريخ الطب لشارل ليشتانتالار - باريس 1975.

ظهور الطب بأفريقية قبل الإسلام

أخذ الأروباويون الطب العربي وترجموا كتبه إلى اللغة اللاتينية واليونانية والعبرية وطبعوها في بلدانهم في القرن الخامس عشر يوم ظهرت الطباعة فأصبحت عندهم كتب العلم والتعليم مُدوّنة.

إنّ عدد الذين تمسحوا من البربر كان عظيماً، ومنهم من كان يحسن اللاتينية واليونانية اللتين كانتا لغتي الكتابة والتعامل والتقاضي كما أسلفنا.

وفي الحقل الطبي تذكر المصادر أن ترتوليان (Tertulien) ولد بقرطاج سنة 150 أو 160 وأنّه مسيحي أحسن اللاتينية واليونانية، ونبغ في الطب والحقوق والفصاحة.

وأبولا المادوري (Apulée de Madaure) ولد بإفريقية (قرطاج) في القرن الثالث مسيحي. درس بقرطاج وروما وألّف كتاباً في علم النبات يسمى (هرباريوم Herbarium) ضاع هذا الكتاب وربما يوجد يوماً.

ظهر (ماجون Magon) في فن الزراعة وألف كُتباً كان لها الأثر الكبير في روما. إن هذه الكتب وعددها 28 تبحث في فن الزراعة وتربية الماشية وفي إدارة المزارع.

وظهر في علوم الدين: سان أقوستان Saint Augustin وكذلك سان سيبريان Saint Cyprien وكان لكل منهما مذهب خطير في الدين المسيحي.

كل هؤلاء العلماء من البربر ويرجع ذلك للحضارة التي كان البربر يتمتعون بها وِراثة عن اليونان وعن الرومان، مع الاحتفاظ بشخصيتهم.

هل وجد طب عبراني بتونس؟

يذهب المؤرخ برانشفيك في كتابه بلاد البربر الشرقية مدة الدولة الحفصية

(تونس)[1] أن المدرسة الطبية القيروانية الكبيرة كانت (يهودية ومسلمة)، وهو مذهب المجلة الطبية التاريخية العبرانية التي تصدر باللغة الفرنسية بباريس وتشيد بصفة علنية أو مستترة بكل عمل صدر من طبيب يهودي. ونزعة هذه المجلة دينية وقومية. فوجب التساؤل هل لليهود طب عبراني وهل لهم قومية عبرانية؟ أجمعت العلماء على أن اليهود لم يتمتعوا بقومية عبرانية عبر التاريخ. ويجسمون قولهم بهذه العبارة: «اليهودية دين ليس قومية» ذلك أن القومية حديثة العهد. لم يعرفها اليهود يوم كانوا بالقدس منذ خمسة وعشرين قرناً ولا بعد هجرتهم وتشردهم عبر العالم. وما الصهيونية الجديدة العهد إلا محاولة لاكتساب وطن واكتساب قومية. أثبتنا في الفصل السابق أن الطب الذي كتب باللغة العربية من أقلام وقرائح مختلفة كان طباً عربياً. علينا أن نثبت أنه لم يصطبغ بنزعة دينية ولا يهودية. تذكر المصادر الجديرة بالاهتمام أن اليهود حلوا بأفريقية مع الفنيقيين وكانوا في خدمة البيزنطيين المحتلين للبلاد في نزاعهم ضد العرب والكاهنة البربرية التي تزعمت مقاومة الجيوش العربية وانهزمت وقتلت سنة 84/703 وكانت حسب الزعم يهودية. ولما ثبت قدم العرب بإفريقية انقاد اليهود لهم ودفعوا الجزية وتمتعوا بالطمأنينة وأثبتوا على دينهم واشتغلوا بالفلاحة والتجارة والصنائع وكان منهم الأطباء: إسحاق بن سليمان وتلميذه دناش بن تمام وغيرهما.

ولهذين الطبيبين كتب في الطب وفي الدين العبراني وكلاهما ولد ونشأ في بلاد تحت السلطان والنفوذ العربي وقرأ وتثقف باللغة العربية وكتب بلسانها الفصيح جميع كتبه حتى الدينية العبرانية منها ولم تظهر هذه الكتب بالحروف العبرانية إلا في آخر حياتهما أو بعد وفاتهما. وما ذكر عن هذين الطبيبين أؤكده في شخص أكبر وأشهر طبيب يهودي أندلسي وهو موسى بن ميمون القرطبي الذي ولد بدوره في بلاد إسلامية ونشأ فيها وقرأ بالعربية ولم يكتب إلا بها وكان عالماً بالدين العبراني وتزعّم جاليته بالأندلس وحرر كتابه «دلالة الحائرين» في الفلسفة والدين العبراني

---

(1) طبع باريس 1947 ج 2 ص 372. وترجمه الأستاذ حمّادي الساحليّ ونُشر ببيروت، دار الغرب الإسلاميّ.

باللسان العربي الفصيح ولم يترجم هذا الكتاب إلى اللسان العبراني إلا بعد وفاته. والملاحظ أن جميع كتب اليهود الطبية المتقدم ذكرها خالية من أي عبارة أو مرجع يشير إلى طب ديني يهودي. وليس لليهود قبل الإسلام أو بعد ظهوره كتب أو تآليف في الطب.

لم تكن اللغة العبرانية لغة علمية. ولم ينجح فيها في تونس عالم يهودي لما تركوا اللغة العربية ولم ينتج اليهود كتاباً واحداً في أي مجال بعد القرن الخامس الهجري. ولاحظ ابن ميمون الطبيب القرطبي المشار إليه انحطاط الثقافة اليهودية في تونس وقلّة كتبهم الدينية يوم مرّ بتونس في طريقه إلى مصر مهاجراً من الأندلس (راجع كزاس: Cazes: Notes sur la littérature juive en Tunisie).

وكان العلاج عندهم التوسل بالقراءات والأدهان التي يباركها الربيون وبالطهر بالماء العذب بعد الجنابة وباجتناب لحم الخنزير وبالصلوات التي تأمر بها كتبهم المقدسة وبأشياء أخرى في حفظ الصحة أخذوها عن الشعوب التي اختلطوا بها وأدخلوها في تقاليدهم كالختان الذي أخذوه عن أهل مصر. ومبدأ اعتقادهم أن الله هو الذي يسلط المرض على عبده ليؤدبه عن ذنب ارتكبه وهو الشافي والعافي[1]. وهل يعقل أن ما قام به اليهود من الخدمات العلمية بأمريكيا وفرنسا مثلاً وعددهم كثير في هذه الربوع تعتبر عبرية يهودية؟.

إن ما كتبه اليهود في الطب بلسان عربي في البلدان الإسلامية التي نشأوا فيها وتعلموا، يعتبر طباً عربياً.

هل شارك المسيحيون في الإنتاج الطبي؟

كان علي بن العباس البغدادي طبيباً مجوسياً (توفي سنة 994 هـ) وكتب بالعربية. أما في أفريقية فلا نصيب للمسيحيين في ازدهار الطب إلا في القرن التاسع عشر على يد طبيب واحد يوسف القير الذي كتب كتابين باللاتينية ونقلا إلى

---

(1) راجع كتاب تاريخ الطب للمؤلف كستيقليوني A. Castiglioni- Paris 1931.

اللسان العربي ولا يوجد فيهما أي نزعة دينية مسيحية وأن المسيحيين لم يندمجوا في زمرة أهل البلاد. فقد ابتعدوا عنهم في العصور الأولى وكانوا أقلية ضئيلة ودخلتهم نزعة التفوق العنصري لما ضعف النفوذ التونسي فازدادوا نفوراً.

هل في الطب العربي نزعة دينية؟

ليست في الطب العربي نزعة دينية إسلامية. يأمر القرآن بتحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله ويأمر بالطهر. وقد لجأ النبي محمد نفسه إلى طبيب تعلم بفارس وهو الحارث بن كلدة وأوصى غير واحد من الصحابة أن يلتجئوا إلى الطبيب عند الحاجة. وما أشار إليه من أدوية كانت من العشب. ولم يأمر النبي بالزيوت المقدسة والتمائم. (راجع كتاب الطب النبوي للإمام أبي عبدالله محمد ابن قيم الجوزية، طبعة حلب، 1927).

الخلاصة: يتضح من كل ذلك أن الطب العربي عامة والطب التونسي خاصة ازدهر بفضل اللغة العربية وتطبع بها.

مراحل الطب بتونس

يتضح مما تقدم أن الإنتاج الطبي بتونس لم يكن متصل الحلقات من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، بل تقلب في مراحل عديدة حسب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية. انطلق من العصر الأغلبي وساد العصر العبيدي والعصر الصنهاجي وأضاء نوره أروبا فكان عصره الذهبي. ولما حل بنو هلال سنة 444 هـ خفتت أصوات العلماء والأدباء والأطباء فلم تتحسن الحالة وكذلك مدة الدولة الموحدية، لأن قبلة عبد المؤمن وأبنائه كانت الأندلس وهمهم جمع المال لمواجهة الحرب، الأمر الذي أدى إلى تفقير الرعايا ولم يظهر من الأطباء في تلك الحقبة من الزمن وكانت قرناً كاملاً إلاّ أربعة أطباء جاؤوا من الأندلس في خدمة الموحدين ولم يستقروا بتونس. ولما حل العصر الحفصي ورفع الكابوس تمتع الناس بجميع محاصيل إنتاجهم الاقتصادي وأظهرت الملوك عناية محمودة بالعلم والعلماء، فبرّز الإمام ابن عرفة في الفقه وابن خلدون في الفلسفة الاجتماعية ولم

يسبق إليها أحد مثله وبرزت كوكبة من الأطباء اشتهروا بالصقليين راجت سمعتهم ومؤلفاتهم في تونس وفي العالم العربي، فكان عصر النهضة الطبية بتونس. ولما خسف نجم هذه الدولة الذي شعّ نوره أربع مائة سنة، وتهلهلت أركانها ودخلها الهرم وامتلك السبنيور الساحل التونسي ومدنه الكبرى واختل الأمن في الداخل، لم يظهر بتونس ولو طبيب واحد ذو كفاءة وكان الركود مرة ثانية وامتد طوال العصر التركي. ثم يستتب الأمن من جديد وتنمو الفلاحة ويزدهر الاقتصاد ويرتدي المجتمع حلّة جديدة ويلوح عليه شعاع النهضة الأوروبية فيظهر مدة الدولة الحسينية أطباء من التونسيين والأجانب لا تقل خبرتهم عن زملائهم في بقية العالم المتمدن إلاّ قليلاً أو تكاد، وكانت مرحلة التجديد التي لم يطل أمدها وتعطلت بانخذال ملوك هذه الدولة وإفلاس سياستهم في الداخل وفي الخارج. وانقطع تعليم الطب بالمستشفى، وأعطيت رُخصةُ التطبيب لمن شاء في مقابل ثمن زهيد من طرف طبيب الباي وكان الركود من جديد ولم تتفتح الأبصار إلا عند استقلال الشعب التونسي من قيد الملوك والاستعمار الأجنبي.

المدرسة الطبية القيروانية

حقيقتها: ليست المدرسة الطبية القيروانية بالمعنى الظاهري: مؤسسة يجلس فيها التلامذة أمام أستاذ يحاضر في علم الطب، ولكن بمعناه العام، أعني: علم يدرس، له طابع خاص، وينتمي إليه أساتذة وتلامذة.

طابع الحضارة

إن حضارة القيروان امتازت على الحضارات التي سبقتها بأفريقية باللغة والدين - لم يكن البربر من أهل الكتاب ولم تكن لهم حروف وكتابة وثقافة - كانوا تحت سيطرة الفنيقيين والرومان والبزنْطِيّين ولم يسع هؤلاء ولا أولئك إلى تثقيفهم. نعم لقد ظهر (Magon مقون) وتفنن في الزراعة. وبرز سان أوغستان Saint Augustin في علوم الدين وكان صاحب مذهب وظهر غيرهما في الأدب. أما جمهور الشعب فكان يقاسي الجهل والبؤس ولم يستفد من حضارة المستعمرين

إلا القليل النادر. ولم يكن من السهل استيلاء العرب على إفريقية لتعلق البربر بحريتهم فكان استقرارهم وفرض نفوذهم بفضل الدين الإسلامي الجديد. فقد كان الغزو العسكري مصحوباً بالغزو الديني لامتلاك القلوب، وترغيب البربر من أول الأمر في حفظ القرآن وأصول الدين، وتعلم الكتابة والقراءة، وانتشرت اللغة العربية، وأصبحت وحدها لغة الكتابة والخطابة والأدب والعلوم والطب، ولهذه المدرسة ميزات:

الأولى: اللغة العربية.

الثانية: لائكية: لا تنتسب إلى دين من الأديان كان طباً كتبه المسلمون واليهود ولا تشم فيه رائحة الدعاء والاستغاثة بالأولياء والصالحين.

ومن الملاحظ أنه لم تكن للمسيحيين مشاركة في المدرسة الطبية القيروانية مثل اليهود. ذلك أن اليهود انصهروا في المجتمع القيرواني فأخذوا لغته وسيرته لتنمية مصالحهم الاقتصادية واحتفظوا بمعتقداتهم والبعض من عوائدهم بخلاف الأقليات المسيحية فإنها عززت نفسها بالعنصرية خصوصاً وقد كانت البلاد كلها تحت سيادتها من قبل فلم تسع في تعلم لغة العرب إلا القليل منها لأجل التعايش وقضاء الحاجة. ولئن أخذ العرب الطب على اليونان وأخذه اليونان عمن سبقهم من الشعوب في الحضارة مثل الهنود والصينيين والمصريين وأخذ الإفرنج عن العرب فإن العلم لا يمكن حصره في وطن أو قارة. وكلمة «العلم» مفادها مشاركة الأمم في الحضارة، ولكل منها نصيب قل أو كثر. فالعلم لا يختص بأمة أو بفئة، العلم عالمي La Science est universelle.

طريقة التعليم وأسلوب الكتابة والكتب

لم ينفرد التعليم بعلم من العلوم خاصة. ولم يدرس الطالب فناً من الفنون على حدة إلا في المرحلة الابتدائية التي يتعلم فيها الخط وحفظ القرآن كله أو جانباً منه. كان التعليم يشمل علوم الدين والأدب والتاريخ والفلسفة والحساب والتوقيت

والطب لمن أراد. كان التعليم شاملاً يدرس في المساجد والزوايا. أما تعليم الطب فكان في المدن الكبرى، نشأ بالقيروان وامتد إلى تونس، كان يدرس بالمستشفى وعيادة الأطباء وملازمتهم وفي جامع الزيتونة على حسب الظن أو بمطالعة الكتب من غير ملازمة الأطباء.

وكتابة الأطباء التونسيين من جميع العصور سهلة القراءة والفهم، فقيرة من أوصاف المرض، كثيرة الأدوية وأسماء العشب الموجودة بإقليم تونس ويعرفها الخاص والعام، أو بالبلدان الأجنبية ونقلها المؤلف ولم يحققها، وقليلاً ما يدلي باسم البلد الذي توجد فيه، والزمان الذي يقع فيه التقاطها، ويذكر المؤلف اسم المرض كما عرفه أو نقله أو يضيف إليه الاسم الذي يشبهه في بلاد أجنبية.

وكان التعليم شفاهياً لقلة الكتب وغلاء ثمنها، وأكثرها بخزائن العلماء والملوك والأثرياء، أو بالمساجد من أوقاف أهل البر. وقد تلف الكثير منها بسبب الحروب والثورات. وهي نثر وشعر، وليست كلها كتباً بالمعنى المتداول عندنا اليوم بل منها ما يبلغ عدد صحفه الرسالة أو المقالة وسمي كتاباً.

ومنها ما كتب بإشارة أمير لفائدته وأهدي إليه، أو كتب لإفادة الطلبة أو للمسافرين الذين يعوزهم الطبيب في الطريق ومن ذلك كتاب «زاد المسافر» لابن الجزار ومنها ما هو منقول عن كتب كثيرة ولم يذكره المؤلف أو من إنشاء طبيب تونسي حسب فحوى الكتاب ولم يذكر الناسخ اسمه عن قصد أو عن غير قصد.

والمفردات التي جاءت في الكتب عربية أصيلة أو مشتقة من كلمة عربية، أو أعجمية، فارسية كانت أو يونانية. ويجدر بالذكر أن الطبيب التونسي أحمد بن الحشا وضع معجماً في المفردات الطبية التي جاءت في «الكتاب المنصوري» لأبي بكر الرازي وهو أول مصنف من نوعه.

علاقة الطب بالفلسفة

تعلقت همة القدماء بمعرفة الروح أو ماهية النفس، ولما كان كنه النفس أو

الروح شيئاً خفياً بحثوا عن مظاهرها وكان علم النفس الذي أصبح اليوم من أقسام علم الفلسفة لا غنى للطب عنه لأنه يبحث في طابع الرجل ونفسيته والعوامل التي تعتريه فتكسبه الحزن أو سرعة الغضب أو الحماقة أو قلة النوم الخ. . . وهذه العوامل النفسية تدل على خلل في المزاج أو الهضم أو العقل يجب الاطلاع على حقيقتها ليتمكن الطبيب من علاجها.

ومن الأمراض العقلية «المليخوليا» التي أطلق كثير من القدماء اسمها على سائر الأمراض العقلية. لذلك وجب على الطبيب معرفة الفلسفة، وهذا العلم الذي أخذه العرب مثل الطب عن اليونان كان للأطباء شغف كبير بقراءته والتروي فيه في الشرق والغرب. كتب فيه ابن عمران رسالته المشهورة في المليخولية، وابن سليمان رسالته في المنطق والحكمة، وابن الجزار رسالته في النفس، وكتب هبة الله غيرها في أمراض النفس، وكلهم من التونسيين.

الطب الرعواني

كلمة الطب الرعواني مشتقة من الفعل رعى أي أكل المرعى، والمرعى هو العشب. فالطب الرعواني بتونس هو الطب العربي بعينه ممزوجاً بالطب التقليدي الذي أصبح في أيدي المتطببين القليلي الخبرة بأسباب الأمراض، فاتخذوا الكي مثلاً لعلاج عرق النسا وجبروا الكسر وهو مرض يستوجب العلاج بالطرق العصرية الحديثة أو الجراحة السريعة خيفة هلاك المريض أو إطالة مرضه على الأقل. وانحدر الطب الرعواني فأصبح بين أيدي الدجالين والدراويش يطببون بالريق والتمائم والكي فصار طب العوامّ وفقد معناه ومبدأه.

تراجع اليوم فريق من الأطباء على العلاج بالمواد الكيميائية وما بها من الخطر على صحة المريض، وأصبح العلاج بالأعشاب (Phytothérapie).

صناعة الطب

إن الأسواق والمعاملات التجارية وغيرها تخضع لأحكام الفقه، وكان يقوم

بمراقبتها واحترافها بالقيروان «صاحب الحسبة» بإشراف القاضي ثم «صاحب المظالم» عند ولاية الإمام سحنون، وفي عهد الدولة الحفصية وبعدها أصبح «الأمناء» بمثابة مراقبين على كل تجارة أو صناعة يعينهم صاحب البلاد أميراً كان أو باياً لامتحان الصانع على كفاءته قبل فتح مغازته أو انتصابه حسماً للغش ولتحديد الأسعار وقمعاً للاحتكار، وتجنباً للخلاف بين الصانع والمستهلك. وفيما يخص صناعة الطب لم أجد في كتاب «أحكام السوق» ليحيى بن عمر ولا في كتب التاريخ ما يشير إلى امتحان الأطباء بالقيروان، أو مراقبتهم أو زجرهم لعدم القيام بالواجب الصناعي وكذلك في العهد الصنهاجي. وفي العهد الحفصي يظهر أن انتصاب الطبيب يتقدمه امتحان تشرف عليه لجنة تحت رئاسة الأمير.

وفي العهد التركي يمتحن أمين الأطباء المترشح للعلاج ويسلمه إجازة تثبت كفاءته وخبرته. ولما تدهور الوضع السياسي أصبحت الإجازة تطلب من الباي بمجرد شهادة من سكان القرى. وكان الأطباء من أوساط مختلفة، منهم المسلم والمسيحي واليهودي والأسير والمرتد وهنالك عائلات اشتهرت بالطب يأخذ أفرادها الصناعة أباً عن جد كالوراثة. ومنها عائلات شاعت شهرتها في إفريقية وخارجها وأسندت إلى أطباء منها الأسطورة والمعجزات. ولم أجد من الأطباء من رحل إلى الشرق أو الغرب ليأخذ الطب عن علمائهم مثل ما فعل الفقهاء إلا من شرق لأداء فريضة الحج. ويلتجىء القاضي إلى الطبيب ليرشده في القضايا التي لها علاقة بالطب فيختبر الطبيب المصاب ويدلي برأيه للقاضي.

وللأطباء بتونس العاصمة سوق وحوانيت يجلسون فيها لقبول الحرفاء وعلاجهم[1]، وأجورهم كانت متواضعة وتشهد بذلك أجور أطباء المستشفيات وسيأتي ذكره. ومن الأطباء من أثرى، ومن الأطباء من استشهد وذهب ضحية جور الأمير، ومن الأدباء من مجد الأطباء أو ذمهم، ومن الأطباء من ألّف في الطب

---

(1) كان سوق الأطباء شرق جامع الزيتونة (المؤنس ـ ص 160)، وهدم في السنوات الأخيرة.

والفلسفة والأدب. وذكر الأخباريون أطباء تلفت كتبهم وربما يجدها الباحث يوماً في بعض الخزائن.

أسبـاب المـرض

إذا تركنا جانباً الأسبابَ الظاهرة الملموسة مثل الحرق بالنار، وكسر العظم من العنف والإجراح من الاعتداء وغير ذلك نجد أطباء العرب اعتنقوا الأسباب التي خصّ بها أطباء اليونان المرض ولم يحيدوا عنها طيلة القرون ألا وهي: الأخلاط، والأمزجة.

هذه النظريات التي أخذها العرب عن اليونان واحتضنوها واحتفظوا بها ولم يغيروا منها شيئاً ولم يغمرهم الشك في صحتها. وعدولهم عن التشريح لمعرفة الأعضاء حق المعرفة وتحقيق وظائفها هي الأسباب الرئيسية التي أدت بهم إلى الاعتقاد بتفوق اليونان وإلى الركون والعزلة فلم يتدرجوا بالطب في سبيل الرقي، بالرغم من تملكهم الذكاء والفطنة ودقة الملاحظة في شؤون الطبيعة وقد ترأسوا المستشفيات في الشرق والغرب واحترفوا فيها قروناً وتمتعوا برعاية الخلفاء والأمراء وتأييدهم أقول وأكرر القول إن ثقة الأطباء العرب في الأطباء اليونان كانت نشطة.

أصول العلاج ومواده

يرتكز العلاج على معرفة أمزجة المريض مفردة كانت أو مركبة وذلك بالعلامات الآتية:

الأمزجة المفردة: المزاج الحار يعرف بالأتعاب والسهر والقلق والغضب وحمرة العينين وكثرة الكلام. ويعالج بالمبردات ويعكس بالمسخنات.

المزاج البارد: يعرف بالنخس والكسل والبلادة وبياض الوجه وعلاجه بالمسخنات ويعكس بالمبردات.

الأمزجة المركبة: تسود الصفراء فيها بثقل الرأس وصفرة الوجه ومرارة الفم.

الأمزجة الدموية: تعرف باحمرار الوجه والعينين والعرق والنوم.

الأمزجة السوداوية: يسود فيها الحمى، والهذيان، والقروح الخبيثة، وفساد اللهات. العلاج بالفصد والمسهلات والحقنة والأدوية المفردة والمركبة.

الأعراض: يتجه العلاج إلى الأعراض وسبب المرض ويكون بالضد. مثلاً: يعالج المرض الناتج عن الحرارة بالأدوية المبردة والعكس.

مواد العلاج

هي الأدوية المفردة والمركبة تتكون من الأشربة والأقراص والحبوب والسفوفات والأدهان والضميدة والجبيرة والحقنة.

أنتيما Anthema

كان العرب يعالجون الاجراح من ضربة السيف وغيرها بشعر الأرنب لتكفيف الدم. وكنتُ أستعمل مادة الأنتيما المستخرجة من دم الأرنب لتكفيف الدم.

الجراحة

لم يخصص الأطباء التونسيون فصلاً مستقلاً لِهذا الفن في كتبهم لجهلهم الجراحة. قد كان عملهم مقتصراً على قطع العضو: اليد خاصة وغمسها حالاً في الزفت (القطران) لغلق الأوعية الدموية ووقف سيلان الدم، وبط الأقراح غير المنفجرة، وجبر الكسر والخلع، واستعمال المرود عند احتباس البول وإزالة الثلاليل، واللوزتين بالحلق، وعلاج الأجراح من ضربة الرمح والسيف وعلاج الحرق، وهذا مثل في تفجير اللوزة Amygdale: إذا رأينا علامات النضج في الورم الكائن باللوزة داخل الحلق وعلمنا أن القيح تجمع: يحتال عند ذلك ويتلطف في انفجاره (ابن الجزار).

هذا ما جاء في فن الجراحة عند الأطباء التونسيين وهي ما يعبر عنها اليوم بكلمة: الجراحة الصغرى (La petite chirurgie) التي هي في متناول جميع الأطباء، ولم تزد عليها بكثير جراحة أطباء الأندلس وخاصة ابن زهر.

إن ابن زهر هذا لم يفتح بطْناً أو صدراً وما اختص به في الجراحة عدا الجراحة في الجيش إثر الوغى (مثل طعنة السيف والرمح)، أما جراحة الفتق في الشاكلة (Hernie inguinale) إذا خاب في رده بأصابعه، لم يكلل بالنجاح حسب ما ذكره هو نفسه، وكذلك في شؤون الورم النازل في الانثيين (Hydrocéle Vaginale) أو الأمعاء الرقيق النازل بجانب الأنثيين (Hydrocéle Scrotale) فإنه يعرض عن ردها للخطر الذي لقيه وأشار بالعدول عنها.

وأفصح دليل هو أن أطباء الإفرنج في القرون الوسطى الذين سلكوا مسلكه قد خابوا وذكروا خيبتهم.

وإخراج الحصى من المثانة، تلك خَرَّافة لم يأتِ أحد بنجاحها.

ركود الطب بالقيروان

كتبنا أن العرب أخذوا الطب عمّن سبقهم في الحضارة ولم يزيدوا في تنميته إلا شيئاً يسيراً وخاصة في القرن الثالث والرابع من الهجرة وهي الفترة التي لُقّبت بالعصر الذهبي للطب في القيروان.

لماذا؟

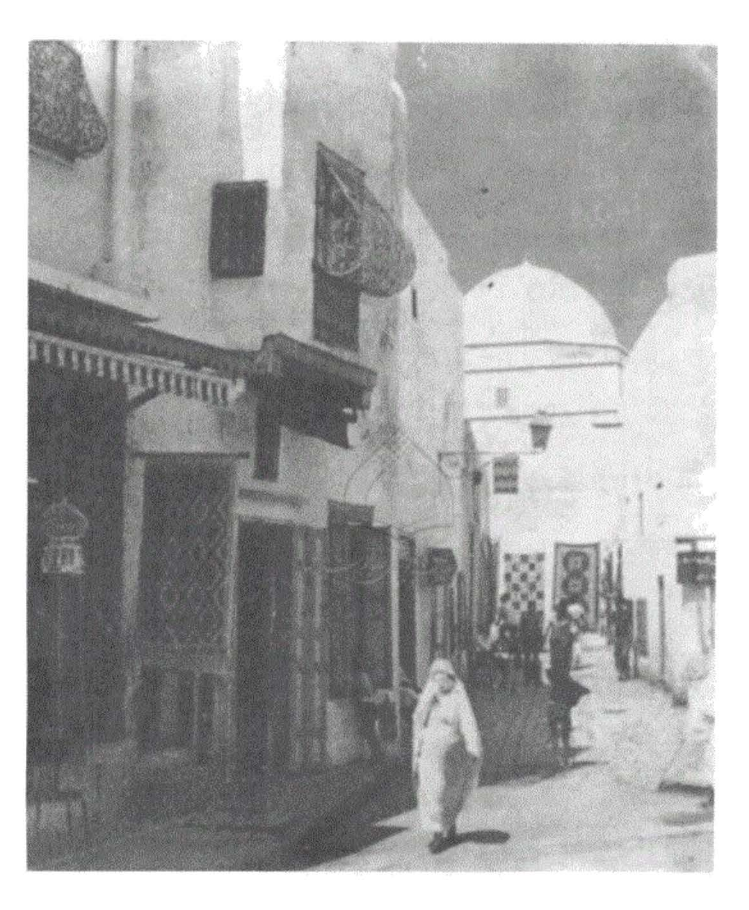
السبب الأول: أن العرب أخذوا الطب عن اليونان واعتبروه الغاية، بمعنى الغاية في النمو، ووقفوا مكتوفي الأيدي عن البحث في أسباب الأمراض التي ذكرها اليونان باسم الأمزجة والأخلاط ووقف عندها أيضاً الأوربيون بعدهم إلى القرن الخامس عشر للميلاد.

السبب الثاني: لا يقل أهمية عن الأول، وهو العدول عن تشريح الموتى لاكتشاف الأعضاء وخصائصها مثل الكبد والرئة والقلب وغيرها ذلك لاحترام الميت أو خشية من الرأي العام الذي كان يَكنّ للميت احتراماً كبيراً مع أن التشريح يبعث على التوحيد. قال ابن رُشد ـ وهو أبو الوليد أحمد بن رشد وُلد بقرطبة سنة 1129 م وتولّى القضاء بها واشتهر بالطب والفلسفة ـ قال: «من اشتغل بتعلم التشريح ازداد إيماناً بالله».

السبب الثالث: له أثره في عدم نمو الطب بالقيروان، وهو الصراع المذهبي، وهي الفتنة التي شغلت الفكر العام والعلماء خاصة من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري، نشأت مع الخوارج المناهضين للدولة الأموية فأحدثوا دُويلات بإفريقيا (بني مزاب وتاهرت) وشغباً وانتفاضات وحروباً وتشبثوا بزعامتهم الدينية

وهي في الحقيقة سياسية انفصالية شغلت الرأي العام والخُمومات المتوالية وأخص بالذكر منها: أصحاب المذهب الصُفري والمذهب الشيعي الإسماعيلي، واشتد الجدل وتعصب صاحب كل مذهب لمذهبه، وأطرد الإمام سحنون قاضي القيروان الصفرية ومنَعَهم من إلقاء دروسهم بجامع عقبة، وطارد عبيدالله المهدي أصحاب المذهب المالكي وألزمهم ديارهم وانقطع الجدل.

فكيف يتقدم العلم من غير تحاكك الأفكار، والجدل الحر والخوف من التعسف؟ ومن آثار هاته الحالة الاجتماعية والفكرية المؤسفة لم يتكون بإفريقية فيلسوف واحد ولا طبيب عبقري ما عدا ابن الجزار نسبياً. فقد سلك ابن الجزار مسلك من سبقه في التقليد. وإن كان له امتياز فإنه يتمثل في منهج التأليف الذي اتبعه في «زاد المسافر» من حيث الاختصار، والتنسيق خصوصاً إذا قيس المؤلف بالطبيب البغدادي أبو بكر الرازي في كتابه «الحاوي» الذي يعتبر أكبر موسوعة في الطب العربي، وأستاذه ابن سليمان في كتابيه «الأغذية والحميات» اللذين كانا على درجة من الإطناب تذهب بالفائدة.



القيـــروان

أطبـاء القيـروان

تذكر المصادر أن أول من عالج المرضى بالقيران من العرب أناس من أهل الثقة والزهد، لهم خبرة بالعلاج التقليدي مثل الفصد، والحجامة، وتناول العسل، والمسهلات، والمدررات، وجبر المكسورين. وليس من شك أن البربر كانوا على علم من صنف هذا الطب، اكتسبوه ولربما اكتسبوا أكثر منه من الشعب الروماني الذي كان له أطباء لهم علم وخبرة وتجربة.

ظهور الطب العربي بالقيروان

جاء عن ابن أبي أصيْبِعة أن إسحاق بن عمران أدخل الطب والفلسفة إلى القيروان وبهما ظهر الطب في المغرب وعرفت الفلسفة، هذا ما كتبناه سابقاً في «تاريخ الطب العربي في عشرة قرون» (طبع بتونس سنة 1981). وكتبه غيرنا والحقيقة غير ذلك.

إن الطب والفلسفة دخلا إفريقية في عهد الأمير يزيد بن حاتم المُهلبي الذي ساس إفريقية من سنة 155 هـ إلى سنة 171 هـ (774 م/ 787 م). وهو الذي استجلب عياض بوعوان من أبناء الكوفة لتعليم أبنائه وكان نحوياً وفيلسوفاً مثل أبيه.

وصل عياض القيروان سنة 155 هـ، مرفُوقاً بعياله وأهل بيته وحشمه وكانوا قرابة سبعين نفراً. وكان في صحبته الطبيب يَحَنّا من أهل الكوفة وكان مسيحياً، ذكره ابن أبي أطبيعة في كتابه ص 242 ولكلار (Leclerc) في كتابه تاريخ الطب العربي ج 1 ص 1013.

إنّ عائلة عياض بوعران من أشراف القيروان وفقهائها وتدعى اليوم عائلة العواني. (راجع الزُّبيدي، طبقات النحويين ص 245 و 248، وأبو العرب، طبقات ص 29. ومحمد الطالبي في كتابه الإمارة الأغلبية ص 41).

إنّ أول طبيب مشرقي تعاطى الطب بإفريقية يوحنا وهو نستوري النحلة وُلد بالكوفة وكلّفه هارون الرشيد بترجمة الكتب اليونانية والنستورية إلى العربية وترأس بيت الحكمة وكتب بنفسه ما يقرُبُ من أربعين كتاباً.

ونقل ابن الجزار عن يحنا في مرض الكبد والمعدة والباءة. راجع «زاد المسافر» ص 56 و 85 و74 و88 و90 و125. من الجزء الثاني من مخطوطة اسطنبول. عدد 1220 وبيروت ـ MS 616 ـ 113.

ويحنا هذا هل هو ابن ماسوية الذي دخل القيروان صحبة عياض بوعوان أم غيره؟ أن ابن أبي أصيبعة لم يذكر تاريخ ولادته وذكرها لكلار سنة 161 هـ/ 777 م على سبيل التقريب. وتوفي في سُرَّ من رَأى. إذن، يظهر أنه غادر القيروان بعد مدّة من وصوله، وربما غلط لكلار في تاريخ ولادته.

الأكيد أن الفلسفة دخلت إفريقية على يدي عياض بوعوان ودخل الطب على يدي يحنا أربعين سنة على الأقل قبل إسحاق بن عمران. هذا ما وصل إليه البحث، والتحقيق متواصل، لأنّنا لم نجد سواه بالكتب التي لدينا.

فقهاء البدن

كانت القبائل تصاحب الجيش في تنقلاته وغزواته، وعلى النساء إعداد المأكل والمشرب للمحاربين، ورفع الأموات من ساحة القتال، ودفنهم، وعلاج الجرحى، وجبر المكسورين، وكان في إعانتهن الرجال من الشيوخ خاصة ممن اكتسبوا خبرة في العلاج ولم يكونوا أطباء إخصائيين، وهم الذين أطلق عليهم اسم المتطببين أو «فقهاء البدن». جاء في كتب الطبقات كثير من أسمائهم. أذكر من كتاب المدارك لعياض (وطنية ج 3 ص 145) أن سعيد بن عياد من أصحاب الإمام سحنون قال: قال أبو العرب في حقه: كان فقيه البدن ذا عبادة، فقيراً متعففاً. وفي (ص 146) قال: إن اللباد كان فقيه البدن، عابداً صالحاً متقشفاً، يقال أنه كان عالماً باثني عشر صنفاً من أصناف العلوم، سمع منه أناس، ومات سنة 319 هـ.

وقال في (ص 160): إن حبيب بن الربيع، توفي سنة 339 هـ ومحمد بن إبراهيم بن صبيح توفي بسوسة سنة 334 هـ وكلاهما من فقهاء البدن.

وفي كتاب المعالم للدباغ (ج 2 ص 416)، جاء: أن محمد بن فرج بن البنا كان متعففاً وكان فقيه البدن ومعناه في الحقيقة أنه كان طبيباً.

1ـ إسحاق بن عمران

الطبيب:

طبيب بغدادي، نشأ وقرأ واشتغل بصناعة الطب في بغداد وكان مسلماً. استجلبه إبراهيم بن الأغلب الثاني لخدمته بالطب وبعث إليه راحلة وألف مثقال ليستعين بها على السفر وكتاباً بخط يده يعده فيه بالرجوع إلى بلاده متى شاء ذلك. فرضي ودخل أفريقية وليس لدينا ما يثبت في أي عام حلّ بالقيروان بعد سنة 196. واتصل بالأمير وخدمه بالطب وكان حاذقاً عارفاً بتركيب الأدوية. وهو طبيب ذو مكانة علمية ممتازة أدخل إلى إفريقية الطب والفلسفة، وبعد بضع سنوات وقعت وحشة بينه وبين إبراهيم بن الأغلب فغضب عليه الأمير وأمر بالتضييق عليه وقطع الرزق، فبارح الطبيب القصر الأميري وانتصب بحي من أحياء القيروان يعالج الناس. فوقع الإقبال عليه فخابت آمال الأمير. فاغتاظ عليه وأمر بقتله وصلبه، فكان إسحاق بن عمران أول شهيد من أطباء أفريقية وكان ذلك سنة 279 هـ/ 892 م.

مؤلفاته:

كتب إسحاق بن عمران كتباً كثيرة والظاهر أنها رسائل ومقالات ضاعت كلها ولم يبق منها إلا كتاب الماليخوليا الذي لم يتجاوز عدد أوراقه 22 ورقة. وهذه أسماء الكتب التي أوردها ابن أبي أصيبعة وضاعت كلها ولم يبق منها إلا الذكر وهي: كتاب الأدوية المفردة، كتاب العنصر والتمام في الطب، مقالة في الاستسقاء، مقالة في الإبانة عن الأشياء التي يقال إنها تشفي الأسقام، كتاب نزهة النفس، كتاب في الفصد، كتاب في النبض، كتاب في القولنج، كتاب في البول،

كتاب في الشراب، كتاب في تدبير الأمراض الحادة والخمر، كتاب في بياض المني، كتاب الماليخوليا (الهلواس) وهو أهم كتب المؤلف، ولم يكتب العرب من نوعه قبل، ويوجد منه النص العربي ثلاث نسخ: واحدة بألمانيا وهي التي اعتمدتها حسب الصور الشمسية التي أوردها ح. ح. عبد الوهاب وتوجد بالمكتبة الوطنية، ونسخة ثانية بمكتبة اكسفورد رقم 1596 بإنكلترا، والثالثة بمكتبة الاسكريال بإسبانيا رقم 896/5 من غير اسم المؤلف ونسبت إليه.

وترجم الكتاب إلى اللاتينية قسطنطين[1] الإفريقي في القرن الحادي عشر وعقب الأستاذ أبو بكر بن يحيى هذه الترجمة فوجدها مطابقة للأصل العربي ما عدا بعض الكلمات التي لم يحسن ترجمتها قسطنطين[2].

توجد النسخ باللسان اللاتيني في المكتبات الأروبوية، وهذا رقم النسخة بالمكتبة الوطنية بباريس: 6988.

كتاب الماليخوليا

إن النسخة العربية من هذا الكتاب الموجودة بمكتبة مونيخ بألمانيا تحت رقم 805 من مجموع خط مشرقي بتاريخ 4 جانفي 1757 من ورقة 99 إلى 121 ومنها نسخة مصورة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 18779 التي اعتمدتها وهي كاملة وعنوانها «مقالة في الماليخوليا» وتحتوي على مقالتين اثنتين الأولى تناولت حقيقة المرض والثانية العلاج.

قال إسحاق بن عمران: هذا كتاب مختصر في الداء المعروف بالماليخوليا وهو الوسواس السوداوي، تذكرة لنفسه بما عساه أن يعتريه من النسيان عند الشيخوخة ورحمة لمن ينظر فيه من محبي الطب وأرباب الحكمة. وإن كتب فيه

---

(1) راجع ما جاء في شأن هذا الرجل في آخر هذا الباب ص 269.

(2) راجع مجلة «العلوم» تونس، سنة 1953.

روفس Refus قسماً من أقسامه وأجاد، وإن لم يذكره القدماء ولم يفرده جلنوس بكتاب خاص فأراد المؤلف أن يستكمل البحث فيه.

المقالة الأولى: حقيقة المرض

يحل المرض في الجسم والنفس وجوهر الدماغ وأعراضه من الخوف الحزن. أما الحزن فهو فقد محبوب وأما الخوف فهو توقع مكروه ما، ويعرفه كل الناس من الكآبة والوسواس اللذين يلبسان لصاحبه الحزن الذي يغلب عليهم والخوف الملاحق ظناً منهم أن الوحش المتصور لهم في النفس يحدث لهم الفزع أحياناً.

أسباب المرض:

إن الغبار السوداوي إذا اتصل بدماغ الرجل ضيع العقل منه وأظلم نوره، وأفسده حتى يمتنع من الإدراك ويكسبه خواطر وظنوناً فاسدة، ويحدث عنده أحزاناً ومخاوف رديئة ويتصدى للنفس بدوام السهر والحزن والهزال وضعف الطبيعة فلا تبقى على مثل أيام الصحة. ويذكر المؤلف الأحداث والأعراض النفسانية التي تتولد منها السوداء عند الرجل والمرأة ومنها التي تمتّ إلى الفرح، ومنها التي تقع بعد الولادة، والحركة والسكون، والكلل، والاستفراغ والامتناع، والإدمان على شرب النبيذ، والأمراض المزمنة ومن الماليخوليا يتولد الصرع أحياناً.

المقالة الثانية:

تذكر العلاج بحلق الرأس وذلك باللبن والأدهان وتناول البنادق والسفوفات والأشربة وكلها من البنفسج وحَبّ القرع ببونج والخشخاش، والاستحمام والاستفراغ بالدم واجتناب الأغذية التي تتولد منها السوداء وذكرها المؤلف.

وترجم كتاب الماليخوليا إلى اللغة الفرنسية محققه الأستاذ أبو بكر بن يحيى الصيدلي وكان موضوع أطروحة الآنسة بافزوات Bavouzet في الطب بجامعة باريس سنة 1963، كما كان موضوع أطروحة السيد شمس الدين المبروك بن حمودة سنة 1979 لنيل الدكتوراه في الطب بتونس وله الفضل في كتابة هذه الأطروحة باللغة العربية.

الموسيقى :

للموسيقى تأثير على الطبائع ولا شك فإن أصناف الموسيقى لها تأثير على كل صنف من أصناف الأمراض النفسية كالماليخوليا ويذكر المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب أن طاقماً من الموسيقيين يذهب في يوم من الأسبوع إلى مستشفى العزيزة عثمانة ليروض المرضى بالنغمات الملائمة لكل مرض حسب ما جاء في كتاب الموسيقى العربية للدكتور صالح المهدي.

قصة اغتيال إسحاق بن عمران

كان إسحاق بن عمران يدعى ببغداد سمّ ساعة، يفهم من هذه العبارة أنه كان يعرف أو يصنع سمّاً يقتل عند تناوله في ساعة واحدة. فلا غرابة أن إبراهيم بن الأغلب الطاغية الذي قضى على فتيانه جميعاً لنبأ جاء به منجمه أنه سيقتل يوماً بيد أحدهم، وقضى على حراس قلعة باللزمة غدراً (محمد الطالبي ص 291) وغيرهم شهوة منه (ابن عذاري، ص 122 ج 1).

المظنون أن الأمير طلب من ابن عمران أن يصنع له السم فأبى. فوقعت الوحشة بينهما فأطرده وأمر أن يقطع رزقه فلم يؤثر هذا على الطبيب في طلب الرزق وعيشه فأمر الطاغية بفصده من ذراعيه وقتله وصلبه شماتة. وأذاع القصر الخرافة التي أتى بها ابن أبي أصيبعة وهي: أشار الطبيب على الأمير أن لا يتناول أكلة أحلها طبيب أندلسي كان في صحبتهما على المائدة. فاعتل الأمير في ليلته وبعث في طلب ابن عمران. فامتنع الطبيب ولم يأت إلاّ بعد مساومة على أجر باهظ: مائة مثقال، وأمره بشرب الثلج وقال له قولاً غليظاً مفاده: أنه سقاه يوماً سمّاً ليذهب بعقله.

هذه خرافة لا يقبلها العقل مطلقاً. ذلك أن الثلج لا يوجد بالقيروان شتاء ولا صيفاً. وإن وجد بمرتفعات جبال خمير والشعانبي في الشتاء فمن الصعب أن يحضر في ليلته. ومن المستحيل أن يجرأ الطبيب على الأمير بخطاب مثل ما ذكر. وسبب اغتيال الطبيب هو امتناعه من صناعة السم للأمير حسب الظن، ليس العطايا والهدايا التي يبذلها الملوك وأصحاب السلطة كلها عن حسن نية بل منها ما يراد به الأغراض الشخصية.

قارورة السمّ

جاء في المدارك (مخطوطة وطنية رقم 1817 ج 1 ورقة 155) أن عبدالله ابن غانم قاضي القيروان دخل على إبراهيم بن الأغلب فوجد بيده قارورة فقال له إبراهيم: كم تظن أيها القاضي يساوي ثمن هذا؟ فأجاب: شيء تافه يسير، فقال له إبراهيم: ثمنه كذا وكذا. فقال ابن غانم: ما هو؟ فقال: سم. فقال: أرنيه، فدفع إليه القارورة، فضرب بها القاضي عموداً في المجلس فكسرها.

شرف المهنة

طلب الخليفة المتوكل العباسي من طبيبه حنين أن يصنع له سماً يقتل به أحداً فامتنع، فحبسه ثم أحضره وجدد له الطلب، فاعتذر قائلاً: إن الصناعة جعلت في رقبتي عهداً أن لا أصنع دواء ليقتل رجلاً.

2 ـ علي بن إسحاق بن عمران

كان طبيباً بالقيروان وهو ابن إسحاق بن عمران المتقدم الذكر. وكان شيعياً وذا مكانة عند رجال الدولة العبيدية إذ كان يستخلفه صاحب القيروان عند غيابه. ومن مناقبه أنه حكى يوماً أن القاضي عبدالله بن الصايغ كلما رأى الجلاد راشد الأسود اربد وجهه، وإذا ذكر له تنكر سروره حتى عرف ذلك كل من حضره. فسأله علي يوماً عن سبب ذلك فأجاب: تحدثني نفسي أن ملك الموت يقدم عليّ في صورة راشد الأسود عند قبضه لروحي. فإذا رأيته لا أملك من الصبر شيئاً (نقلاً عن ابن عذاري، ج 1، ص 149).

وشاء القدر أن ابن الصايغ ركب البحر قاصداً المشرق، فرمى به البحر بمدينة طرابلس وكان بها إبراهيم بن الأغلب فاراً من القيروان فأتي به إليه فأمر بقتله وسلمه إلى راشد.

3 ـ إسحاق بن سليمان

الرجـــل:

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وكنيته أبو يعقوب كان كحالاً بمصر قدم القيروان بطلب من زيادة الله الثالث آخر أمراء بني الأغلب وفي أواخر أيامه بعث إليه خمس مائة دينار ليتقوى بها على السفر. ولما وصل القيروان وجد الأمير بالأربص صحبة الجيش يترصد أبا عبدالله الصنعاني الشيعي الداعي لعبيد الله المهدي. فانتقل إلى الأربص وحلّ بين يدي الأمير وهو الذي وصف مجلسه بالهزل واللهو والحال يقتضي الجد والاستعداد للقتال. وكان ذلك سنة (296/ 932) ولما انهزم الجيش الأغلبي أمام أبي عبدالله الداعي وقبائل كتامة التي كانت في مساندته وفرّ زيادة الله إلى الشرق استقرّ إسحاق بن سليمان بالقيروان وكانت البلاد خالية من طبيب عبقري. فكان وجوده مرغوباً فيه. فقرّبه عبيدالله المهدي الذي حلّ مكان الأغلبي فخدم الأمير وخدم أسرته وخدم ابنه القائم بأمر الله، وحفيده إسماعيل المنصور وشهد وفاة هذا الأخير سنة 341/953. كان إسحاق بن سليمان ذا معرفة وعلو همة. ذكر غير واحد أن ابن سليمان تتلمذ على إسحاق بن عمران وتردد على بيت الحكمة. أقول: إنه لا صحة لهذا إذ أن ابن عمران توفي قبل وصول ابن سليمان إلى القيروان بسبعة عشر عاماً. وأغلقت بيت الحكمة أبوابها بفرار زيادة الله. أما الطبيب أحمد بن الجزار فقد صاحب ابن سليمان وأخذ عنه حقاً، وتتلمذ عليه غيره من أبناء القيروان.

آثـاره:

وكتب ابن سليمان جميع مؤلفاته الطبية والدينية باللغة العربية الفصحى التي تعلمها في مصر وعالج بها في القيروان. وكان طبه عربياً في التفكير والوضع. ومن الأسف أن فقدت كتبه كلها من تونس. وتوفي عن سن عالية بعد المائة ولا علم لنا بتاريخ ميلاده. إنما نعلم أن استقراره بالقيروان كان خمساً وأربعين سنة تقريباً قضاها في صناعة الطب والتأليف ولم يتزوج ومات من غير عقب.

قيل له يوماً: لماذا لم تتزوج وتخلف ابنا يخلد ذكرك؟ فأجاب: أربعة كتب تخلد ذكري: كتاب الأغذية وكتاب الحميات وكتاب البول وكتاب الاستسقاء وفعلاً كتب ابن سليمان رسائل في الطب والإلٰهيات فلم يكن لجميعها صدى أكبر وأكثر من هذه الكتب الأربعة، وخاصة الكتابين الأولين: كتاب الأغذية وكتاب الحميات. فقد كان لهما شأن عظيم في أروبا طيلة العصر الوسيط. والسبب أن الكتابين ترجما إلى اللغة اللاتينية واللغة العبرانية ووقع طبعهما في أواسط القرن السادس عشر يوم ظهرت الطباعة. وتبناهما اليهود خاصة الذين كانوا في جميع أقطار أروبا، وأبعدت جاليتهم من المشاركة في الخطط الإدارية والعسكرية وأعرضت اليهود عن الفلاحة طوعاً أو قهراً وتمسكوا بالصنائع التقليدية مثل الخياطة وتجارة المال والمهن الحرة والطب خاصة. تشهد به كثرة المخطوطات العبرانية والمطبوعة من الكتابين بمكتبة باريس.

كتاب الأغذية

كتاب في ثلاثة مجلدات، يذكر المؤلف في المجلد الأول: الفاكهة واللحوم، وفي الثاني الحبوب والغلال، وفي الثالث البقول والبذور.

المدخـل:

قال إسحاق بن سليمان: إن السبب الذي دعا الأوائل إلى الكلام في طبائع الأغدية (أنهم) وجدوا أن الأبدان مضطرة إلى أمرين:

1 ـ إعطائها من الغذاء ما يصلحها ومما به قوامها.

2 ـ نفي ما يجتمع في الأبدان من قسم الغذاء المخالف لمزاجها.

قال المؤلف: متى رأينا في الغالب على مزاج الرجل المرار الأصفر جعلنا نأمره أن يستعمل من الغذاء ما يبرد مزاجه ويرطبه، وإن كان الغالب البلغم جعلنا نأمره أن يستعمل من الغذاء ما يسخن مزاجه ويخففه، وكذلك في الطبائع، فإن كان

الطبع حاذاً يرد إلى الاعتدال أو التوسط.

«وباعتبار أن من كل نوع نوعين متضادين من الغذاء هناك نوع متوسط يعطى للمريض».

ومن مواد الغذاء البستاني والريفي يجب اختيار أيهما أصلح كما يجب اختيار جرمهما ورائحتهما وطبعهما حارة أو باردة وأخذها (تناولها) حسب الحاجة.

الثمار: ألطف وأسخن من النبات وببعضها نواة وقشور.

اللحوم: لم يذكر المؤلف جميع أنواع اللحوم إلا البعض منها حسب المرعى وسرعة هضمها واختلاف أجزاء الدابة من لحم وكبد وأمعاء وشحم ومخ ولبن. وذكر للطيور قوانصها وبيضها ولم يذكر أنواعها وذكر السمك ونوعيه: البحري والنهري.

الحبوب: يذكر المؤلف منها أربعة عشر نوعاً ويصف طبائعها وطبخها ومنافعها وأكثرها من إنتاج أفريقية ومنها ما لم يوجد فيها مثلاً: الموم والخنكشت وغيرهما كثير.

البقول: وكذلك فعل عند ذكر البقول والفاكهة والغلال فقد ذكر ما يوجد منها في تونس أو لم يوجد.

البذور: ذكر منها ثلاثين نوعاً منقولة عن الكتب اليونانية لا أثر لها في أفريقية.

أهمية الكتاب

أهمية الكتاب تنحصر في ذكر بعض الأطعمة التي كانت تطبخ في القيروان في عصر المؤلف وإن لم يأت بكيفية طبخها عند العامة والخاصة، وذكر أنواع الغلال من مشمش وخوخ وعنب وتين وخرنوب ولم يذكر مواطن إنتاجها وكمية الإنتاج ولم يذكر البرتقال والليمون.

يوجد كتاب الأغذية في ثلاثة مجلدات في المكتبات العامة التالية:

- استنبول: بالمكتبة السليمانية ثلاث نسخ رقم 3603 و 3605 و 3606. وبمكتبتي فيلم مصغر من النسخة الأخيرة ونسخة مصورة منه.

- ألمانيا: رقم 776 مجموع به المجلد الأول بمكتبة مونيخ رقم 809.

- مدريد: رقم 5086 باللسان اللاتيني.

- باريس: بالمكتبة الوطنية رقم 1128 باللسان العبري.

كتاب الحميات

جاء هذا الكتاب في خمس مقالات:

المقالة الأولى: فيما يخص الحمى وحدها المبنى عن طبيعتها وأسبابها والعلل المولدة لها من غير تفصيل.

المقالة الثانية: في حمى المُوم المتولدة في الأرواح وهي:

الروح الحيوانية التي ينبوعها القلب.
والروح النفسانية التي ينبوعها الدماغ.
والروح الطبيعية التي ينبوعها الكبد ومنها ينبعث إلى جميع البدن.

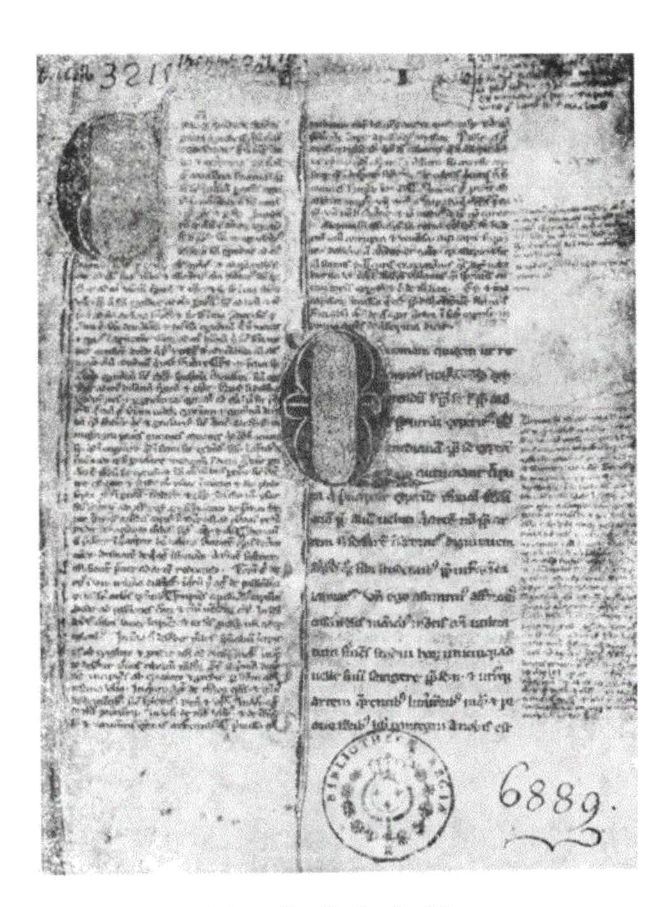
المقالة الثالثة: في حمى أفطقيوس المعروفة بالسل المتولد في الأعضاء الصلبة، أعني اللحم والعروق والحجب والغضاريف وما أشبه ذلك.

المقالة الرابعة: في الحمى الحادة وما يتبعها من البرسام والشوضة والجدري والحصبة وغير ذلك.

المقالة الخامسة: في حمى العفن المتولدة من الأخلاط: الدم والمرتين. وينتهي الكتاب بذكر الحميات التابعة لغيرها من الأمراض.

التعليـق:

هذا الكتـاب قليـل الوصفـات إن لم أقـل خالياً من السريريـات الصالحـة



من كتاب الحميات لإسحاق بن سليمان
المكتبة الوطنية ـ باريس
قسم المخطوطات

لاتكتشاف المرض وكنهه. أما فائدته فهي لفت نظر الطبيب إلى أن الحمى كيفما كان سببها وينبوعها تدل على مرض يجب التبصر له. وأما النظريات التي جاءت فيه فإنها لا ترتكز على أسس علمية، بل كلها خيالية لا تمت إلى التجربة والصحة بشيء، وكلها منقولة عن جالنوس وعن غيره من أطباء اليونان.

يوجد الكتاب باللسان العربي بمكتبتين اثنتين على ما أعلم:

ـ استنبول: نسخة كاملة بالمكتبة السليمانية رقم 2109 بها أوراق 225 ورقم 962 كاملة ورقم 2776 ناقصة، وهي من مجموع به 5 رسائل أخرى ومن كليهما فيلم مصغر بمكتبتي ونسخة مصورة.

ـ الرباط: رقم 2261 بالمكتبة الملكية. خط جميل ملون وفي حالة رديئة. وهو كتاب مجموع من أقاويل الأوائل في الحميات، مما عني بجمعه وتأليفه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي المتطبب به خمس مقالات. كتب سنة 1124 هـ.

ـ وباللسان العبري: باريس، بالمكتبة الوطنية، نسخ كثيرة رقم 1126 و 1127 و 1128، و 1170.

ـ اكسفورد: نسخة واحدة.

ـ وباللسان اللاتيني: نسخ كثيرة في كثير من المكتبات الأروبية.

رسالة في البول

يراد من هذه الرسالة اكتشاف كنه المرض والتكهن بتطوره من لون البول ورائحته.

من علامات البول التي تدل على المرض:

اللون: أول ما يستفاد منها:

ـ البول الأصفر الرقيق في الحميات دلّ على أصل المرض.

ـ البول المري مع الحميات دلّ على شر.

ـ البول الأبيض الرقيق من غير مرة وحمى التهابية واختلاط دلّ على شرّ قريب من الموت.

ـ البول الأبيض الغليظ في البحران دل على الخلاط من الأوجاع.

ـ البول الأبيض المنتن دل على حصول عفنة واختلاط العقل إذا كان مصحوباً بالحمى.

ـ البول الرقيق المائي مع الحمى دل على رطوبة زائدة في البدن.

ـ البول إن وجد فيه دم يكون إما من انقطاع عرق في الكلى أو من الطمث.

ـ البول الأشقر دل على المرة الصفراء.

ـ البول الأخضر إذا كان مع حمى واصطحب بكثرة شرب الماء للعليل دل على ذوبان الكبد وقد يعرض لصاحبه غشاوة وعرق، وبرودة أطرافه دل على حدوث كزاز خبيث.

ـ البول الأسود دنيء جداً ينذر بالموت.

ـ البول الزيتي وفيه ثقل كان بصاحبه قشعريرة.

ـ البول الثقيل الصافي دل على صداع وإذا كان فيه رغوة زبد دل على صداع.

توجد هذه الرسالة في البلدان الآتية:

ـ القاهرة: دار الكتب رقم 311 تيمور.

ـ اكسفورد: رقم 611 باللسان اللاتيني.

ـ روما: الفاتيكان رقم 310.

ـ باريس: رقم 1125 و 1139 باللسان العبري.

ـ استنبول: آيا صوفيا رقم 6563 ـ أوراق 35 ـ كتابة مشرقية وهي التي اعتمدتها وهي من غير تاريخ واسم الناسخ ومنها بمكتبتي فيلم مصغر ونسخة مصورة من هذا الكتاب يستفاد منها أن الطبيب يكشف عن المرض أو يتكهن عن مستقبله.

كتاب رفع مضار السموم

من مجموع رقم 3639 بمكتبة آيا صوفيا من ورقة 14 إلى 63 منسوب إلى إسحاق بن سليمان لم تذكره المصادر.

كتاب السقيا

منه نسخة باللسان العبري رقم 1170 ونسخة ثانية رقم 1173 باسطنبول.

رسالة الاستسقاء

توجد منها نسخة من مجموع بالمكتبة السلمانية رقم 3593 يتبعها شرح.

وقع طبع الترجمة اللاتينية من كتاب الاستسقاء بليون (فرنسا) سنة 1515، وإن هذه الترجمة تختلف عن النسخ الموجودة ببلد لايدن (هلندة) وبلرم (إيطاليا) حسب ما جاء إلى علمنا.

رسالة الخطأ في صناعة الطب

يوجد منها نسخة بالسليمانية رقم 3588 ـ لم أتول فحصها ـ.

رسالة في مزاج دمشق

وضعها المؤلف في مصر، منها نسخة بالسليمانية رقم 3589 من ورقة 37 إلى 44.

4 ـ دوناش بن تميم

دوناش بن تميم[1] ويكنى أبو سهل، نشأ بالقيروان في حدود القرن الرابع الهجري أي العاشر مسيحي. وتعلم العربية والعبرانية وأجادهما وتعلم الطب على إسحاق بن سليمان. وخدم بالطب ملوك بني عبيد إلى أن بارح المعز لدين الله المهدية قاصداً مصر، واشتهر في الفترة 349/ 287 ـ 960/ 900.

---

(1) راجع المجلة الآسيوية مقالة خصصت لهذا الطبيب والحبر.

كتبـه:

ـ كتاب التلخيص في الأدوية المفردة يتبعه بيان للأوزان والمكائيل في صناعة الطب.

ـ كتاب في الحساب الهندي.

ـ كتاب في الفلك أهداه إلى الملك إسماعيل المنصور (334/341) ثالث ملوك بني عبيد، وأكثر كتبه في الدين العبراني وأهمها:

شرح على كتاب البصيرا وأجوبة على رسائل من أحبار الأندلس ومصر وبغداد من اليهود يستفتونه في دينهم فيفتيهم ومن بينهم الحبر الأندلسي حصداي بن شبروت الذي شارك ابن جلجل في ترجمة كتاب ديسكريدس في الطب اليوناني.

والملاحظ أن دوناش كتب الطب والديانة باللغة العربية الفصحى. ثم نقلت كتبه إلى اللغة العبرانية وكثير من هذا الإنتاج محفوظ في المكتبة البدلية بأكسفورد ومكتبات أخرى.

5 ـ أحمد بن الجزار: قطب أطباء القيروان

الرجــل:

اسمه أحمد وكنيته أبو جعفر وأبوه إبراهيم وشهرته ابن الجزار. ولد بالقيروان حوالي سنة 285/895، نشأ في أسرة من الأطباء. كان أبوه طبيباً وعمه طبيباً وسلك مذهبهما وهو أمر معتاد. فمن الحرف ما امتازت بها أجيال من أسرة واحدة مثل التعليم والطب وأكثر من ذلك أن من الحرف القديمة مثل صناعة الجليز بالقلالين[1] ما أخفى أصحابها أسرارها عن كل أجنبي فاندثرت الصناعة بموتهم وقبرت الأسرار معهم.

(1) حي بعاصمة تونس.

ـ تعلم أحمد في صغره وشبابه تعلماً شاملاً كما هي العادة والمنهج السائد في القيروان. حفظ القرآن وقرأ الفقه والحديث والنحو والآداب وتضلع فيها وألف في النحو والتاريخ ونظم الشعر وأخذ الطب عن أبيه وعمه[1] وعن إسحاق بن سليمان وفاق أستاذه هذا بعدد مؤلفاته وتنوعها وفائدتها وطريقة وضعها وغزارة مادتها ورواجها وثبتها بمرور الزمان ولا غرابة إن فاق الفرع أصله.

ومن أوصافه الجديرة بالذكر أنه كان من أهل الحفظ والتطلع... عجيباً في صمته وهدوئه، ولم يحفظ عنه في القيروان زلة ولا أخلد إلى لذة. يشهد الجنائز والأعراس ولا يأكل فيها... أليس هذا من شيم الأخلاق والتواضع؟ وخص الفقراء بكتاب في الطب وهي ظاهرة اجتماعية لم نجد ما يماثلها عند القدماء وأطباء العرب من قبله وبفضل هذه الأخلاق الحميدة والسيرة المثلى وتضلعه في الطب وقع عليه في مهنته إقبال عظيم فكانت عيادته تغص بالحرفاء. يروى أنه جاءه يوماً ابن أخي النعمان قاضي القيروان وخليفته في القضاء فلم يجد مقعداً يجلس فيه. كان ابن الجزار يجلس للعلاج والتعليم بداره ويصنع الدواء من أشربة وأدهان وأقراص وغيرها بنفسه ويجعلها بين يدي غلام اسمه رشيق يجلس بسقيفة الدار ليسلمها إلى أصحابها ويتسلم الثمن وأجرة الطبيب، وليس لنا علم بمقدار هذه الأجرة ونسبتها. وما نعلمه أن ابن الجزار كان غنياً وخلف بعد وفاته ثروة هائلة تعد بأربعة وعشرين ألف دينار ذهباً وخمسة وعشرين قنطاراً[2] من الكتب[3]، وكل يعلم أن الكتب بالقلم كانت على الرق وهي جلود مصنوعة صناعة مثل الورق وثمنها باهظ، والكتب للمؤلف كالآلة للصانع تعكس سعة معلوماته. وليست الكتب التي ذكرها ابن أبي أصيبعة كلها مجلدات بل أكثرها رسائل، وعبثاً سميت كلها كتباً، ويدخلنا الشك أن هذه التركة كانت كلها من كدّ يمينه حسب ما نفهمه

---

(1) المظنون أن أباه وعمّه قد أخذا الطبّ عن كتب لاتينيّة، أو عن يُوحَنّا ابن ماسويه الذي قدم القيروان سنة 155 هـ قادماً من بغداد، وقد ترجم بها كتباً في الطبّ نقلاً عن اللاتينيّة.

(2) وزن الدينار الأغلبي 4,20 قسم. والقنطار خمسون رطلاً في ذلك العصر.

(3) منها كتب في النحو والتاريخ، أهمها كتاب في تاريخ الدولة العبيدية لم يقع العثور عليه.

من مؤرخه ابن أبي أصيبعة بل إن فيها قسطاً من سخاء الأمير وجزيل عطائه. يشهد به الطبيب نفسه في مقدمة كتابه زاد المسافر وخاتمته يؤيده شعره ويكذب الرواية التي ذكرها ابن أبي أصيبعة ومفادها أن ابن الجزار كان لا يركب قط إلى أحد من رجال أفريقية ولا إلى سلطانهم، مع أنه يذكر في الرواية نفسها أنه يركب يوم الجمعة من كل أسبوع إلى المهدية وينزل ضيفاً على عم السلطان. وهل يعقل أنه يحل بالقصر المجاور لقصر الأمير ولا يطلب المثول بين يديه لتقديم مراسم الطاعة والولاء وعبيد الله هو من هو. اللهم أن يفهم أنه لم يركب إلى رجال الدولة طوعاً لمجالستهم والسهر معهم اقتداء بأجلاء علماء القيروان أضراب الإمام سحنون الذين كانوا يجتنبون رجال السلطة خوفاً من الانزلاق في التواطؤ معهم.

ومما ذكر عنه أنه لم يذهب إلى الحج لأداء الفرض والاجتماع بعلماء مصر والشرق ليستفيد منهم ويفيدهم مثل ما جرت به العادة، ذلك لأنه كان شيعياً على مذهب الأمير ومنقاداً لسياسته، وما فيها من الغموض والكيد لأهل القيروان. ألم يشدد عليهم عبيد الله الحج؟ ألم يأمر بأن يكون طريقهم على المهدية وأن لا يتعدى هذا الطريق أحد حتى يدفع غرامة قد وضعها على الحجيج؟ وقد همّ بالذهاب إلى الأندلس وإن لم يذهب فذلك انسجاماً منه مع العبيديين للوحشة التي كانت بينهم وبين الأمويين أصحاب الأندلس. ويذكر ابن أبي أصيبعة من ناحية أخرى أن ابن الجزار كان يصطاف أيام القيظ من كل عام برباط بساحل البحر الرومي[1]. إن من يعلم أن أهل الرباطات كانوا على مذهب أهل المدينة وأشد الناس محافظة على مذهبهم وأنّ السنيين كانوا عرضة لاضطهاد الشيعة من غير رأفة ولا حنان يستغرب هذه الرواية. وأخيراً نجد بين كثير من الكتب مثل معالم الإيمان لابن ناجي والمدارك لعياض ذكر أحمد بن الجزار في التعريف بكثير من رجال القيروان وهي دلالة واضحة على الثقة التي كان يتمتع بها عند المؤرخين والاعتماد على قوله. وكانت وفاته سنة 369/979 ولا نعلم هل كان له ولد.

واعتمدت في هذه الترجمة على مقدمة «زاد المسافر» وخاتمته، وطبقات ابن جلجل الطبيب الأندلسي المعاصر للمؤلف الذي لم يسكن القيروان ولم يعرفه شخصياً وهو الذي أخذ عنه ابن أبي أصيبعة الذي عاش في مصر في القرن السابع للهجرة. وروايتهما لم تخل من الغلط والمجازفة والمبالغة فوجب التحقيق. وأتيت في تاريخ مولد المؤلف ووفاته بالقول الراجح من غير أن أتعرض للروايات التي جاءت فيها لقلة الفائدة.

أبيات من نظم ابن الجزار جاءت في كتاب نفح الطيب ج 5 ص 764 للمقري طبع بيروت:

وما زلت أجني منك والدهر ممحل	وما ثمر يجنى ولا زرع يحصد
ثمار أياد دانيات قطوفها	لأوراقها ظل علي ممدد
يرى جارياً ماء المكارم تحتها	وأطيار شكري فوقهن تغرد

وهي أبيات تمتاز برقة اللفظ والمعنى، جاءت في شكر الأمير عبيد الله المهدي الذي أجزل له العطاء.

ملخص مقدمة كتاب زاد المسافر:

... قال المؤلف: إننا ندعو بدوام نعمتك ونرغب إلى الله في استتمام ما عرفك من المحاسن وخصك به من الفضائل. فإننا نرغب إلى الله في أن ينير طالع السعادة وينشر أبنية المعالي... وأمتعك الله ببقاء العز وطول مدة العمر في أمن... رأيت عندما عرفني الله من فضلك أن أوصل ما التمس به الدنو منك وأجعله سبباً إلى الوقوف في ظلك وأناجيك بما تميل به نفسك الشريفة من العلوم النفيسة... فألفت أدام الله لنا سلامتك كتاباً جمعنا فيه عيون ما ذكره أفاضل الأطباء... ويحسن (الكتاب) في عينك ويزن سمعتك ما يقربنا به إليك ونلمس به الدنو منك... وإني لم أقصد إلى تأليفه ونظمه إلا إيّاك...

بسم الله الرحمن الرحيم وبه المعونة

قال الشيخ الاجل العالم ابو جعفر احمد بن ابراهيم بن ابي خالد المتطبب
رحمه الله وعفا عنه انا ندعو لك ادام الله نعمتك ونرغب الى الله في استتمام
ما عرفك من المحاسن وحصلت به من الفضائل فانا نرغب الى الله في ان
يخبر طالع السعادة ويديم عز السيادة وينشر ابنية المعالي ويحل
دولة العوالي وامتعك الله ببقاء العز وطول مدة العمر في امن
من غير الدهر وجعل ما ينهل للناس بيده ذريعة الى تجريده
وكان لك مكرما بفضله وحافظا بطوله واني لما نظرت في التجارة
التي اختصصتها واستوفيت الذي التمستها فلم ار شيئا ينفق فيها الا
العلم والبيان والحكمة والبرهان وعلمت ان الغالب على ارادتي
والمستولي على من تعدل تقريب العالم على قدر علمه واقصاء
الجاهل وتبعيده مرتفع عندما عرفني الله من فضلك ان اوصل ما
اختص به اليك تقربا واجعله سببا الى الوقوف في ظلك وتبالك
واتاحتك بما تميل اليه نفسك الشريفة من العلوم النفيسة
اذ كان من النسق الهدية ان تكون من موافق ما هو موجود عند
المهدي اليه فالفت ادام الله لنا سلامتك كتابا جمعت فيه
عيون ما ذكره افاضل الاطباء من مكنون علمهم وصحيح تجربتهم
ومختصر سرهم في طرق مداواة الادواء التي تعرض في اعضاء
الجسد عضوا عضوا من اعلى الراس الى القدمين وسلكت

فيه

صفحة من مقدمة كتاب «زاد المسافر»
مخطوط بمكتبة ـ دراسد Dresde
(المانيا الشرقية)

خاتمة الكتاب:

قال المؤلف رحمه الله: «قد أتينا مما شرحنا على كل ما استطعنا على استحضاره من الفوائد العلمية والأسرار الطبية والإشارات الحكمية فأرجو نفعه من يقع نظره عليه أو أراد الاطلاع والتشوّف إليه فعساه أن يكون عند أمله فقد أعملت فيه خالص نيتي وقد قال عليه السلام نية المؤمن أبلغ من عمله وقد كنت أعلم قبل الشروع فيه أعلم من نفسي التقصير وأنها تستطيع على جمع اليسير من العلم فضلاً عن الكثير لعدم توفير الأدوية لكن حدا النفس إلى تأليفه وحملها على جمعه وتصنيفه شوق قد حث محبتكم زيادة وسبق في ميادين الفخار أجرت عنايتكم جياده، وأنا أسألكم تكميل ما أسديتموه وتأييد ما أوليتموه بالإغضاء عن مساويه فعذري أوضح من أن أبينه لكم وأشرحه لديكم، وأرغب من كل من نظر فيه فألفى فيه من الألفاظ ما تخرج عن المعنى المقصود أن يتفضل بتعديله ويتولى ذلك تولي من يرشد الضال إلى سبيله. وأوضح ما أبينه من العذر أني كنت زمن تأليفه في غاية الشغل بالعلاج إذ كان المرض في ذلك الوقت أشد ما كان من السورة والاهتياج ولم يتهيأ لي مع ذلك أكثر الأوقات زمان التفرغ فيه إليه ما أستعين به عليه بل كنت مقسم الأحوال بين وظائف ممنوعة، من إقامة رسم الصنعة بمباشرة الناس والإسعاف لرغباتهم من عمل دواء أو عيادة وتكفل ما يلزمني في خاصة نفسي من الكلف مما ألزمته العادة، وفي واحد مما ذكرنا أكبر شاغل وأعظم قاطع فكنت أقيده في الأوقات التي كنت أجلس فيها للناس[1]. فربما تيسر في ذلك وقت يكون فيه من التقييد ما له خطر وقدر ما وربما انقطع بسبب شاغل فلا أعود إليه إلا بعد يوم أو يومين أو أكثر لكنه صحبني فيه من المعونة والتيسير والسهولة في الزمان اليسير ما لحقني فيه التعب من نفسي فقلت إن ذلك مقدمة شعور النفس بإفادتكم

---

(1) (ويفهم من هنا أن كتاب ابن الجزار ملخص للدروس التي يلقيها على التلاميذ بعد معالجة المرضى وهي إن شئت ملخص تجاربه وليس ملخص ما قرأه في الطب أو تفسير كتاب ممّن سبقوه في الطب مثل ما صار به العمل ابتداء من القرن الحادي عشر ويدعى بالفرنسية (l'enseignement scholastique).

ونتيجة ما نلته من بركة سيادتكم أيام عيادتكم، ومن الله سبحانه أسأل أن يمد عليكم من سوابغ نعمه ظلاً ظليلاً ويبقى لنا مجدكم الطاهر مربعاً ومقيلاً وصلى الله على سيدنا محمد ومولانا وسلم تسليماً».

أنجز «تقييده (يعني كتابته) في ليلة الأربعاء من شهر شوال 888 هـ والحمد لله بلا نهاية والشكر بلا غاية» ولم يذكر الكاتب اسمه.

شهرة المؤلف:

نال ابن الجزار شهرة واسعة في حياته وبعد وفاته. وصل خبره الأندلس فتوافدت عليه التلامذة من بينهم طارق بن بريق. فسمع منه ورجع إلى بلاده حاملاً زاد المسافر. وابن بريق هذا هو الذي أفاد ابن جلجل عن حياة المؤلف حسب الظن فترجم له في كتاب الطبقات وكان معاصراً له، والترجمة تشير إلى تقدير من تلميذ إلى أستاذه. ووصل زاد المسافر إلى دمشق في حياة صاحبه أيضاً. فكان محل إعجاب ونوّه به الطبيب والشاعر كشاجم[1] بالأبيات التالية:

أبـا جعفـر بقيـت حيـاً وميتـاً   مفاخر في طهر الزمان عظاماً
رأيت على زاد المسافر عندنا   من الناظرين العارفين زحاما
فأيقنت أن لو كان حياً لوقته   يحنـا لمـا سمـى التمـام تمـامـا

ووصل الكتاب إلى إيطاليا باكراً وترجم إلى اليونانية في القرن الحادي عشر ميلادي وسيأتي ذكر هذه الترجمة.

أما بعد وفاة المؤلف فقد كانت شهرة الكتاب زاد المسافر أعم وأكثر رواجاً في الشرق في نصه العربي وفي أوروبا في نصوصه اللاتينية واليونانية والعبرية ووقع تدريسه طيلة ستمائة سنة.

(1) شاعر أديب جدلي طبيب من أبناء الرملة توفي حوالي 361/ 971.

انتقــاد:

وانتقد أحمد بن الجزار عبد الرحمان بن الهيثم القرطبي وكان من أعيان أطباء الأندلس في كتابه «الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء» الذي صنفه للحاجب أبي عامر محمد بن أبي عامر.

قصة ابن الجزار:

ومن التهم التي حيكت في قصر المنصورية وخارجه ضد ابن الجزار عند وفاة المنصور ثالث ملوك بني عبيد وأوردها ابن الأثير (ج 8 ص 198) وابن خلكان (ج 1 ص 35) تهمة مفادها أن المنصور أصابه أرق فأوتي إليه بطبيب شاب يدعى أبا جعفر أحمد بن الجزار من القيروان فأحضر له مخدراً شمه فمات من أجله، تلك تهمة باطلة لأن ابن الجزار يوم وفاة المنصور سنة 341/ 953 كان كهلاً قد تجاوز الخمسين ولو كان الأمر كما ذكر لقضي على الطبيب في يومه.

زاد المسافر وتحفة القادم

أحسن وأكمل تأليف في الطب كتب في الفترة الأولى من تاريخ أفريقية وعصرها الذهبي. جاء في مختصر ليكون تذكرة للعالم ومرشداً ودليلاً لمن يعتمده. جمع فيه المؤلف حسب قوله: منوع علم الأوائل وتصحيح تجربتهم، وهو على جزءَيْن وسبع مقالات: أربعة في المجلد الأول وثلاثة في الثاني، ويشمل الأمراض من الرأس إلى القدم. سهل القراءة والفهم، أسلوبه المخاطبة، جمع فيه المؤلف الدروس التي يلقيها أمام الطلبة عند فراغه من العلاج.

الأسلــوب:

يبحث المؤلف عن مرض في كل باب من أبواب المقالة ويأتي على اسمه العربي إن كان مألوفاً وإلا ذكره باسمه العامي المتداول أو السرياني أو اليوناني. ثم يذكر المرض وسببه أو أسبابه إذا تعددت، وأوصافه، ومواد العلاج، وكيفية

تركيبها وكميتها واستعمالها. وكثيراً ما يعدد أنواع العلاج، وهو أسلوب بديع قلده الأطباء من بعده ولا يزال العمل به إلى اليوم.

وهذه أسماء الأطباء الذين نقل عنهم أو أيدهم في كتابه:

- إسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان وابن خلفون من أطباء القيروان.

- جالنوس وأبقراط وديوسكردوس وروفس وتريدون وفرقيوس وارسطاطاليس من أطباء اليونان.

- ماسويه وابنه يوحنا من السريانيين.

ويذكر الحصبة والجدري وهما مرضان، فرق أبو بكر الرازي من مشاهير أطباء بغداد بينهما، وقد سبق الرازي ابن الجزار بقليل مما يدل على أن رواج كتب الطب في الممالك العربية كان سريعاً وباكراً.

أقسام الكتاب: سبع مقالات: أمراض الرأس، الوجه، الصدر، المعدة الأمعاء، الكبد، الكلى، آلات التنفس، والأمراض العارضة في ظاهر الجلد.

الوصفيات في هذا الكتاب وكتب الطب العربية بصفة عامة نادرة بالنسبة لما نعرفه ونعول عليه اليوم في اكتشاف كنه المرض مع أن عددها في هذا الكتاب أكثر من سواه من الكتب المماثلة. إنها تأتي في وحدة منفصلة بعد اسم المرض وحقيقته قبل بيان الدواء في حين نجدها مبعثرة هنا وهناك في الكتب الأخرى. وأخيراً يتكهن المؤلف لمستقبل المريض أحياناً.

الأدوية: أكثرها من الأعشاب وقليل جداً من المعادن مثل الزرنيخ والزنزار والحديد والزئبق.

الجراحة: تتلخص في علاج شق الأقدام، والفصد، والحقن في الفرج والدبر، والضمائد وعلاج الكسر.

مخطوطات كتاب زاد المسافر وتحفة القادم في مجلدين:

توجد النسخ المعروفة من الكتاب وقد تناولت أكثرها:

أ ـ باللسان العربي على الكاغط بالبلدان الآتية:

ـ المغرب: بالمكتبة العامة رقم 1644 ورقم 1718 في مجموع من ورقة 1 إلى 226 بخط مغربي.

ـ مصر: بدار الكتب بالقاهرة، نسخة كاملة وقف تيمور رقم 370 خط مشرقي ممتاز ص 446.

نسخة ثانية رقم 360 تيمور كاملة بتاريخ 1088 هـ.

نسخة ثالثة رقم 250 تيمور خط مشرقي عادي.

نسخة رابعة الرقم المسلسل 6680 تيمور.

ـ إيطاليا: نسخة بالفاتيكان (روما).

ـ تركيا: نسخة بالمكتبة السليمانية (استنبول) رقم 1220 ونسخة ثانية رقم 3038 سليمانية من مجموع من ص 1 إلى 302 ومن 304 إلى 315. خط مشرقي وفي آخرها فصول في العطورات وصنع الجواهر والحبر واللذفات (اللساق) والصابون والشمع والكحل والطيب والشيافات والمسوح والاشنان وطعام يقطع الجوع والعطش. ويتبعها مقالات في تركيب أدوية من طب إسحاق بن عمران وأخرى لابن سليمان وبيدينا منها فيلم مصغر.

ـ لبنان: نسخة من المجلد الثاني من الكتاب تبتدىء من المقالة الخامسة رقم 6 ـ 852 بمكتبة الجامعة الأميركانية ـ خط مشرقي ص 334 ولدينا منها نسخة مصورة.

ـ ألمانيا الشرقية: نسخة كاملة رقم 2 ـ 209 تتبعها مقالات في صنع الشمع والصابون والكحل ـ خط مشرقي بتاريخ 888/ 1483 وهي التي وقع عليها الاعتماد.

ـ فرنسا: نسخة بالقلم الحديدي منقولة عن المخطوطة الألمانية السابقة الذكر رقم 1876 بالمكتبة الوطنية بباريس وبآخرها كتاب العطورات.

ـ أسبانيا: نسخة كاملة بمكتبة الاسكريال رقم 6 ـ 852.

ـ إنكلترا: نسخة رقم 559 بمكتبة البدلئيّة Bodeléenne بأكسفورد مبتورة المقالة الأولى والمقالة الأخيرة تصحبها ترجمة باللاتينية. ونسخة ثانية منها وبها ورقات 44.

ب ـ النسخ باللسان اللاتيني: كلها من ترجمة قسطنطان الإفريقي... توجد بالبلدان الآتية:

ـ فرنسا: باريس ـ نسخ كثيرة بالمكتبة الوطنية منها رقم 2239 على الورق ترجع كتابتها إلى القرن الثامن عشر وهي من ممتلكات الوزير كلبار ثم أصبحت في حوز نابوليون بونابرت، مسفرة بالجلد الأحمر من صنع عثمان دبلنيد وعليها شعار نابوليون بالذهب. وأظن أنها كانت تصاحبه في تنقلاته العديدة.

نسخ أخرى تحمل الأرقام: 6888 ـ 6890 ـ 6899 ـ 6951 ـ 7038 ـ 7044 ـ كلها في حالة حسنة.

ـ مونبوليي: رقم 108 على الرق ـ وفي حالة حسنة.

ـ تولوز: رقم 873 على الرق في حالة حسنة بتاريخ 1393.

ـ ليون: رقم 1007 بالمكتبة البلدية على الرق.

ـ رانس: (فرنسا) ثلاثة نسخ بالمكتبة البلدية رقم 1006 ـ 1007 ـ 1008 على الرق كتابة جيدة حسنة ثمينة أغطيتها من الخشب مغلفة بالملف ومصفحة بالنحاس.

De fissura pedum et manuum.

Incipit liber aureus iohis afflacii. De dolore capitis.

مخطوط من كتاب «زاد المسافر

باللغة اللاتينية (مكتبة باريس)

مخطوط من كتاب «زاد المسافر
باللغة اللاتينية (مكتبة رانس Reims)

ج ـ النسخ باللسان اليوناني: تحمل كلها اسم افود. أنقل توزيعها على المؤرخ لسيان لكلار Lucien Leclerc، توجد منها نسخ بالمكتبات الآتية:

- باريس: نسخ 7 فرنسا.
- إنكلترا: نسخ 2.
- الفاتيكان: نسخ 2 إيطاليا.
- فلورانس: نسخ 2 إيطاليا.
- لسكريال: نسخ 4 أسبانيا.
- فيينا: نسخ 3 النمسا.
- مونيخ: نسخ 1 ألمانيا.

وتكاثر هذه النسخ دليل واضح على الاعتماد على هذا الكتاب في أروبا في القرون الوسطى ويؤكد[1] درنبورغ أن كل هذه النسخ ترجع إلى أصل واحد وهو المخطوط باللغة العربية الموجود بالفاتيكان المبتور الأول والآخر الذي يرجع وجوده وكتابته إلى أواخر القرن العاشر ميلادي الأمر الذي يدل أن كتاب زاد المسافر دخل إيطاليا في حياة المؤلف. ويلاحظ أن الترجمة تحمل اسم قسطنطان القَلَوَري Constantin de Calabre المتوفى سنة 1004 وهو غير قسطنطان الإفريقي الذي تولى سنة 1087 وبها خطأ كثير يختلف باختلاف النسخ ناتج عن عدد النسخ لا على قلة خبرة المترجم (حسب درنبار).

د ـ النسخ باللسان العبراني: ترجم زاد المسافر إلى اللغة العبرانية موسى تبون وسماه «دزدادرشيم» ومنه خمس نسخ في البلدان الآتية:

- اكسفورد: تحت رقم 413 نسخة عتيقة على الكاغض.
- بارم: رقم 154 كتبت عام 1461 (إيطاليا).
- بارم: مختصر آخر.

(1) H. Dérenbourg.

مخطوط باللسان اليوناني (مكتبة باريس)[1]

(1) زاد المسافر: توجد منه بمكتبة الفاتيكان نسخة باليونانية كُتبت قبل سنة 1060 م، وهي برقم 2241. ترجمها قسطنتان الثاني (من منفس بمصر Memphis) وهي سابقة لترجمة قسطنتان الإفريقي حسب تحقيق درنبورغ، ممّا يدلّ على مكانة هذا الكتاب.

وبإيطاليا نسخ كثيرة منها نسخة مصوّرة بفيرنزا Florence.

مخطوط باللسان العبري (مكتبة باريس)
من كتاب زاد المسافر

ـ تورينو: رقم 75 (إيطاليا).

ـ فلورنس: رقم 87 ـ 88 (إيطاليا).

وكلها ترجمت من النص العربي رأساً.

وكان كتاب زاد المسافر محل دراسات كثيرة أهمها دراسة المستشرق هرتفيك درنبورغ الذي فرّق بين ترجمة الكتاب باللغة اللاتينية واليونانية وأثبت إسناد كل منهما إلى صاحبها وهنالك دراسة أخرى بمكتبة اللغات الشرقية تحت رقم 243 ـ MEL 8.

أمثلة من كتاب زاد المسافر

الحصبة والجدري:

يتولدان إثر فساد الدم، ومن العلامات الدالة على الحصبة والجدري: حمرة العينين والوجه، وامتلاؤه ووجع الحلق والصدر، مع سعال يابس وحكة في المنخر وعطاس ونخس في ظاهر البدن... فإذا رأيت هذه العلامات فأيقن بخروج الجدري أو الحصبة.

العــلاج:

بالأدوية الحارة وحاذر من الأدوية الباردة لأنها تحبس الداء.

التعليق:

هذه الأوصاف وهذه الأصول للعلاج التي ذكرها المؤلف منذ عشرة قرون خلت، هي التي وقع الاعتماد عليها في الربع الأول من هذا القرن وما زلنا نعتمد على البعض منها.

القروح في الرحم:

تكون من قبل ورم حار أو إسقاط الحامل أو التهاب. الدليل: سيلان المادة. الوجع والضربان في الرحم مع اللدغ الشديد، فإن كان في الجرح تآكل كان لون القيح أسود ورائحتها منتنة مع الوجع والاشتعال... وبعد ذكر بقية الأوصاف

كأوجاع الظهر واحتباس البول يقول: وإذا أدخلت القابلة أصبعها وجدت فم الرحم منطبقة وأحدث ذلك ألماً. نستفيد من هذا المثل أن الطبيب يستعين بالقابلة لفحص فرج المرأة.

الأقراح المتولدة في القضيب وهي من القروح والأورام والبثور ويكون من فضول نازلة من جميع البدن. وتسمى هذه الفضول سيلان أو تصفية.

أورام الكلى:

تتولد من قبل فضول كيموس جلب إليها فإن كان النقل شديداً فذلك من كامل القيح في الورم ولا يلبث كثيراً حتى يخرج ويسيل منه القيح والدم في البول.

اليرقان:

هو انصباب المرة الصفراء على الدم وجولانها معه في البدن كله وظهورها في البول ويفسد الكبد من قبل الأمراض المتقدم ذكرها...

الكسر وزوال المفاصل:

إذا تفرق الاتصال في عظم وجب تقويمه كالعضو الصحيح ويكون ذلك برباط يربط كي لا يزول في أوقات النوم، من غير أن يكون الرباط مسترخياً ولا متوسطاً حتى يسلم صاحبه من الآفتين: لا حكة من تعصيبة على غير ما جرت به العادة ولا خنازير قد تنبت في موضع الكسر ويتآكل الجلد من حدوث صديد يقرحه، فيجب حل الرباطات وإزالة الصديد بماء حار معتدل. وإذا رأيت العضو سليماً من الورم أشد حمرة مما كان عليه في حال الصحة فاقصد الجباير كي يلتئم الكسر ويتصل العظم بعضه ببعض فيلتحم ويكون ذلك بخبرة الطبيب (وهي طريقة ما زال يعمل بها بعد الفحص الكهربائي وطرق الجراحة العصرية).

علاج الدم المنبعث من قطع سيف أو سكين أو رمي بنشاب:

أولاً حبس الدم، بوضع الإصبع على مكان القطع ويغمر عليه غمراً رقيقاً غير

مؤلم مدة حتى ينقطع الدم ويجمد في فم العرق. ثم يوضع عليه دقيق الحنطة أو علك الانباط أو بياض البيض أو وبر الأرنب ويشد المكان برباط من خرقة كتان فوق الدواء ووبر الأرنب ويذكر المؤلف أصناف الدواء لبرء الجرح.

التعليـق:

من وسائل علاج نزف الدم في السنوات الأخيرة مصالة دم الأرنب Sérum de lapin وهي القسم المايع من الدم الخالي من الكويرات الحمر ولا شك أن وبر الأرنب له تأثير حسن على قطع الدم في الأجراح مثل مصالة دم الأرنب التي كانت تستعمل لقطع الدم وهي مستحضرة تسمى: Anthéma.

حرق النـار:

المبادرة بالعلاج قبل أن يتنفط ذلك بالأدوية المبردة مثل بياض البيض والشمع.

السبـات:

هو الميل إلى النوم مع تغميض العينين وهو: إما أن يستغرق الإنسان في النوم حتى يعسر انتباهه وإما أن يكون نومه خفيفاً أو يكون كالسكران أو عاجزاً عن الانتباه من غير نوم من سقوط القوة.

ضعف قوة الكلى:

ويسمى بالسريانية دبابيطلتا، يصاب صاحبها بعطش مفرد حتى لا يكاد يرتوي من الماء، وكلما شرب الماء بال، (وهو البول السكري).

الجـذام:

ويسمى داء الثعلب وداء الأسد وداء الفيل وداء الحية حسب الكيموس: أصفر أو أسود أو بلغم، المتكون منه البهق والبرص، وهو فساد الدم.

الجــرب:

علاجه برماد الكبريت مع النفط الأسود أو خلط الكبريت بالخل أو النطرون.

الحصى في المثانة:

إذا كانت الحصاة في المثانة يجب العلاج بالأدوية التي تدرر البول على نحو ما ذكر في الحصاة في الكلى. فإذا كانت كثيرة حتى ينسد فم المثانة ويعرض من ذلك عسر البول فالغرض من ذلك إزالة الحجر عن المجرى... ويكون بالمرود يدخل في الإحليل ويدفع بها عن موضعها.

الفتــوق:

كل ما يحدث من الفتوق والشغافات المراقبة ما يتصل من ذلك إلى الأنثيين فلم يخل حدوثه إما من حركة عنيفة وإما من حمل الشيء الثقيل على الامتلاء على الغذاء أو السعال الشديد أو الصياح القوي... أو الصراع أو من رطوبة مزلقة أرخت العضو حتى ابتعد عن موضعه وأخذ مكاناً آخر.

العــلاج:

اجتناب الجماع والامتلاء والتعب والحركات العنيفة. ويلزم المريض بالسكون والدعة، ويشد الفتق برصاصة مجوفة كتجويف الملعقة يلزمه أبداً بعصائب من خرق أو كتانات.

الســم:

أولاً: التحذر من كل مأكل أو مشرب يكون فيه السم أو علامات التسمم وهي: سيلان اللعاب والدبيب في الشفة والحرق في اللسان وصلابة الأضراس والدبيب فيها وكرب في المعدة وعرق وعصر على الفؤاد وغشاوة على البصر.

العـلاج:

القيء. يصف المؤلف أدوية لإثارة القيء.

وإذا كـان السـم مـن لـدغ العقـرب يجـب قطـع (تشليـط) مكـان اللـدغـة وامتصاصه.

الكلـب:

الكلب ينكر صاحبه ويهيم على وجهه، لا يرى الموضع الذي كان يأوي إليه. وهو كالسكران مفتوح الفم مرخي اللسان يسيل من فمه بلغم كثير وتتقلب عيناه وتسترخي أذناه ويدخل ذنبه فخذيه، مفتوح العينين لا يعرف ما يضارب من الحجارة والناس وإذا رأته الكلاب تهرب وتنكره وتنبح عليه.

الوقايـة:

تذكر المصادر أن الإمام سحنون قاضي القيروان (توفي سنة 240 ـ 854) أمر الشرطة بقتل الكلاب المتجولة بالحرابة.

طــب الفقـراء

من مؤلفات ابن الجزار «طب الفقراء» وهو يلي زاد المسافر في الأهمية ومختصر منه. يذكر فيه المؤلف الأمراض المتداولة وأسبابها وأوصافها والأدوية النافعة والزهيدة الثمن التي يمكن للطبيب أن يعتمد عليها ويوصي بها. يقول أحمد ابن الجزار في مقدمة الكتاب: قد ذكرنا في كتاب «زاد المسافر» وفي سائر كتبنا جميع الأمراض والعلل. . . واختصرنا في هذا الكتاب الكلفة وقلة المؤونة. . . على الأطباء عند علاج العوام من الفقراء والمساكين واقتصرنا في هذا الكتاب على علاج العلل بالأدوية التي يسهل وجودها بأيسر كلفة وأخف مؤونة لينال منافعها عامة الناس سيما أهل الفقر والمسكنة منهم. . .

يتميز هذا الكتاب عن «زاد المسافر» بنقص الوصفيات وأسباب المرض كأن الكتاب مخصص للأطباء وهو غرض المؤلف على ما يظهر في المقدمة.

هذه ظاهرة اجتماعية في شخص ابن الجزار لم يأت أحد بمثلها قبله، تحمد وتشكر.

النسخ المعروفة:

ـ القاهرة: نسخة بدار الكتب رقم 1953 ـ 2، نسخة ثانية رقم 50 من غير تاريخ.

ـ بغداد: المكتبة الآثارية رقم 2103.

ـ بورسا: تركيا، جامع غازي أرهان رقم 1126 اطلعت عليها سنة 1969 ثم نقلت إلى المكتبة السليمانية باستنبول ومنها أخذت فيلماً مصغراً وهي نسخة كاملة خط مغربي كتبت بتونس سنة 805/ 1402 من مجموع من ورقة 48 ـ يتبعها رسائل في العطورات والصابون والحبر والجواهر واللذافات.

كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة

كتاب يلي في الأهمية الكتابين السابقين وهو مختصر ذكر فيه المؤلف الأدوية التي يمكن الاعتماد عليها. ألفه للقائم بأمر الله ثاني ملوك بني عبيد الذي ساس أفريقية من سنة 332/ 934 إلى 339/ 941.

قال في المقدمة: المفردات باب... في صناعة الطب... وإن كثيراً من الأدوية التي ألفها جالينوس واسفرديوس مجهول... في اللسان العربي الأمر الذي حملنا على التأليف في هذا العلم رغبة في طاعة الله والحرص على مرضاة الخليفة القائم بالله...

توجد من هذا الكتاب نسخ موزعة بين تونس والرباط واستنبول متشابهة، وتختلف في عدد المقالات وهذه أرقامها:

ـ استنبول: مكتبة آيا صوفيا رقم 3564، المكتبة السليمانية رقم 1481.

ـ الرباط: المكتبة العامة مجموع رقم 1121، نسخة ثانية خط مغربي رديء رقم 4844.

ـ تونس: مجموع 20327 رقم 1804 من مكتبة صفاقس.

ولنا علم بنسخة لاتينية من ترجمة الأسقف اسطفين بمونيخ ونسخة عبرانية ترجمة موسى بن تيبون.

النـــص:

تشير جميع المخطوطات إلى أن الكتاب يشتمل على أربع مقالات ولا توجد في مخطوط اسطنبول إلا المقالات الثلاثة في:

1 ـ الأغذية.

2 ـ طبائع الأغذية.

3 ـ قوى الأغذية.

ومخطوطات تونس والرباط لا يوجد فيها إلا المقالة الرابعة فقط أو جزء منها وهي:

4 ـ الأدوية المفردة أمثلة: الورد والرصاص...

هذا ما أمكننا تحقيقه من هذا الكتاب.

سياسة الصبيان وتدبيرهم

من هذا الكتاب:

نسخة بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 1044 من مجموع خط مغربي به 25 ورقة يبحث في:

ـ حفظ صحة الطفل بدفع المرض عن الأبدان الصحيحة.

ـ علاج أمراض الطفل وأدويتها.

هذا كتاب مفيد جداً وسهل العبارة يتناول الرضيع وأوصافه وغذاءه واللبن وأوصافه والمرضعة وغذاءها وأمراض الصبيان: الرأس والمعدة والأمعاء والشعر والديدان. كتاب فريد من نوعه حسب إشارة المؤلف. قال ابن الجزار: إن معرفة سياسة الصبيان وتدبير صحتهم باب عظيم الخطر جليل القدر ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المرضين كتاباً كاملاً.

طبع هذا الكتاب بتونس سنة 1968 بتحقيق محمد الهيلة. جاءت في هذا التحقيق بسطة طويلة عن كتب ابن الجزار كلها الطبية وغيرها. وذكر المترجم جميع المراجع التي أشارت إليها هذه الكتب وأسماء الأمراض والأدوية التي وردت في الكتاب وما يرادفها في اللغة الفرنسية.

طب المشايخ

يذكر المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب في «الورقات» المجلد الأول ص 217 أنه وجد هذا الكتاب ضمن مجموع من ص 109 إلى 155 في مكتبة أحمد بك خيري من أعيان البحيرة في مصر وأخذ منه نسخة خطية. ويظهر أن هذا الكتاب مقتبس من «كتاب العدة لطول المدة» الذي ذكره ابن أبي أصيبعة وهو مفقود. ومن هذا الكتاب تسنى لإسماعيل بوضربة تقديم أطروحة الدكتوراه في الطب تقدم بها لدى جامعة الجزائر سنة 1952 والأطروحة موجودة في مكتبة الجامعة.

رسالة في البول

توجد هذه الرسالة في:

- القاهرة: دار الكتب رقم 311 تيمور.
- اكسفورد: رقم 611 باللسان اللاتيني.
- رومة: الفاتيكان رقم 310.

ـ باريس: رقم 1125 و 1139 باللسان العبري.

ـ استنبول: آيا صوفيا رقم 6563 ـ أوراق 35 ـ كتابة مشرقية وهي التي اعتمدتها وهي من غير تاريخ واسم الناسخ ومنها بمكتبتي فيلم مصغر ونسخة مصورة. وهي رسالة قليلة الفائدة.

كتـاب العطـورات

في أصناف الطيب وذكر فوائدها. يوجد منه نسخة بالمكتبة السليمانية باسطنبول رقم 1484 خط مشرقي ـ الكاتب وهبي الدوري ببغداد سنة 1312/ 1904 ـ ومنه نسخة في آخر مخطوط طب الفقراء رقم 1126 بالمكتبة نفسها ـ ونسخة أخرى ملحقة لكتاب طب الفقراء بباريس رقم 2838.

جاء في النسخة الأولى 1484 هذه المقدمة: «هذا تأليف الشيخ الكبير الطبيب الشهير أبي جعفر أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد القيرواني الشهير بابن الجزار المتوفى سنة 380 ـ ثم بعد البسملة... قد ذكرنا في كتابنا هذا من صنوف الطيب ما جربناه، عملناه (صنعناه) واخترنا تركيبه ورجوناه بمنفعة الأبدان وعونها على طيب الحياة وصحتها. فيه كفاية لمن استعمل (الطيوب) في موضعها، وفي وقتها من الأمزجة والسن... وفي كل جسم غاية وكفاية، ويصف طيب الرائحة أنها: تحدث عن جسم ذي الرائحة بتشارك الهواء المحيط ينفذ معه في المنخرين إلى الدماغ بالاستنشاق... ثم يذكر المواد التي تصنع منها العطورات: العنبر وأصنافه، والعود وأجناسه، والكافور وأصنافه، والورد والصندل والقرنفل... وما صح من تركيبها، وما وقع من تركيب العطورات الصالحة للرجال وللنساء. وتركيب الغوالي (جمع غالية وهي أخلاط من الطيب) من أشياء حارة موافقة للرجال والنساء وأصنافها. ويذكر تركيب الذراري (جمع ذريرة) والدهان (ما يدهن به الجلد) الحارة في فصل الشتاء للمشايخ وبرودة الهواء. ودهن يصنع لهارون الرشيد... ومن البخورات يذكر: ند رفيع، وند لطيف، وبخورا برمكيا ـ

واللخائع (الطلى) مما يستعمل الأشراف للذة ويطلون بها الأواني ويستعمل بعد الحمام منها: البصرية (من البصرة) وخلوف (الذي يغير الرائحة) الزعفران، وطيب الثياب وصباغ الثياب (صنعة ابن ماسويه لجعفر البرمكي...).

ويختم بقوله: إن لكل روح غاية وإن الرائحة الطبيعية سبب لطيب النفس، وصحة الأبدان، ولم يقصد من استعمال الطيب لعوام الناس لعجزهم الطاقة، وإنما هو معد للأشراف والملوك. ومن هذه الخاتمة نستفيد أنه يقصد من تآليفه الطبقات الميسورة من الشعب.

تلميذ لابن الجزار

أبو حفص عمر بن بريق:

كان طبيباً نبيلاً قارئاً للقرآن، مطرب الصوت. وكانت له رحلة إلى القيروان إلى أبي جعفر بن الجزار، لزمه ستة أشهر. وهو الذي أدخل إلى الأندلس كتاب «زاد المسافر». ونبل بالأندلس وخدم بالطب الناصر (300 ـ 350 هـ) ومن المظنون أنه هو الذي أفاد ابن جلجل بتراجم أطباء القيروان: إسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان وأحمد بن الجزار.

أطباء القيروان من الدرجة الثانية

أعين بن أعين:

كان كحالاً بالقيروان جاء في كتاب معالم الإيمان، ج 2 ص 83 طبع تونس: أن أبا بكر السبائي كان له ابنة أصابها في عينيها شيء وكره أن يرافقها إلى ابن أعين الطبيب، وفي ص 190 يذكر ابن ناجي، أن أحمد بن عوانه[1] ذهب إلى تونس في زيارة المؤدب محرز[2] فأصابه رمد وعالجه ابن أعين عند رجوعه وعاد الطبيب

(1) عائلة ابن عوانه وتدعى اليوم العواني من أشراف القيروان.

(2) هو محرز بن خلف دفين تونس.

حتى برىء وكان ذلك في أيام المعز لدين الله رابع ملوك العبيديين وانتقل أعين إلى مصر واشتغل بصناعة الطب ومات سنة 385/ 995.

ابن المعاز علي بن أحمد:

طبيب متصدر للعلاج، خبير بطب القلوب يحسن مداواتها وأديب قليل الشعر يتردد على المجالس ويشرب فيها. معاصر لابن رشيق (ابن رشيق ص 206).

الأنصاري علي بن زياد:

ناظر في الطب كان مشهوراً ووقوراً لطيفاً حيثما توجه (ابن رشيق ص 229) (مسالك الأبصار ج 11 ـ قسم 2 ص 362).

زياد بن خلفون:

اشتهر بالقيروان في مدة إبراهيم الثاني ومن جاء بعده من أمراء هذا البيت. ثم خدم بالطب عبيد الله المهدي. وكان له حساد قد حذره منهم الأمير. فما لبث حتى وافاه الأجل على يد أحدهم سنة 308 ـ 920. يحكى أنه إذا خرج من القيروان يريد رقاده رفع العمامة عن رأسه ليباشر الهواء رأسه كالمتداوي به.

يعلى بن إبراهيم الأربصي:

من القرن الخامس الطبيب والأديب المرتجل للشعر بسهولة ذكره ابن رشيق قال: مليح الكلام حسن النظم، لألفاظه حلاوة، يذهب إلى الفلسفة في شعره.

اسمع ابن رشيق أول مرة اجتمع به الأبيات التالية:

أياة شمس حواها جسم لؤلؤة　　تغيب من لطف فيها ولم تغب
صفراء مثل النضار الكوكب لابسة　　درعاً مكللة دراً من الحبب

محمد الخشني:

يذكر صاحب المدارك (4817 وطنية ورقم 65) أن محمد بن الحارث الخشني كان حكيماً ويعمل الأدهان للتجميل وله دكان بالقيروان يجلس فيه لبيعها.

أبو عمران موسى العجموني:

أبو عمران موسى العجموني أصله من فاس ـ نزل وتعلم الطب بالقيروان ثم رحل إلى قرطبة وقرأ بها. توفي سنة 330/ 1038 (معالم الإيمان، ج 3 ص 201).

أحمد بن يحيى:

طبيب وابن طبيب ـ فقيه بقول العراق قتل عند دخول عبيد الله الشيعي إلى رقادة. ذكره ابن عذارى، ج 1 ص 161 وص 183. مات من عسف عبيد الله.

أطبـاء المهديـة

1 ـ أبو جعفر المهداوي:

من بلدة المهدية حسب نسبته جاء في فاتحة كتابه بعد البسملة: «هذا تأليف الشيخ الفاضل رئيس الرحلة في الطب والحكمة والتشريح والهياة. الشهير بابن سيد الناس. التمس منه بعض الأفاضل وضع كتاب في الأدوية المفردة لما ظهر فيه من قلة أهل البصر، (مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 18177 خط تونسي أوراق 277) يذكر في هذا الكتاب: اسم المفرد مرتباً على حروف الهجاء بالفارسية واليونانية والبربرية والأعجمية ونوعه وبعض منافعه واختص عدداً من الأزهار والأعشاب والصموغ والمعادن والأحجار والعقاقير العفصية والنباتية والأصول والورق والحبوب والبزور والقشور ـ ويذكر الزئبق ومضاره فيستدل أنه من أطباء القرن الثامن عشر أو بعده ـ ومن الأطباء الذين يذكرهم المؤلف أو يستشهد بهم أو ينتقدهم: إسحاق بن عمران وابن جلجل والرازي مما يدل على سعة علمه وخبرته.

ويوجد بالمكتبة الوطنية أيضاً من هذا الكتاب:

ـ مختصر به أوراق 81 من مجموع رقم 20327، وتنقصه أوراق والكتاب من غير تاريخ واسم الناسخ.

ـ مختصر آخر رقم 18228 به 104 أوراق كتب سنة 1291.

ـ ومختصر رقم 18238 من غير تاريخ واسم الناسخ.

2 ـ أبو الصلت أمية :

أندلسي المنبت. ولد بدانية حوالي 460/ 1067 وتعلم الطب واستقر بإشبيلية ثم نزح إلى مصر سنة 489/1096 وسكن القاهرة وامتحن فيها بقضية سجن من أجلها ثلاث سنوات ومن حسن حظه أنه قضاها في سجن الأمراء والأعيان وهي خزينة الكتب. فاستغل وجوده وعزلته وبعده عن الهرج والمرج. اعتكف وكتب في المنطق والعمل بالاصطرلاب وتعلم الطب ولما أطلق سبيله انطلق إلى المهدية سنة 506/ 1112 ولجأ إلى يحيى بن تميم بن باديس فقربه الملك وأكرمه فوضع له «الرسالة المصرية» وصف فيها مصر وسكانها وعلماءها وآثارها وكان شاعراً لاذعاً وفيلسوفاً ومنطقياً وملحناً وهو أول من أدخل الألحان الأندلسية (المالوف) إلى أفريقية وكان طموحاً للمعالي ولا أدري هل احترف الطب بأفريقية حقاً أو أفاد الملوك فقط.

ومن كتبه كتاب «المفردات في الطب»: أورد فيه المؤلف الأدوية المفردة مرتبة بحسب أفعالها في البدن عامة. ثم فسرها عضواً عضواً بحسب الأخلاط ومفعولها العضلي مؤكداً على الطبيب على أن لا يغفل أو يتغافل عن جوهر العضو العليل، وأن يعيره الاهتمام، ويتبصر لمزاج المريض، والهواء المحيط به وقوته وعاداته.

يشتمل الكتاب على عشرين باباً ولا يمتاز عن غيره من الكتب إلا بالنصائح النفسية التي أسداها إلى مقصرين من أطباء زمانه الذين يقل اجتهادهم.

كتاب الأدوية المفردة

ـ موجود باستنبول: بالمكتبة السليمانية رقم 1815، أوراق 49 من مجموع كتب سنة 826/ 1422.

ـ وبالقاهرة: دار الكتب المصرية، رقم 59 ـ ف 1043 طب ورق 41 ـ من غير تاريخ.

ـ وبتونس: رقم 883 وهو 41 صورة فتوغرافية من مخطوط القاهرة من مخلف حسن حسني عبد الوهاب.

ـ وبالرباط: المكتبة العامة رقم 281 ق. ورقم 255/35 من مجموع من 186 إلى 252 خط مغربي مهمش بتفسير المفردات باللغة العربية الدارجة. خط أحمد الشريف وهي النسخة التي اعتمدت عليها.

بنـــو زهـــر

أبو مروان بن زهر الأشبيلي:

من الأطباء الأندلسيين العباقرة الذين حلوا بتونس: أبو مروان بن زهر الأشبيلي. رحل إلى المشرق وطبب به. وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم رئاسة مرستان سوسة عامين ورجع إلى الأندلس وتوفي بإشبيلية.

أبو مروان بن أبي العلى بن زهر

من أساطين أطباء الأندلس، لازم بالصناعة عبد المؤمن بن علي في جميع تنقلاته وغزواته وأقام معه بأفريقية طويلاً. وقد أفاد واستفاد منه الأطباء والرعية. وله كتب كثيرة في الطب منها كتاب في التشريح والجراحة به صور. وهو أول كتاب عربي جاء بهذه الطريقة. (موجود بالمكتبة الوطنية بباريس).

الحفيد بن زهر:

حفيد المتقدم الذكر. دعاه محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن رابع ملوك الموحدين بالمهدية ليخدمه بالطب. وقد خدم من قبله أباه يعقوب وجده يوسف.

كان حسن المعاملة، أديباً، وله شعر كثير. نال من بني عبد المؤمن مالاً

كثيراً ما ينفعه مدة حياته وأكثر حسب قوله. ولد سنة 577 هـ ومات مسموماً سنة 602 بمدينة سلا بالمغرب الأقصى ونقلت جثته إلى اشبيلية بمقبرة آبائه.

ابن ميمون القرطبي

ومن مشاهير الأطباء الأندلسيين الذين حلوا بأفريقية فأفادوا واستفادوا وذاع ذكره في الشرق والغرب موسى بن ميمون القرطبي.

ابن البيطار

ابن البيطار العشاب حل بتونس ودرس أعشابها واطلع الى زاد المسافر لابن الجزار وذكره في تآليفه. وهو أندلسي أيضاً.

يحيى بن تميم بن المعز

أحد ملوك صنهاجة، تولى زمناً من سنة 501 إلى سنة 509 (1106/1116). كان مولعاً بالطب والتنجيم والكيميا. وجعل داراً يتردد عليها الطلبة. وله اليد الطولى على الشعراء ولم يهمل أمور الدولة (المؤنس ص 83 ـ ابن عذارى ج 1 ص 304).

أبو الفضل بن عبد الجليل بن عبد الوهاب

طبيب توفى 1120/513 ـ دفين المنستير ـ والمظنون أنه من أطباء المهدية. لوحة قبره موجودة بمتحف الرباط بالمنسير مكتوبة بالخط الكوفي.

ابن عطـاء

طبيب المعز بن باديس وكان نجيدياً، وهي كلمة عبرية مفادها الدليل الماهر. سريع الإجابة إلى ما دعي إليه. يهودي النزعة. لم نعرف عن حياته شيئاً سوى أن الأمير أرسله يوماً إلى الشيخ الفقيه أبي عمران الفاسي يسترشده في أمر فأطرده الشيخ.

أبو الحجاج يوسف بن موراطير

من شرقي الأندلس، وموراطير قرية قريبة من بلنسية. كان مبرزاً في صناعة الطب خبيراً بها مزاولاً لأعمالها، أديباً، شاعراً، كثير النادرة. قال القاضي أبو مروان الباجي: كنا في تونس مع الناصر وكان في العسكر غلاء وقد قلّ وجود الشعير. فعمل أبو الحجاج موشحاً للناصر وأتى في ضمنه تغيير بيت عمله الحفيد ابن زهر وذلك أن ابن زهر قال:

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب   وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب

ففعل ابن موراطير:

ما العيد في حلة وطاق من الحرير   وإنما العيد في التلاقي مع الشعير

وخدم ابن موراطير بالطب المنصور يعقوب[1] وابنه الناصر وابن الناصر يوسف (عن ابن أبي أصيبعة).

قسطنطين الأفريقي[2]

قسطنطين الأفريقي شخصية تونسية نالت هالة من السمعة والمجد خلال القرون الوسطى في كامل أروبا وفي فرنسا وإيطاليا خاصة بفضل ترجمة الكتب العربية الممتازة في عصره والتآليف التي قام بها في الموضوع نفسه. وقد تولى البحث عنه كثير من المؤرخين من الإيطاليين والفرنسيين والألمانيين. والمعلومات التي أوردها لم تكن صحيحة دوماً بل كانت أحياناً مشكوكاً في صحتها فمنها ما هو متناقض ومنها ما لا يزال في طور الفحص والتدقيق. وقد جهله المؤرخون العرب والتونسيون خاصة لأنه قضى كامل حياته العلمية الخصبة بإيطاليا وكتب وعلم باللغة اللاتينية، ولئن كانت لتونس صلات تجارية مع إيطاليا مباشرة أو

(1) السلطان الموحدي الذي ترأس من سنة 580 إلى 595.
(2) محاضرة ألفيت بباجة في ملتقى القلصادي.

بواسطة صقلية فلم تكن لها مبادلات في ميداني الأدب والطب، إذن فالبسطة التي أعرضها اليوم ستكون نقدية وأملي أن يتناولها النقد وتتناولها المناقشة كي يستفيد كل منا «أنا وأنتم» لأن باب التفتيش عن حياة المؤلف وإنتاجه لا يزال مفتوحاً. وسأعمل الجهد لأن تكون هذه البسطة وجيزة حتى لا أكون عرضة لتهمة التطويل، وسعياً في الإيضاح سأعرض عليكم حياة الرجل ونزوحه إلى إيطاليا والتراجم التي تولاها، والشهرة التي نالها حتى بلغت مستوى القصة والأسطورة.

الرجـــل:

هو قسطنطين الأفريقي - وقسطنطين اسم علم مسيحي، وأفريقي نسبة إلى مسقط رأسه وأفريقية في اللسان الإيطالي يعني به تونس. ولد سنة 1015 م أو 1016 ميلادياً بقرطاج وذلك بإجماع المؤرخين. وفي هذا القرن انتقل سكان قرطاج إلى تونس. وتوفي بدير كسينو Montie Cassino في جنوب إيطاليا سنة 1087 م عن سن تناهز 70 سنة واختلف المؤرخون في بيان ديانته، أكان مسلماً أو مسيحياً.

ذهب حسن حسني عبد الوهاب إلى أنه مسيحي (الورقات، الجزء الأول صفحة 22) مستنداً إلى وجود جاليات مسيحية بقرطاج والقيروان أثبت التاريخ وجودها إلى القرن الثاني عشر ميلادي. صحيح قد كانت بقرطاج وغيرها من البلدان التونسية جاليات مسيحية كثيرة مع الملاحظة أن الكنيسة بأفريقية أصبحت بحكم سياسة الدولة العبيدية في القرن الحادي عشر الحاكمة في تونس ومصر تابعة لأسقف الإسكندرية عوضاً عن البابا بروما، وأنه يوجد بالمغرب العربي باستثناء الأندلس، 145 أسقفية من الإسكندرية إلى طانجة من بينها 40 أسقفية تابعة لقرطاج (المرجع: مناج Ménage صفحة عن تاريخ كنيسة أفريقيا طبع الجزائر 1903) «Une page d'histoire de l'église d'Afrique», Alger 1903. وسلـك مسلكه المؤرخان لباير وبلقران في كتابهما: «قرطاج اللاتينية والمسيحية Carthage Latine et Chrétienne» par Lapeyre et Pellegrin, Payot- 1950.

فقد جاء في هذا الكتاب أن قسيساً من دير كسينو يدعى قسطنطين الأفريقي ولد بقرطاج سنة 1015 في هذا البلد وتلقى فيه وفي تونس ثقافة لاتينية وعربية وتولى الكتابة عند روبار جسكار Robert Giscard ملك صقلية، ثم اعتنق المسيحية واستقر بدير كسينو حيث ترجم منتخبات من عدة كتب لعلماء القيروان، ولم يقدم لنا هذان الكاتبان أدلة على زعمهما، ولم يشيرا إلى مورد.

ويتبعهم في التفكير وعدم الحجة الأستاذ إدريس صاحب كتاب بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الزيرية «La Berbérie Orientale sous les Zrides» في الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص 758) جاء ما نصه بالحرف: «إن الجالية المسيحية بقرطاج مدة البابا بنوا السابع (Benoit VII) (سنة 974 ـ 983) انتخبت من بينها قسيساً يدعى جاك Jaques وأرسلته إلى روما ليتوج أسقفاً. وأن رسائل البابا قريقوار الثاني عشر (Grégoire XII) تثبت حيوية تلك الجالية وأن قسطنطين الأفريقي ابن من أبنائها.

وفي صفحة (810) من الكتاب نفسه يعود الأستاذ إدريس إلى الكلام عن قسطنطين فيكتب أن قسطنطين الأفريقي العربي ولد سنة 1015 ـ 1016 وبعد جولة كبيرة بالشرق بصفته تاجراً وطبيباً تمسح ورجع إلى قرطاج ومن هنالك إلى بلدة سلرنو Salerne حاملاً كمية من المخطوطات العربية، ويظهر أنه هو المؤسس لمدرسة سلرنة. ثم استقر بدير كسينو وصار راهباً. هاتان الروايتان الأولى مبهمة والثانية منقولة عن خرافة وسأقصها في خاتمة هذه الدراسة.

يتبين من البحث السابق أن أنصار الفكرة القائلة بأن قسطنطين مسيحي تنقصهم الدقة والبيان والمرجع الثابت في أبحاثهم. أما أنصار العقيدة الإسلامية فهم أكثر ثبوتاً وحجة. وهذا ما أمكنني إثباته.

إن أول من أرّخ لقسطنطين الراهب بيتروس دياكنوس Petrus Diaconus وهو رجل من القرن الثالث عشر أثبت أن قسطنطين كان «سرزان» Sarrasin وهو اسم أطلقه الإيطاليون والفرنسيون على مسلمي شمال أفريقيا في القرون الوسطى. وأخذ

عن دياكنوس المؤرخون المتأخرون الذين أعاروا المسألة عناية خاصة أمثال دورانزي De Renzi ودرنبورغ Dérenbourg محافظ المكتبة الوطنية بباريس في غرة هذا القرن وفستنفالد Wustenfeld ولكلار Leclerc مؤلف كتاب «تاريخ الطب العربي» طبع بباريس 1887، وألف الألماني استنشيدار Steinscheider كتاباً خاصاً بحياة المؤلف طبع ببرلين سنة 1865. ودعم هذه النحلة البربرية والإسلامية المستشرق الألماني كارل سدوف Carl Sudhof عندما اكتشف وثائق جديدة هامة بقرية ترينتاديلا كافا Trinita della Cava في شمال إيطاليا مفادها أن قسطنطين كان ذا دين محمدي de religion mohamétane ونشر هذه الوثائق في مجلة آركيون Archeon سنة 1922.

نستخلص من كل هذا أن قسطنطين كان تونسياً ومسلماً في بدايته.

القسم الثاني من هذا البحث يتناول نزوح قسطنطين إلى إيطاليا. يذكر كارل سدوف Carl Sudhof طبق الوثائق الآنفة الذكر أن قسطنطين نزح أول مرة إلى إيطاليا بصفته تاجراً قادماً من صقلية وقد سمي في هذه الوثائق: قسطنطين الصقلي Constantin Siculus وحل ببلدة سلرنو Salerne كتاجر Mercator (مركانتي) وهنالك أصيب بمرض والتجأ إلى أخي الأمير قزلف Gusulf وكان طبيبها وتولى الترجمة بينهما طبيب يدعى عباس دي قريات Abbas de Curiat لأن قسطنطين كان يجهل اللغة الإيطالية. وأثناء الفحص لاحظ قسطنطين أنه لم يسأل عن القارورة (أي قارورة البول) وأن الطبيب الذي جاء لفحصه قليل الخبرة وأن الطب في إيطاليا يقتصر على معلومات بسيطة وهذا الذي أدى بقسطنطين إلى أن يسأل هل توجد بإيطاليا تآليف طبية شافية وأجيب بالنفي، فشعر هذا الرجل الذي كان يتمتع بثقافة واسعة برسالة تمدنية وأراد القيام بها. فرجع إلى قرطاج وكان مذهبه آنذاك محمدياً واشتغل بالطب مدة ثلاث سنوات وجمع عدة كتب في الطب Accipiens Libros وسافر حاملاً هذا الكنز نحو إيطاليا الجنوبية قاصداً سلرنو ولما مرّ بساحل لكنيا Lucania شمال خليج بولكسترو Policastro قامت زوبعة في البحر أصابت بعض

المخطوطات بعطب وضاع من كتب علي بن عباس المجوسي ما قبل الكتاب الرابع. ووصل بما تبقى إلى سلرنو واعتنق الدين المسيحي ثم حل بدير كسينو واشتغل بالترجمة. (انتهى).

هذا ما نقلته وترجمته من بحث كارل سدوف Carl Sudhof بالحرف. وسدوف هذا عالم متضلع في التاريخ مشهور بالجد في البحث شأن علماء الألمان. ومن الملاحظ أن الذي تولى الترجمة بين قسطنطين والطبيب الإيطالي في رحلته الأولى متطبب وتونسي أيضاً: ألم يدع عباس دي قريات؟ وقريات [قورية Kuriates] هذه جزيرة أمام بلدة المهدية، ربما استصحبه من صقلية. وأن قسطنطين كان تاجراً ومتثقفاً ولا غرابة في ذلك فالتعليم في جامع الزيتونة وبيوتات العلماء كان في متناول الجميع، كان يشمل المنقول منه والمعقول، وأن المبادلات التجارية بين تونس وإيطاليا كانت مزدهرة ولم تنقطع حتى في أوقات الشدة، فكانت لتونس مراكز تجارية في نواحي صقلية المسيحية وفي إيطاليا الجنوبية نفسها، نذكر منها بلدة باري Bari وترنتة Tarente واقريبولي Agripoli وقلليانو Gagliona.

كانت تونس تصدر زيت الزيتون والشمع والجلد والصوف ومنتوجاتها وتستورد القمح أيام المسغبة. وأحكام السوق لا ترى مانعاً في التجارة مع البلاد المسيحية (راجع كتاب إمارة الأغالبة لمحمد الطالبي ص 382 و 846) ولئن اعتنق قسطنطين الدين المسيحي فلا غرابة في ذلك: فقد كان الأمر معتاداً خاصة إذا أرغم المرء وذلك شأن الأسير، ومثال الرحالة المغربي حسان الوزاني الذي اعتنق المسيحية وسمى «ليون الأفريقي» يشبه مثال قسطنطين الأفريقي.

بقي القسم الثالث من هذا البحث أتناول فيه الإنتاج العلمي لقسطنطين، حل قسطنطين بكسينو حاملاً المخطوطات الطبية التي أخذها من تونس، وهي تشتمل على مؤلفات قيروانية وبغدادية.

الكتب القيروانية:

- كتاب الماليخوليا لإسحاق بن عمران.
- كتب النبض والبول والحميات والأغذية لإسحاق بن سليمان.
- وكتاب زاد المسافر لأحمد بن الجزار.

الكتب البغدادية:

- كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي.

- وكتاب الكامل لعلي بن العباس المجوسي، وقد سبق أن قسطنطين كان قد أضاع الأقسام الثلاثة الأولى من الكتاب في البحر.

ترجم هذه الكتب من العربية إلى اللاتينية التي كانت لغة العلم والتعليم والطقوس الدينية المسيحية بأروبا في القرون الوسطى. وتوجد نسخ كثيرة من التراجم في كثير من عواصم أروبا: باريس، ليون، منبلي، تولوز، روما، لندن، الخ...

وأحسن مجموعة من هذه الكتب وجدتها ببلدة رانس Reims شمال فرنسا - من صنع القرن الثالث عشر والرابع عشر وتوجد اليوم في المكتبة البلدية وهي مكتوبة على الرق الجيد الحسن الصنع، مزوقة جميلة، حسنة الصيانة والوقاية مسفرة وأغطيتها من الخشب مغلفة بالملف وموثقة بشدادات من النحاس.

وترجمت هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية، وطبعت في بلدة ليون Lyon بفرنسا في مستهل القرن السادس عشر وفي طرينو بإيطاليا. وكان لها حظ كبير في نشر الطب العربي الذي كان راقياً في ذلك العهد ويثبت التاريخ أنها كانت كتب التدريس من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع عشر أي طيلة سبعة قرون.

وكتب قسطنطين كتباً من بنات أفكاره أو مترجمة من كتب عربية أخرى نسبها لنفسه وهذا ما فعل بكتاب «زاد المسافر» لابن الجزار، فقد ترجمه ونسبه لنفسه بوقاحة ليس لها مثيل. كتب في مقدمة كتاب زاد المسافر ما يلي: «إذا خطر لأناس

أن يضعوا أنيابهم على كتابي هذا لأدفعنهم ينامون في بلاهتهم، فقد رأيت من واجبي التوقيع عليه لأن الناس يحسدون أعمال الغير ويتملكون اختلاساً كل كتاب أجنبي يحصل بين أيديهم، وقد سميته «زاد المسافر Viaticum» لصغر حجمه، لا يثقل ولا يعطل المسافر».

وهناك سؤالان يخطران على البال:

السؤال الأول: هل أحسن قسطنطين الترجمة. وبعبارة أخرى هل كانت الترجمة طبقاً للأصل أم لا؟ قام بهذا التحقيق الأستاذ أبو بكر بن يحيى في السنوات الأخيرة ـ (المرجع: مجلة العلوم سنة Revue des Sciences 1953)، واقتصر عمله على كتاب المالخولية لإسحاق بن عمران. ويستفاد من هذا العمل أن المترجم احتفظ بترتيب الكتاب وأقسامه إلا أنه أهمل كل ما عسرت عليه ترجمته فحذف كل كلمة أو إشارة تدل على أن أصل الكتاب عربي، وأدى بصيغة مبهمة كل التجارب والخدمات العربية المنصوص عليها في الكتاب، وذكر أسماء الأطباء اليونانيين الذين استشهد بهم مؤلف الكتاب وغفل عن ذكر أسماء الأطباء العرب. ومن هنا نفهم لماذا نسبت آنذاك الكتب التي ترجمها قسطنطين إلى أطباء اليونان التي فقدت بإيطاليا وقيل إنها رجعت على يده من اللسان العربي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتخللنا الشك في زعم قسطنطين أنه ألف كتباً من بنات أفكاره.

السؤال الثاني: لماذا أسند قسطنطين لنفسه تأليف «زاد المسافر؟».

قيل إنه فعل ذلك بإشارة من رئيسه بدير كسينو الاب ديديي l'Abbé Didié حسب المؤرخ دياكونيس وقد يكون ذلك صحيحاً. والراجح عندي أن قسطنطين لم يعوزه الذكاء وكان تاجراً في أوله ومتخلقاً بأخلاق التجار، وكل تاجر يسعى إلى شيء واحد: ترويج بضاعته والسوق التي يسعى إليها كانت معادية له. فلما كان يخشى عدم الإقبال عليها وبوارها وضع عليها عنواناً مزيفاً. ألم تكن العداوة شديدة في القرن الحادي عشر بين المسيحيين والمسلمين؟.

ألم يفرض الأسطول الإسلامي سلطانه على الأسطول المسيحي في البحر الأبيض المتوسط من القرن الثامن؟ ألم يحتل العرب وبربر شمال أفريقيا الأندلس والجزء الكبير من أسبانيا؟ ألم تفتح جيوش الدولة الأغلبية معظم جزيرة صقلية وتغزو المرة والأخرى شواطىء إيطاليا وتدخل روما وتستقر بضواحيها سنوات وتنهب الفاتيكان سنة 1020 وتنهب كثيراً من الكنائس وتأسر الرجال وتسبي النساء والبنات؟ توجد إلى يومنا هذا في جزيرة أزولا دال جيليو Isola de Giglio وسط سوق القرية رخامة مكتوب عليها: «هنا نزل البربر وجمعوا بناتنا وذهبوا بهن». وباختصار، لم تنفك الحرب بين الفريقين في البحر المتوسط طيلة قرنين وأكثر من ذلك في الأندلس. ولا غرابة إذا احتال قسطنطين لترويج كتبه واللوم ينقلب عذراً. واليوم فقدْ اتضحت الحقيقة وأخذ كل ذي حق حقه وكان الفضل لقسطنطين الذي غزا أروبا بالعلم لا بالرمح وانتفعت أمم وأجيال بثمرة بذره وسبق بذلك قرناً كاملاً جرار دي كريمون Gerard de Crémone وغيره ممن انتقل إلى الأندلس لينهل من إنتاج قرائح العرب لإفادة مواطنيهم. أما قسطنطين فقد حمل إليهم بنفسه العلم وبالإجماع حكموا له بالفضل.

وخاتمة المقال أنه جاء في دراسة «درنبورغ» Dérenbourg المشار إليه، هذه الكلمة: «لا بد أن يجتمع يوم من الأيام علماء العالم ويشيدوا في سلرنو تمثالاً لقسطنطين تخليداً لذكراه» والفضل ما شهد به العلماء.

وذكر أبو بكر بن يحيى: «يجب علينا أن نشيد له بدورنا تمثالاً مثله على قمة قرطاج» وأشاطره هذا الرأي.

أسطورة قسطنطين

نجد في حياة العظماء والدهاة في السياسة والعلم ومناقب الصالحين وأصحاب الجاه حكايات ترددها الألسنة ويضخمها البسطاء وأصحاب العقليات الساذجة بطول السنين والزمان ويكسبها الخيال أبهة وهالة من النور والقدسية، من

ذلك ما جاء في حياة بعض الأطباء التونسيين أصحاب الخبرة والشهرة ومن بينهم: قسطنطين الإفريقي.

إن قسطنطين أدخل الطب العربي إلى أوروبا يوم كانت في حاجة أكيدة إليه، يوم توقفت المدنية اليونانية والحضارة الرومانية، وانحطت شعوبهما فكان له فضل عظيم في تعليم الطب العربي بإيطاليا ونال من الشهرة ما رددته الألسنة وتضخمت مع طول الزمان حتى أصبحت في قالب الأسطورة تذكر في الحفلات الساهرة ويحملها القصاصون المتجولون Troubadours من بلد إلى آخر.

يحكى أن قسطنطين كان جوالاً طاف الشرق كله. دخل مصر وبغداد وبابل والهند وتعلم كثيراً من اللغات، ولما رجع إلى تونس مسقط رأسه وحكى ما شاهده في هذه الأقطار اتهم بالكذب والسحر واضطهد حتى ساء أمره. فنزح إلى إيطاليا وحل ببلد سلرنو Salerne يتسول ليقتات فعثر عليه البرنص الذي كان قد تعرف به في بابل من قبل، فقدمه إلى ابن عمه زعيم البلد ورئيسها البرنس جسكار Giscard فأكرم مثواه. ثم استقر قسطنطين بدير كسينو عند الرهبان وتنصر وتعلم اللاتينية وهي اللغة العلمية السائدة في أروبا وترجم الكتب الطبية العربية.

إن إفريقية في القرن الرابع الهجري (العاشر والحادي عشر الميلادي) كانت في أوج الحضارة لم تعبث بحلول رجل طاف الشرق. وسكان تونس كانوا في اشتياق عميق إلى أخبار العالم والشرق خاصة. والحجيج والتجار والجوالة كانوا الجرائد الناطقة والإخباريين الذين تسجل أقوالهم وتحفظ للتاريخ. وكل قادم من الخارج يحل حوله الناس ليتزودوا من الأخبار والعلوم ما لا يعلمون. ويقدمونه إلى الأمير. فهل يعقل أنهم يفرون منه ويرمونه بالسحر ويجبرونه على الهجرة من بلاده؟ وهل يُعقل أن عالماً عربياً وجوالاً يحل ببلاد الإفرنج في تلك العصور بدون أن يحظى بالإكرام بمجرد وصوله حتى يضطر إلى التسول في الطرقات؟.

ولو كان قسطنطين رحالة لكتب رحلته ولحفظها لنا التاريخ أو أشار إليها الإخباريون العرب أو الإفرنج.

وكان مثله مثل محمد الوزاني وابن بطوطة. أن القصة التي راجت حول شخصه في القرون الوسطى لا تصمد أمام النقد السليم. وما جاء في رواية كارل سدوف في شأن هذا الرجل قد استوردها من وثائق قديمة أقرب للصواب والمعقول. وما كُتِبَ غير ذلك كان من قبل الأسطورة وضرباً من الخيال لا نصيب له من الحق.

ونظريتي أنا أن قسطنطين استقر بسلرنو عند رجوعه من تونس وانتصب طبيباً لعلاج التونسيين المهاجرين بسلرنو وغيرهم من أبناء البلاد. وتعلم اللاتينية وربما اليونانية معاً وهما لغتا الكنيسة والعلم والتعلم، واشتهر ونجح في صناعة الطب. وفاق الأطباء وأسس مدرسة لتعلم الطب ثم استجلبته الكنيسة التي كان لها نفوذ كبير بإيطاليا إلى دير كسينو وكان معقلاً للعلم. وهناك تولى ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، واعتنق الدين المسيحي وأطلق عليه اسم قسطنطين الإفريقي نسبة إلى بلده، هذه نظرية أقرب إلى الصحة من غيرها.

* * *

لم ينحصر انتشار الطب التونسي في أروبا في القرن الحادي عشر بواسطة قسطنطين الأفريقي فقط، بل تتابع إلى القرن الثالث عشر ميلادي. تُثْبِت الوثائق أن شارل الأول ملك نابلي (إيطاليا) طلب من المستنصر الحفصي كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي وترجمه بواسطة عالم يهودي وكان ذلك سنة 1278 ـ (نقلاً عن برنسفيك ج 2 ص 373).

التعريف بسلرنو

سلرنة قرية تقع في الشاطىء الغربي من إيطاليا الجنوبية بالقرب من نابلي وبالقرب من صقلية. فتحها العرب واستقروا بها وهي على سفح جبل يشبه سيدي بوسعيد بتونس. وهي ميناء صغير استقر بها الملك النرماندي روبار جيسكار. كانت مركزاً تجارياً تونسياً يشهد به المؤرخ هلفارن (Halphen). وقد جاء في

كتابه (ص 72): «إن المعاملات التجارية مع سليمان الصلارني بواسطة الأسطول الجنوي... يوم بلغ الطب العربي أوجه وأخذ تلامذة المعهد الطبي الصلارني ترويجه ونشره».

استوطن النرمان (Les Normands) صلرنة في القرن الحادي عشر وأزاحوا العرب منها. تآمر عليهم زعيمهم ربار جيسكارد (Robert Giscard) ونالت صلرنة بفضل مدرستها في الطب مكانة كبرى طوال القرون الوسطى.

أطبـاء تونـس

النهضة الطبية ـ محاولة التجديد

1 ـ أحمد بن الحشا:

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن الحشا. طبيب تونسي من القرن السابع الهجري والثالث عشر ميلادي. ألف كتاباً ـ بل معجماً ـ للألفاظ الطبية: من الأعضاء والأوصاف والآلات والأدوية التي وردت في كتاب المنصوري لأبي بكر الرازي. يذكر المؤلف: اللفظ كما جاء في المنصوري، ويذكر اشتقاقه من العربية أو الفارسية، ويشرح معناه، ويأتي على ما يرادفه في المغرب العربي. وكتابة هذا المعجم كانت بطلب من أمير تونس أبي زكريا يحيى بن أبي محمد شيخ الموحدين لبني حفص الذي ترأس من سنة 1228/825 إلى سنة 1249/847. واقتبس المستشرق الهولندي دوزي Dozy كلمات كثيرة من المعجم أدخلها في كتابه «ملحق القاموس العربي Supplément aux dictionnaires arabes».

وترجم معجم ابن الحشا من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية المستشرقان كلان Colin ورنو Renaud وطبعت هذه الترجمة بباريس ومنها نسخة بمكتبة اللغات الشرقية بباريس تحت رقم 1664 PEC وكان رنو وزميله من أساتذة المدرسة العليا بالرباط.

ـ الكتاب اسمه «مفيد العلوم ومبيد الهموم» يوجد منه نسخ كثيرة:

ـ بتونس: رقم 18006 مبتور الأول والآخر يبتدىء بحرف الحاء. عدد

الأوراق 13 من 14 إلى 25.

ـ الرباط: رقم 2996 بالمكتبة الملكية، خط مغربي جميل، ملون، الأوراق 32. من غير تاريخ ورقم 955 مجموع من 139 إلى 166. كتب سنة 1302 هـ الناسخ إبراهيم بن القاضي.

ـ هولندة: مكتبة لايدن رقم 331/5. كتابة مغربية جميلة، ملونة، الأوراق 24. وهي النسخة التي وقع عليها الاعتماد[1].

وهذه نبذة من الألفاظ التي ترجم لها المؤلف:

أبهل: شجرة من جنس العرعار موجودة بالمغرب.

شرسام: ورم الدماغ هو بالفارسية شرسام بالسين المهملة ـ ومعنى شر رأس وسام معناه الورم.

وعاء: الوعاء معروف، وأوعية المني هي المجاري الموصلة للمني من الأنثيين إلى الذكر في الرجل وإلى الرحم عند النساء وهو مجرى واحد لكل بيضة.

سنون: معجون أو مسحوق لتنظيف الأسنان.

سدة: السدة والسداد: داء يأخذ في الأنف يمنع الشم وتنسم الريح هذا

---

(1) لايدن Leyden مدينة تبعد عن أمستردام Amsterdam العاصمة الهولندية باثني عشر كيلومتراً ولها جامعة لدراسة العلوم العربية والشرقية. من تأسيس القرن السادس عشر وفي القرن الموالي يوم كثرت المواصلات بين هولندة والمشرق وأفريقيا واسطنبول، كونت الجامعة دروساً في اللغات الشرقية فأرسلت إلى الآستانة شباناً لتعلم العربية والتركية والفارسية وكان المسمى فرنار Wernar من بينهم واستقر من بعد سفيراً لبلاده.

ومن مأموريته شراء الكتب، فاشترى كامل مكتبة حاجي خليفة بعد موته وسمى القسم المكتبة الشرقية بالجامعة باسمه. وهو يحتوي على ما يقرب اليوم من عشرين ألف مخطوطة. ومن هذا الكنز العظيم استطاع دوزي أن يؤلف ملحق القاموس وكتباً أخرى في تاريخ المغرب والأندلس وهي مشهورة. واستطاع هو وغيره أيضاً ترجمة الكتب الهندية والأندونيسية وخاصة الكتب العبرانية التي سهل فهمها بواسطة اللغة العربية التي كانت أقرب وأوسع منها.

وضعه في اللغة ـ ويعنى الأطباء به كل السداد يكون في مجرى من مجاري البدن ظاهراً كان أو خفياً.

القصة الصقلية

تقدم أن أسرة من الأطباء نزحت من صقلية إلى تونس ونالت من الشهرة حتى أصبحت تطلق كلمة «الطبيب الصقلي» كعلم على الطبيب العبقري الفذ الذي لم يأت الزمان بمثله وتناولته القصة وتضخمت بمرور السنين. وهنالك من أدخله في زمرة الصالحين المقربين ونسب إليه المعجزات.

ذكر لي يوماً رجل ممجداً أن الطبيب الصقلي كان يعرف لغة النبات. وكان كلما حل بالجبل لينتقي الأعشاب تناديه كلها معاً يا صقلي أنا أداوي كذا يا صقلي أنا أداوي كذا! فيأمرها جميعاً بقوله «أس» بمعنى السكوت. ثم يخاطب الواحدة بعد الأخرى بكلمة «قل لي» ومن هاتين الكلمتين أس وقل لي جاء اسمه «الصقلي» ويكتب بالسين.

يذكر حسن حسني عبد الوهاب في رسالة كتبت بمناسبة مرور مائة سنة على ولادة ميشال أَماري Michel Amari مؤرخ الحضارة العربية في صقلية أن الطبيب الصقلي مرّ يوماً بحداد وكان مصحوباً بغلامه، فقال له: ابحث عن مسكن هذا الرجل. ومات الحداد من الغد ودفن فنبش الطبيب القبر وأيقظه، وجرح جلده وأخرج دمه، ثم شممه دواء فأماته من جديد، فسأل الغلام: لماذا أمته يا سيدي بعدما أحييته؟ فأجاب: أردت أن أتحقق أن ما جرى له كان من أثر مادة مسمومة من دخان الحديد عند صنعه بالنار فغشي عليه. وأنا أرجعته إلى سباته ذلك خوفاً من أن يقال إني أحيي الموتى. نشأت عن هذه الخرافة التي روجها الشعب أن الطبيب الصقلي كان يحيي الموتى.

وجاء في الرسالة المذكورة الأبيات التالية:

عينيـــــك سهـــــم مكـــــان هـــم سبـــب مـــرضـــي وذلـــي

والحـــب لا فيـــه فكـــان   لو تجيب له الطبيب الصقلي
هـــاروت وجميـــع لنـــام   طيـــر شـــرد لا يـــولـــي

ورأيت يوماً عجوزاً تحك ظهرها ليستقيم على الأسطوانة التي وضعت وراء مشهد قبر عبد السلام الصقلي وتقول بصوت جهير: «يا صقلي داوني بكلي» وكان القبر إذاك على الطريق القبلي لضريح أبي الحسن الشاذلي المار أمام ضريح سيدي ماضي قبل أن ينقل جوار مقبرة سيدي الزلاج وهي تتضرع إلى الله أن يشفيها من جميع أسقامها ويقوم حدبتها بواسطة الطبيب وبركته وحظوته عند الله. وهذه مسرحية أخرى.

إن الحاج عبد السلام الصقلي دفين القبر المشار إليه. فلم يكن طبيباً ولا شريفاً، كان تاجراً في الزيت كتب على لوحة القبر (هذا قبر الحاج عبد السلام بن إبراهيم الصقلي القرشي الزيات رحمه الله... والكتب الثلاثة التي نسبها إليه حسن حسني عبد الوهاب من تأليف أحمد الصقلي. وهذه مسرحية ثالثة.

2 ـ أحمد الصقلي

الرجـــل:

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي. لم أعرف بثبات وتحقق تاريخ ولادته وموته وما أعلمه أنه توفي سنة 820 أو 828 هـ. ولا فائدة كبرى تنجر من إثبات هذا التاريخ، المهم أنه اشتهر في خلال النصف الأخير من القرن الثامن الهجري والربع الأول من القرن التاسع وهي الفترة التي تمتعت فيها تونس بشهرة عظيمة على يد ملكها أبي فارس عبد العزيز الذي شاع ذكره في العالم العربي الإسلامي وخطب له في الأندلس والمغرب الأقصى وأحدث المارستان بمدينة تونس للضعفاء والمساكين وانتظمت حلقات الدروس في جامع الزيتونة لتعليم المعقول والمنقول. وظهر علماء أجلاء أمثال ابن خلدون في علم الاجتماع وابن عرفة الورغمي والبرزلي في الفقه. وأطلقت على المدرسين كلمة الشيخ

تعظيماً لهم أمثال آل بيت الملوك الحفصيين ورجالهم. ومن المشاع أن أحمد الصقلي أقرأ الطب في جامع الزيتونة واشتغل بالمستشفى وألف في الطب. وله من الكتب: كتاب الأدوية المفردة وكتاب حفظ الصحة وكتاب في شرح أرجوزة علي بن سينا في الطب. وكان حاد الطبع. يذكر تلميذه أحمد الخميري (مخطوط رقم 18502 وطنية): كان شيخه الشريف أبو العباس أحمد الصقلي... أشد الناس خلقاً، وأكثرهم انحرافاً، وأحدهم مزاجاً، سريع الغضب إلا أنه كان يتكلف الرياضة في مزاجه، ويستعمل السكون ويخفض الجناح على جهة التطبع إلى أن صار له ذلك مزاجاً سيما فيما يرجع إلى معالجته حتى أنه كان كثيراً ما يصير على جفوة الأعراب وغلاظة طباع البوادي وخصائص ذوي الأقدار. وكان رحمه الله يقول: العادة طبيعة مستفادة. والغضوب يروض نفسه حتى يرجع حليماً...

ويذكر الرصاع في كتابه «الفهرست» أنه سمع من شيخه الإمام ابن عرفة ومن غيره أن بلداً لا يسكن بها الصقلي لا تحل السكنى بها لما كان يتقن (الطب) وأحمد بن عرفة والرصاع قرآ الطب على أحمد الصقلي.

كتاب الأدوية المفردة

هو الكتاب الرئيسي لأحمد الصقلي يشتمل على عشرين باباً جمع فيها الأمراض من الرأس إلى القدم وهذا طالعه:

يقول أحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي لطف الله به وعفا عنه بلطفه وكرمه:

الحمد لله المنعم بحياة النفوس وصحة الأجسام. الشافي بلطفه من جميع الأدواء والأسقام. المتفضل على أتباع نبيه محمد بالنعم في دار السلام. أحمده حمداً دائماً على ما منح من علم الطب الموصل عادة إلى صحة الأجسام.

وبعد، فإني استخرت الله أن أكتب هذا التصنيف وهو مشتمل على مداواة الأمراض من الفوق إلى القدم بأدوية بسيطة قريبة، لأن التركيب في الأدوية صعب

وقلما يصاب فيه التحقيق. وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ إذا خير في شيئين فينظر أيهما أيسر»، ومن اقتدى بقوله وفعله اهتدى، وقد جعلته عشرين باباً.

أوردنا هذه المقدمة من النسخة الكاملة بالمكتبة السليمانية باستنبول رقم 3716. إن الكتاب لا يدرس المرض ولا يتعرض البتة إلى أسبابه وأعراضه وعلاماته، إنما يذكر اسم المرض في طالع المقالة ويذكر الأدوية بأنواعها من غير وصفها وزمان التقاطها وقليلاً ما يذكر أنواعها أهي جبلية أم بستانية؟ وكيفية استعمالها ومقدار تناولها. والكتاب معجم للأدوية والعقاقير من مؤلفات فارسية أو يونانية ولم توجد بتونس، أو توجد ولم يأت بأسمائها المحلية. فقد أشار إلى مئات من الأدوية كلها مفردة كما أشار إليها في المقدمة، فذكر لعلاج الصداع عشرات الأدوية منها الكليل والبنفسج وزيت الخردل وورق السماق ودهن الورد وعنب الثعلب التي نعرفها... ومنها ما لم نجد له ذكراً في كتب الطب التونسية مثل: حبة المرزيخوس واسطخودوس والجندباد.

إن الكتاب معجم للأدوية وفقير من السريريات وهو عيبه. والقارىء يكل عند مطالعته، ولهذا السبب كانت أكثر النسخ الموجودة مختصرة منه.

فهرس الكتاب:

الباب الأول في الأدوية المفردة النافعة من الصداع. الباب الثاني في الأدوية المفردة النافعة من أمراض العين. الباب الثالث يتعلق بالأذن. والرابع بالأنف. والخامس بالفم. والسادس بالحلق والتنفس. والسابع بالكبد والمعدة. والثامن بالأمعاء. والتاسع بالمقعدة. والعاشر بالكلى. والحادي عشر بالمثانة. والثاني عشر بأعضاء التناسل من الذكور. والثالث عشر بأمراض الرحم. والرابع عشر بأمراض المفاصل. والخامس عشر بأمراض الجراحات. والسادس عشر بالأورام والبثور. والسابع عشر بالزينة. والثامن عشر بفساد الهواء. والتاسع عشر بالسموم ولسع الهوام، والعشرون فيما يعم نفعه للبدن وفي خواص الأشياء.

وهذه أمثلة مختصرة في علاج الصداع: أفتيمون إذا استنشق بخاره سكن

الصداع البارد. أفيون إذا أخذ منه مقدار يسير وخلط بدهن ورد ودهن به الرأس كان صالحاً للصداع الحار والردي. بزر قطونا إذا أخذ لعابها ودهن بها الجبهة أبرأت من الصداع. اسطخودس يسقى بماء يخلص من تزعزع الرأس... الخ. ومن غرائب الأدوية يذكر هذه: التمساح إن علقت عينه اليمنى في خرقة على من به حمى ربع برأ. وإن علقت عليه اليسرى عادت إليه. وعين الدب اليمنى إذا علقت على رجل أحبته الرجال. وإن علقت على امرأة أحبتها النساء. أستغرب أن طبيباً مثل أحمد الصقلي يذكر هذا الصنف من الأدوية التي يؤمن بها الجهلة والبله من الناس ولا تمت إلى الطب بصلة.

توجد نسخ من هذا الكتاب في:

ـ استنبول: نسخة كاملة من غير إهداء ولا تاريخ ولا اسم الناسخ رقم 3614 ـ كتابة مشرقية جيدة جميلة. أوراق 166 وهي التي وقع عليها الاعتماد.

ـ هولندة: نسخة كاملة كتابة مشرقية جميلة أوراق 159 تنقصها النقط، من غير إهداء، كتبت سنة 899/ 1493.

ـ تونس: مجموع رقم 5584 أوراق 156. مجموع رقم 16443 به مختصر أوراق 14. مجموع رقم 16299 به مختصر من الورقة 27 إلى 60. بمكتبتي مجموع به مختصر، كتابة ملونة بسيطة الأوراق 12.

ـ باريس: مجموع 6844 من ورقة 16 إلى 38.

ـ بغداد: مكتبة الأوقاف العامة نسخة خط جيد جميل كتبت سنة 1039 هـ.

كتاب في شرح أرجوزة علي بن سينا في الطب

يظهر أن هذا الكتاب تمتع برواج كبير في أفريقية لسببين اثنين: سمعة علي بن سينا ومكانة أحمد الصقلي في الطب والتعليم وشهرته بتونس. وكان التعليم شفاهياً لقلة الكتب وأثمانها المرتفعة. وطريقة التعليم السائدة تتمثل في

تفسير ما جاء في كتاب سبق تأليفه وهو الشرح. أو تفسير ملخص كتاب جاء في قالب أرجوزة أو قصيد ويدعى المتن. فالكتاب المشار إليه هو شرح أرجوزة ابن سينا يأخذ الشارح بيتاً أو أكثر حسب تمام المعنى ويطنب القول في إفهامها للتلامذة. ويظهر أن الكتاب ليس من قلم أحمد الصقلي نفسه بل من بعض تلاميذه من إملاء شيخه أثناء الدروس.

وهذه مقدمة الكتاب بعد الديباجة: «هذا مختصر مفيد على أرجوزة ابن سينا قيدته على سيدنا وشيخنا وإمامنا وقدوتنا وبركتنا وبركة المسلمين الشيخ الإمام العالم العلامة القدوة الصدر الشهير المتقن المتفنن السيد المولى الشريف الحاج المبرور بقية السلف الصالح سيدنا أبي العباس أحمد بن الشيخ الإمام قدوة العلم الطبيب الماهر المقدس المرحوم أبي محمد عبد السلام الصقلي الشريف الحسيني أمتع المسلمين بطول حياته ونشر علينا من عميم بركاته وأدام النفع به».

تقسيم الكتاب:

جاء الكتاب في ثلاثة وعشرين باباً وفي ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول: في الأركان والحيوان والنبات والمعادن:

الأمزجة: السخن يتمثل في النار والهواء، والبارد يتمثل في التراب والماء، واليابس بين التراب والماء، واللين بين الماء والسحاب. ويتمثل في الذكور اليبس والسخانة وفي الإناث البرد والليونة.

والأخلاط: إن جسم الرجل مركب من الأخلاط: البلغم والدم والصفراء والسوداء.

والأعضاء: الكبد والمفاصل والأنثيين والشعر والعظم والكلى...

والروح: جسم بسيط من أبخرة لطيفة.

والأمور الضرورية: الهواء والشمس والريح والمسكن وما يؤكل ويشرب والنوم واليقظة.

والأمور الخارجة عن الطبيعة: المرض، وأسبابه الرطوبة والبرودة وما يسد المجاري أو يفتحها.

والقلب: نبضه حركة رئيسية من انقباض وانبساط لتدبير الروح بالنسيم. سريع يدل على القوة.

والشرايين: منها الصلب تدل على اليبس واللين تدل على الرطوبة.

والصدر: يدخل الهواء بانبساطه ويخرج بانقباضه، والنفث يدل على المرض.

والكبد: منشأ الأخلاط تخرج منه إلى سائر البدن.

والبول: يستدل بلونه ورائحته: أبيض من شرب الماء والبلغم والسوداء وأحمر من السواد والحرارة والدم.

الجزء الثاني في حفظ الصحة:

تحفظ الصحة بالغذاء والدم وحفظ المزاج بالهواء النقي والمأكل: قليل في النهار وزمن الصيف وتمديد زمن الأكل.

وبالحركة: ويشترط اجتناب الرياضة القوية والتحفظ من البرد والحر والعطش وترك الحركة حتى لا تتجمع الفضلات في الجسم، وعلى المرأة الحامل التحفظ من الفساد في شوطها وأن لا يكون قماط الرضيع شديداً.

وبالنقاهة يعطى للمريض المقويات شيئاً وشيئاً والفصد مرة في الربيع لمن كان قوياً.

الجزء الثالث من العمل:

العمل هو العلاج. أساسه: مقابلة المرض بالضد. من كان مزاجه حاراً يعالج ببرودة وبالفراغ إن كان الامتلاء وبأصناف الأدوية المسهلة والمخرجة للبلغم والمسخنة والمنضجة والمخلخلة والمعقبة.

شروط استعمال الأدوية:

بالفصد عند امتلاء الدم والعمل باليد في اللحم والقطع والحبط والجبر في الكسر والخلع والكي.

يوجد من هذا الكتاب نسخ كثيرة بالمكتبة الوطنية بتونس منها:

ـ رقم 6855 كتبت سنة 1172 هـ.

ـ رقم 13425 كتبت سنة 1173 خط ملون أوراق 134.

ـ رقم 16156 كتبت سنة 1185 خط ملون أوراق 160.

ـ رقم 1987 مختصر في أوراق 76 وأبواب 73 ضمن كنش كتب سنة 1205.

ونسخة بمكتبة استنبول رقم 3614 خط شرقي وهي التي اعتمدتها وبمكتبتي نسخة ملونة منه.

كتاب حفظ الصحة

كتاب «حفظ الصحة» ويسمى أيضاً «الطب الشريف» ألفه أحمد الصقلي لأمير عصره أبي فارس عبد العزيز وقسمه إلى قسمين:

أمراض النفس ومداواتها وهي في أربعين ورقة.

وحفظ صحة الجسم في تسع عشرة ورقة.

يبحث القسم الأول في علم الأخلاق وصلته بالطب قليلة حيث يستنجد المؤلف فيه بتعاليم القرآن والأحاديث النبوية التي يذكرها من غير إسناد ولأهميته نلخصه فيما يلي:

ـ أمراض النفس:

هي المهلكات وعددها عشرة: البخل والكبرياء والعجب والرياء والحسد

والغضب وشهوة الأكل والجماع وحب المال والجاه.

ـ العــلاج:

قهر النفس عن جميع مطالبها ويعبر عنه المؤلف بالجهاد، والتقوى والصمت والزهد والرجاء والخوف من الله ومراقبة الأعمال، ومخالفة النفس والحمد والصبر عند الشدائد والقناعة في الأكل حفظاً للجسم وجودة الحفظ والاستقامة بالإخلاص والصدق واجتناب الحيل والرضى بالقضاء والقدر.

ويعبر المؤلف عن النفس بأنها سر أودعه الله في عبده، وهي الروح التي يقع بها الإدراك الظاهر بالحواس والباطن بالتخيل وفيها سبعون قولاً وتساءل بعضهم هل هي من جنس البشر أم لا؟ ومداواتها بالمناجاة والتوحيد. ومما جاء في هذا الفصل خلق الجنين في الرحم وخلق الأعضاء والأخلاط ومدة الحمل. وقال في هذا الصدد: يعيش الطفل إذا ولد في سبع ولا يعيش إذا ولد في ثمان وكذلك في عشر إذ يعد مريضاً. . . وقالوا أكثر الحمل أربع سنين[1]. . .

القسم الثاني من الكتاب تناول المؤلف فيه الكلام على حفظ الجسم في ثمانين باباً ذكر فيها جل الأمراض من الرأس إلى القدم بإيجاز وإجمال من غير أوصافها وعلاماتها وأسبابها، مع الإشارة إلى ثلاثة أدوية على الأكثر لكل مرض. ولسبب هذا الاختصار كثرت النسخ من هذا القسم من الكتاب وكان عددها أكثر من الكتاب الأول مما يدل على رواجه.

يوجد الكتاب في:

ـ استنبول: رقم 18316 نسخة كاملة خط تونسي ملون من غير تاريخ ولا

(1) هذا خطأ جاء في كتاب القانون لابن سينا وقد اعتمده بعض الفقهاء وحكموا به في تونس وأحدثوا شغباً في البيئة بتأجيل الأحكام عند قسمة التركات فوقع تلاشيها وتلاعبت أيدي العابثين فيها. وقد أثبتت الأبحاث الطبية والاجتماعية الكثيرة والعميقة أن الحمل لا يتجاوز عشرة أشهر وإذا تجاوزها كان من الزنى والقول «بالجنين راقد في بطن أمه» قول لا صحة له علمياً.

اسم الناقل. ورقم 16316 نسخة كاملة خط تونسي ملون من غير تاريخ ولا اسم الناقل وهي التي اعتمدتها.

ـ ألمانيا: المكتبة الملكية ببرلين: مختصر من الكتاب رقم 6330 الخزانة 134.

ـ باريس: بالمكتبة الوطنية ضمن مجموع رقم 6844.

ـ تونس: بالمكتبة الوطنية رقم 16299 مجموع من ورقة 27 إلى 60، رقم 13262 مجموع من ورقة 42 إلى 78، رقم 558 مجموع من ورقة 23 إلى 41، رقم 1413 عنوانه أمراض الجسم.

3 ـ محمد بن أحمد الصقلي

لا نعرف شيئاً عن حياة هذا الطبيب إلا أنه ابن الطبيب أحمد الصقلي المتقدم الذكر.

وله كتاب بمكتبة استنبول رقم 2776 ضمن مجموع من ورقة 10 إلى 13 تحت عنوان: «كتاب الشريف محمد بن السيد الأكمل أبي أحمد الصقلي». طالعه:

«الحمد لله الذي خلق الإنسان من صلصال وجعل بفضل صحته نوراً مبيناً. . .».

والظاهر أن هذا الكتاب، بل هذه الأوراق، مقتبسة من كتاب أبيه «الأدوية المفردة» وتتناول الأمراض الآتية:

وجع الرأس المتولد من الحر والبرد، القمل في الرأس، وجع الأذن، وجع العين، الغشاوة، الدمعة، تقوية العرق، ورم العين.

الأنف: الوجع، القرح، الرعاف، الزكام، الوجه، الكلف.

الأسنان: تحريك وتسويك، تآكل لحم الأسنان، لعاب الفم، بحوحة الصوت، السعال، وجع المعدة، القيء، مرض الطحال، غلبة البول، عسر البول،

تقطير البول، ورم الخصيتين، سيلان الدم من النساء، رطوبة الرحم، حرق بالماء الحار، الحزاز، آثار القروح، عضة الكلب للإنسان، لسع الأفعى.

ويختم الكتاب بوصف مرهم أصفر... والله أعلم بالصواب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

4 ـ محمد بن عثمان الصقلي

الرجــل:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عثمان الشريف نسباً التونسي مولداً الصقلـي شهرة. كان معاصراً لأحمد الصقلـي وابنه محمد. حج سنة 800 هـ وبينما كان في طريقه ماراً بمصر ضيفه الملك الظافر سيف الدين أول المماليك البرجيين الذي تولى من سنة 788 إلى 800 هـ، وأكرم مثواه وكتب له المؤلف رسالة في التحفظ من مرض الوبـاء وهي مفقودة الآن. ولا نعلم شيئـاً آخر عن حياة هذا الطبيب ولا عن تاريخ ولادته إلا أنه اشتهر في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي. وكانت وفاتـه حوالي (820 هـ/ 1417 م) وألف كتاباً ثميناً أهداه إلى الملك أبي فارس عبد العزيز الحفصي وسماه باسمه: المختصر الفارسي.

جاء في كتاب تأبين ميشال أماري سنة 1910 للمؤلف حسن حسني عبد الوهاب أن الحاج عبد السلام الصقلي المتوفى سنة 722 هـ/ 1322 م (حسب ما جاء على قبره بالزلاج بتونس)، له منظومة في علم التشريح لم أعثر عليها، وأظن أن الحاج عبد السلام الصقلي كان زياتاً حسب ما جاء مكتوباً على قبره، وأن هذه الكلمة لم أجدها على أسماء أحمد ومحمد الصقلي في التعريف بأسمائهم ونسبهم.

مقدمة الكتاب:

بعد البسملة: إن السبب الوحيد لتصنيف هذا المختصر في الطب سهل الله المرغوب فيه هو نيل نفسي بالمودة والمحبة لمولانا السلطان الملك العادل... مولانا أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز... وأنه لما أراد الله للعبد بالهجرة الحجازية في ثمانمائة فعبرت إلى القاهرة المحروسة فحضرت مجلس الملك برقوق فرأيت من ضخامة ملكه ما هو مشهور فوقع في نفسي أن وضعت له كتاباً يحتوي على مقالتين الواحدة في تدبير الصحة بحسب الضروريات والثانية في تدبير الهواء عند حدوث الوباء إذ مصر مخصوصة به دون غيرها من البلدان وذلك مدة إقامتي بها قبل الطلوع إلى الحج... فلما وقفت على عرفات وسمعت الدعاء لمولانا أبي فارس عبد العزيز... سميت هذا الكتاب بالمختصر الفارسي... ثم يذكر المؤلف الاختلاف الناشيء بين بعض الأطباء في نظريتهم: هل الطب علمان: نظري[1] وعلمي؟ فيجيب: «إن الأول يرمي إلى معرفة حقيقة الغرض الذي يكون به التمييز والتدبير فيما يراد به فعله وعمله، والثاني يرمي إلى معرفة الصحة وإزالة المرض» ويلاحظ أن هناك اختلافاً في الألفاظ والمعنى واحد ويصف الصحة: «حالة العضو فيما يفعل أو ينفعل الانفعال الذي له (أي الطبيعي) والمرض: حالة العضو فيما يفعل أو ينفعل على غير المجرى الطبيعي».

كتاب المختصر الفارسي

مجهود شخصي. مفيد وعظيم يمتاز بعدم الإعادة في الألفاظ، يمتاز خصوصاً بكثرة الأوصاف والعلامات للمرض وهو الشيء الثابت والمهم. ويأتي بأوصاف جديدة لكثير من الأمراض لم يسبق بها أحد قبله في أمراض المخ، والعينين، والقلب، والمعدة، والكلى، والرئة، مما يدل على سعة تضلعه.

(1) جاءت هنا كلمة نظري بمعنى علمي.

والكتاب مجلدان في عشر مقالات، خمس مقالات في المجلد الأول وخمس مقالات في الثاني ولكل مقالة عشرة فصول أو أكثر.

المجلد الأول في الطبيعيات والأخلاط والأمزجة والأعضاء الرئيسية والروح وبطون الدماغ وتولد الجنين والقوى مبدأ الأفعال، والقوى النفسانية. والضروريات: المأكل والمشرب والحركة والنوم والهواء. وأصناف المأكولات وقوامها من خبز ولحم وسمك ومواد دسمة وبقول وحبوب.

ثم يذكر الأمراض الآتية:

أمراض الأنف: الورم، القروح، الرعاف، اللحم الزائد Végétations.

أمراض الفم: البثور، القروح، الضفدع تحت اللسان، تشقيق الشفة، استرخاء لحم اللثة، نقصان الذوق، وجع الأسنان وتحركها، الخانوق، الذبحة، أورام اللوزتين.

أمراض أعضاء التنفس: البحوحة، انقطاع الصوت، السعال، ضيق النفس، وجع الصدر، الأورام، نفث الدم، ورم يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع، ذات الرئة، البرسام، السل.

أمراض القلب: سرعة النبض وتواتره وصلابته وضيق النفس، صغر النبض والنفس وبطؤه وتفاوته، الخفقان، الغشاوة.

أمراض الثدي: الأورام، غزر اللبن، قلته.

أمراض المرة والمعدة: رطوبة المعدة، الورم الحار والصلب، قروح المعدة، الريح في البطن، اليرقان.

أمراض الطحال: الوجع، السدد.

أمراض الكليتين: الأورام، حدة البول، القروح، القيح والدم الخارجان مع البول، البول الحلو وشدة العطش.

أمراض المثانة: احتباس البول وتقطيره، القروح، الحصى، عسر البول

وقلته، كثرة السلس، البول في الفراش.

أمراض السفاق: الفتق.

أمراض آلات التناسل: الإنعاظ، الحكة، القروح، ذهاب شهوة الجماع، الاحتلام، البثور، من يولد ولا ثقب في ذكره ولا شق في فرج الطفلة.

أمراض الرحم: احتباس دم الحيض وقلته، انقطاع السيلان، السرطان في فمه وقعره وجوانبه، البثور، القروح، اللحم الزائد في فم الرحم، بروز الرحم وانقلابها، الرتق، العقر.

ويطيل القول على الأمور الخارجة على المجرى الطبيعي، أعني الأمراض وأسبابها وأعراضها، ويحث على حفظ الصحة بطريق الأغذية والهواء والملبس والمسكن والاستفراغ والحوادث النفسانية وتدبير المشايخ والأطفال والمسافر في البر والبحر.

ويذكر الأدوية المفردة المختلفة وتركيب البعض منها وخواصها وعلاماتها من حيث الجودة، ويتكلم عن الحمى وينتهي الكتاب بهذه الخاتمة البليغة الحكيمة: «اعلم أن القوة المدبرة للبدن هي المقاومة المدافعة للمرض وإنما الطبيب الحاذق هو عون الطبيعة في دفع الأمراض بحسب ما يحتاج من التوفيق. فالطب حيلة حتى يتقوى على المرض وقلع سبب المرض».

المجلد الثاني:

خصص المؤلف الكتاب الثاني وبه خمس مقالات كلها لأوصاف الأمراض من الرأس إلى القدم وأعراضها وأسبابها وأدويتها وهو أحسن تأليف كتب بتونس على ما أعلم لكثرة موارده وصحتها وسننقل منه نتفاً.

تفاصيل المقالات:

أمراض الدماغ: الصداع وأصنافه، الأورام، الحمرة وأسبابها وأصنافها، بوتليس، الفالج، الكزاز، الاختلاج، اللوه (ارتخاء شقي الوجه) الخدر (نقصان حس العضو).

أمراض العين: أمراض الجفن، الشعرة، الورم، الملتحمة، الماء النازل في العين، التوتة، المان، الذفرة، الدمعة، السبل، العنكبوتية، الجهر، نتو العينين، الحول، الروح الباصرة.

أمراض الأذن الداخلة على السمع: وجع الأذن، سدد مجراها.

أمراض المعدة: البواسير، الشقاق من داخل الدبر أو من الخارج، الدود، الحكة.

أوجاع المفاصل: النقرس، عرق النسا، داء الفيل.

أمراض الزينة: داء الثعلب، الشيب، الشعر، الطيب.

أمراض لطخ البدن: القروح، الكلف، النمش، الجرب، الحكة، البهق، البرص، الجذام، الشقاق العارض في اليدين والساقين، الأشياء التي تخصب وتهزل البدن.

السموم: معرفتها وعلاجها.

الحميات: أسبابها، ظهورها، أنواعها.

السرطان: الجدري، الحصبة، الأجراح، انفجار الدم، الكسر، الخلع، البط، الفصد، الحجامة، طهور الصبيان، كيفية الحقن.

أمراض الأمعاء: الدشتريا، الإبراز بالدم، الإسهال، الريح، القرقر، الزحير، القولنج، الاحتباس، الديدان.

أمراض الكبد: قلة الشهوة وشدة العطش، خشونة اللسان.

اصفرار البول مع بياض: البزار، نفخ الكبد.

يوجد من هذا الكتاب نسخ كثيرة بالمكتبات الخاصة والعامة منها بالمكتبة الوطنية بتونس:

- النسخ الكاملة: رقم 6249 ـ 10865 ـ 1314 ـ 16157.
- نسختان من الجزء الأول: 4354 ـ 18302.

ـ وكذلك من الجزء الثاني: 18554 ـ 4354.

ـ الرباط: المكتبة العامة نسخة من الجزء الثاني رقم 1119.

ـ وبمكتبتي نسخة كاملة كتبت سنة 1139 هـ. وكل هذه النسخ متماثلة.

وصف مرض السل في كتاب المختصر الفارسي

ومن الإنتاج العلمي التونسي ما جاء في مرض السل لمحمد الصقلي من حيث وصف مرض السل وأعراضه ودقة تمييزه عن غيره من أمراض الرئة مما يعد اختراعاً.

مرض السل يعرفه القدماء وكتبوا فيه. يذكره جميع أطباء إفريقية ويعالجونه بالأدوية والأغذية والهواء النقي.

يذكر القاضي ابن سلامة في تاريخه (ص 48): أن السل يعالج بأريانة، وأريانة هذه قرية في ضواحي تونس طيبة المناخ لكثرة بساتيها، تحميها جبال سيدي عمر بوخطيوة من ريح الشمال في فصل الشتاء وتتمتع بنسيم البحر في الصيف، يأتيها من الشرق بعد أن يمر بزياتين كرش الغابة فتسحب منه الرطوبة وبها بني المستشفى لعلاج السل.

يصف محمد الصقلي السل في الفصل الخامس من الباب الثالث من المجلد الثاني ضمن أمراض ذات الجنب والرئة وأعضاء التنفس كما يلي:

«السل قرحة في الرئة أو أقراح... ويعد الرجل مسلولاً ويعسر برؤه إذا جاوز في النفث أربعين يوماً. وقد يكون السل عن قروح الصدر والحجاب إذا انخرق. وإذا لم ينخرق يسهل التحام تلك القروح لعدم حركتها. وقد يفتك بصاحبه سنين لا سيما إذا كان في القرحة جفوف وخشكريشة غير ساعية، وعلامة السل زمن المرض نتن النفث ونحافة البدن ولطا الصدغين وضمور الخدين وحمى دقيقة على سطح البدن... ونفث الدم.

التعليـق:

يجمع كل الأطباء على أوصاف مرض السل: السعال ونفث الدم والحمى ونحافة الجسم.

أما محمد الصقلي فيذهب أكثر من ذلك فقد جسمه من حيث كنهه في العضو قال: «قرحة وأقراح بالرئة» وهي عين الحقيقة والتي لم يتمكن من الاطلاع عليها إلا بفحص رئة الأموات. ولا يستغرب أنه شرح الأموات لما كان على المستشفى الحفصي بالعاصمة وإن لم يذكره.

وقوله زمن المرض قد سبقت الإشارة إليه: أربعون يوماً على الأقل، والتحام القروم لعدم حركتها صنف من أصناف العلاج المعمول به في النصف الأول من هذا القرن بمستشفيات الجبال: Sanatorium (سناطريوم). وجفوف القرحة معناه قلة القيح فيها. والخشكريشة حس يشبه تمزق نسيج من حرير. ومعنى غير ساعية أنها لا تخرج عن منطقة القرحة. وسمعها غير ممكن إذا لم يضع الطبيب أذنه على صدر المريض وفي مكان القرحة بالذات لأن مساحتها ضئيلة. هذا شرح من غير غموض وقول المؤلف صحيح علمياً ومطابق للواقع.

الخلاصـة:

وجدت كلمة خشكريشة في كتب أخرى وعند أطباء كثيرين. وقد ذكرت في غير الأقراح المفتوحة عند لمسها لمساً خفيفاً. وذكرها ابن سينا في السل ولم يخصها بأي وصف أو نعت عضلي أو غيره، وجاءت مثل كلمة السعال والحمى. أما محمد الصقلي فقد حدد مكانها ووصفها من حيث قلة ارتفاع الحس وانتشاره في الصدر مثل ما يوجد في أمراض الرئة مثل الفدة Asthme والتهاب قصبات الرئة Bronchite وبتحديدها في مكان القرحة بالذات وأنه لم يتمكن من ذلك إلا بوضع أذنه على صدر المريض فوق القرحة نفسها. وبهذه الدقة وهذا الإيضاح قد سبق محمد الصقلي أطباء أروبا والطبيب ليناك Laennec بأربعة قرون في وصف مرض السل عن طريق السمع بالأذن.

الخطمي و عود السوس و بسير من انيسون و ينفع

يشربه لمن الاثرو الحمى المتخرم من الحلبة و الباقلا واللوز

الفصل الخامس في ذات الجنب والرئة والبرسام

والشوصة اما ذات الجنب فهو ورم يعرض في الغشا

المستبطن للاضلاع من الجانبين وذات الرئة ورم

يعرض في الرئة وربما انتقل عن ذات الجنب والبرسام

كل ورم حار يعرض في الصدر و الات النفس و في

الحجاب الحاجز وهي ذات الجنب الحقيقية والسل هو قرحة

للرئة والشوصة ورم في العضل الذي على الاضلاع

في ذات الجنب مادة صفراوية من الغشا ما يقبل سائلا

لطيفا صفائية وقد يحدث عن دم حاد ومادة ذات

الجنب ربما عرضت للبعث كالانتقال الى الرئة كما يعرض

في بعض الورم ... وكما سمي ذات الجنب الحقيقية التي

هي ورم الحجاب الحاجز واذا حدث في العوام ... بدوا

و ... و ... كما يكون في الوبا او يرجع الى

غيره للام المواضع كما يأتي ذكره وسبب ذات الرئة

على ما ... من ... او نزلة من الراس لستحالة ... الرئة

الرئة وسبب البرسام دم او صفرا حار ... سبب

السل قرحة في الرئة فإن ربما نسان اذا جاوز في

النفث اربعين يوما صار مسلولا ... وقد ...

عن قروح الصدر والحجاب اذا انخرق واذا لم ينخرق ...

النص المتعلق بمرض «ذات الجنب والرئة وأعضاء التنفس»
في كتاب محمد الصقلي ـ القرن الرابع عشر ميلادي.

النخام فلذا الفروج لعدم حركتها وقد يعبر هذا المرض صاحبه
سنين لا سيما اذا كان في الرئة جعوب وخشكريشة بغير نضاجة
الغذاء فانظر في ذات الجنب الحمى والنخس في الجنب والسعال في
الابتداء يابس مع ضيق النفس وربما امتد الوجع الى الترقوة
والى دون الشراسيف والنبض منشاري وفي الفرق بين ذات
الجنب وذات الرئة ان ذات الرئة يكون النبض فيه موجيا والنفس
اشد ضيقا واسخن وانقل وجعا وفي الفرق ايضا بين ذات الرئة
وذات الكبد ان الكبد اللون فيه اسود في ذات الكبد مع ثقل الجانب
ريما يقع الفرق ايضا بين الشرسام والبرسام ان التنفس في
الشرسام اسلم واختلاط الذهن اشد وتحريك الاعضاء وبحيث ان
الرعوف فيها خذ لذلك الشرسام وفي علامة السل زمانة المرض
ونتن النفث ونحافة البدن ونتوء الصدغين وضمور المدين
وعود كيفية على سطح البدن وفي علامة الشوصة الحمى ووجع
عظيم ناخس وانجذاب الترقوة وضيق النفس مع السعال
وفي الفرق بين ذات الجنب السليمة من غير السليمة ان السليمة
يبتدى فيها النفث سريعا من غيره وانه نضيجة ملسا والوجع
والحمى والعلامة اعتدال النوم والنفس والبول والبراز وضم هذا في
ذات الجنب الحرفة فان ابتدا النفث في الرابع كان البحران في السابع
او الحادي عشر وافضله الى الرابع عشر وان نفث في الثامن طال
المرض وربما امتد الى الثلاثين والاربعين والستين ويكون لون النفث
على لون الخلط الغالب والعلاج في ذات الجنب ربما بيندا

ذات

وجع

إنتـــاج علمـي

أتيت في فصل سابق على ما امتاز به الطبيب محمد بن عثمان الصقلي في شرح مرض السل وطريقة معرفته وتمييزه عن غيره من أمراض الصدر. وهذا إنتاج آخر جاء في كتابه المختصر الفارسي في الباب الثالث والفصل الثاني في وصف مرض جرب العين والحكة الملازمة له (Trachome) وأثبت المؤلف للمرة الأولى تطور المرض ومراحله وكانت أربعاً. وهذه المراحل الأربع لم يقع إثباتها من طرف الأطباء إلا في منتصف هذا القرن فيكون الفضل لمحمد الصقلي في الأسبقية في تحقيقها وترتيبها بست مائة سنة (600) وهذا نص المقالة[1]:

«ويظهر للعيان وجوده وأولاً في أمراض الجفن الفصل الكافي في أمراض الجفن وأولى في الجرب والحكة في الجفن. والجرب وهو من الأمراض التي تعدي وهي خشونة في باطن الأجفان وأنواعه أربعة السبب رطوبة... مالحة تنصب وتتراكم إلى الجفن إما من دم حاد وإما من خلط آخر حاد يحدث أول حكة ثم يجرب. العلامات: أما النوع الأول فهو خفيف يحمر معه باطن الجفن وعلامته أنك إذا قلبت الجفن ورأيت فيه حباً شبيهاً بالحصف مع قليل دموع وغلظ أجفان وهو أسلم أنواعه. والنوع الثاني أكثر خشونة من الأول مع وجع وثقل ودموع أكثر من النوع الأول، وكلا النوعين يحدثان رطوبة. والنوع الثالث هو أشد خشونة وأصعب وإذا قلبته رأيت فيه مثل شقوق التين وهو الذي يسمى القنني. والنوع الرابع هو مع ذلك صلب شديد الخشونة أقل مادة ويسمى العدسي» وهذه صورة من المخطوط:

---

(1) من مخطوط شخصي. وهذا النص مطابق لنص المخطوطات الموجودة بالمكتبة الوطنية. راجع ص 113 من هذا الكتاب.

وللتهي للعيان جودة وان لم يبلغ الجبن الاحمر الكافي

في ابراز الجبن او لمن هي الجودة والحكة من الجبن والجودة ودم وانه

اما الذي يعرف وهو جنس تختلف قيمته باختلاف الجار وانواعه اربعة

الحبة ركوبه برديئة ملكة ننصب وقد اكثر الاجبن اما من

عادة من يحلوا او عادة بعين او ما حكته ثم بيعه الكاملة اذا اما

الصمغ هذا والجبن خفيف يمس مصباح الجبن وعلى انه لذا

فلنه الجبن بها بينهما فيها باحصب مع قليل موع وغلاء الجار

ونوع اذ ذلك والنوع الثاني اكثر حشر نمسر بها واحد مدع

ونقل ومدع اكثر النوع ...ي وكل اللبن عير مجودة في الجبن

وكذا والنوع الثالث يسمى اثر المقتونة واحد ولذا

فلنه رابه بيه مثل ... والتبن وهو الراجح يسمى ... والنوع

الرابع يسمى للحطب حتى بدا ... وبيسرا العربه

5 ـ أحمد الخميري

هو أبو العباس أحمد بن أبي العباس أحمد الخميري شهر المغازلي، كان طبيباً حاذقاً، ماهراً، ذكياً، لبيباً، تلميذ أشياخه المولوية الصقلية. هكذا وصفه من خط كتابه «تحفة القادم» ونضيف نحن إلى هذه الأوصاف حسن التعبير واختيار التشبيه، وهو كاتب فريد من نوعه متقدم عن زمانه، تفرد في علم واحد: حفظ الصحة وهو العلم الذي نهتم به اليوم ونوليه الأسبقية على العلاج وكل يعلم أفراداً وشعوباً وحكومات «أن الوقاية خير من العلاج».

ويشتمل الكتاب على مقدمة وستة أبواب. ذكر في المقدمة أن الطب ينقسم إلى قسمين: حفظ الصحة ورفع المرض وأن الكتاب لا يتناول إلا حفظ الصحة التي تكون هبة من الله أو باستعمال الضروريات مثل الهواء والحركة والسكون والبدنيات.

إن كثيراً من كتب الطب العربية طرقت هذا الباب ولكن بصفة إجمالية، أما الخميري فقد أحاطه من جميع جوانبه وأعاره عناية خاصة وأخرجه من عموم الطب وأفرده في كتاب خاص، وهو أول كتاب عربي جاء في هذا الفن أهداه إلى أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية. قصد المؤلف من تصنيفه حفظ الصحة ونشر قواعد طبية يتصفحها الفضلاء والرؤساء ليهتدوا بها لما عساه أن يعرض لهم أو لمن في كفالتهم لا سيما إذا أعوزهم وجود طبيب بين ظهرانيهم. ومثله مثل الطبيب أحمد بن الحشا الذي ألف أول قاموس في الطب ويعد من المحدثين المبدعين.

يكتب أحمد الخميري أن الرياضة تنفع النفس والبدن وتقوي الأعضاء وتصلبها وترفع القوة الغريزية ويزيد قائلاً: «ويشهد لصحة الأبدان بالرياضة ما نشاهده من صحة أبدان الفلاحين في نظرنا وحسن ألوانهم، ونظافة أبشارهم، ورونق وجوههم، واكتناز لحومهم، وطيب نكهتهم، وسلامتهم من الأمراض. . . وأقوى رياضة من هؤلاء وأدومهم عليها رجال الجيش المظفر، وأن الراحة

المتطاولة يترتب عليها سوء المزاج، وضعف الحرارة الغريزية، والاستعداد لقبول الأمراض... ويدعم صحة هذا القول ما نشاهده في بلادنا من حال الدعة، ويضرب مثلاً تجار سوق الربع المستظلين بالستاير، المقصورين على دورهم وحوانيتهم تراهم صفر الوجوه، نحال الجسوم، بطيئي الحركة ضعفاء القوة، والمأكل، والمشرب، والنوم، واليقظة، والاستفراغ والتي إذا استعملت حسب الحاجة إليها حفظت الأمور الطبيعية على حالها ودامت بذلك صحة البدن، وإن استعملت على عكس ذلك اختل التوازن والاعتدال وأحدثت المرض. ويشرح المؤلف جميع هذه الضروريات في ستة فصول ويختم الكتاب بنصائح. ويصف أصحاب المهن بالأسواق بشبه المساجين... ويتأكد ذلك عند خروجهم للقاء القادمين من الجيش المظفر: حسان البشرة وافري القوة. ولم تخل بقية الكتاب من الفائدة وبساطة التعبير ويذهب به القلم فيصف أستاذه أحمد الصقلي بجرأة، إنه أشد الناس خلقاً وأكثرهم انحرافاً وأحدهم مزاجاً سريع الغضب... ويستعمل السكون وخفض الجناح على جهة التطبع حتى صار له ذلك مزاجاً... الخ» كل ذلك يدل على دقة الملاحظة وحسن التعبير.

وانتشر كتاب الخميري انتشاراً عظيماً يشهد به عدد المخطوطات بالمكتبات القومية بتونس والقاهرة وفاس ولعله في مكتبات عمومية أخرى ومكتبات خاصة.

تتلمذ الخميري على أحمد الصقلي في مجالس الإقراء بجامع الزيتونة أو في المساجد الأخرى كسائر العلوم ويذكر الأطباء الذين نقل عنهم وهم جلنوس وأبو بكر الرازي وابن الجزار وكل ما زاد كان من بنات أفكاره، مبني على الملاحظة الدقيقة وعلى مكانته العلمية وتضلعه ودقة التعبير.

تحفة القادم

يوجد منه نسخ كثيرة منها بالمكتبة الوطنية رقم 2240 و 18505 و 18048 به نقص و 18556 من مجموع خزانة حسن حسني عبد الوهاب، وكذلك رقم

18509 أهداه إليه أحد علماء المغرب الأقصى وهي نسخة خطها جميل وعنوانها بالحبر الأحمر وهي التي وقع عليها الاعتماد ورقم 1052 ف ـ 1198 بدار الكتب المصرية ـ فرغ المؤلف من وضعها سنة 1827.

أبو عبد الله الدهان

كان أستاذاً في الطب، قرأ عليه القلصادي أرجوزة ابن سينا، وشيئاً من كتاب المنصوري في الطب للرازي، وأرجوزة ابن الرقام على الاسطرلاب. وتوفي سنة 853 هـ/ 1448 م، ودفن بالزلاج خارج باب عليوة. (كتاب رحلة القلصادي، طبع تونس، سنة 1978، صفحة 117).

6 ـ أبو القاسم إبراهيم الأزدي الأنصاري

عرف باللبني القروي:

الظاهر أن هذا الطبيب ولد في قرية لبنة (بفتح اللام والنون) وعاش واشتهر بالقيروان، لذلك عرف باللبني القروي، ازدهر في القرن التاسع هجري والخامس عشر ميلادي من سنة 839/ 1435 إلى سنة 893/1488.

كتاب بدرة الملوك لسيد الملوك

يشتمل على مقدمة وفصلين. الفصل الأول في حفظ الصحة.

يتناول: الأغذية وموادها من أصناف اللحوم وجودتها وما يستحب منها، والبقول وطبخها، والفواكه وأنواعها، واللبن والمياه وأملاحها، والاستحمام بالماء الساخن، وأوقات دخول الحمام وأقسامه، والمكوث فيها، والجماع وآدابه، والأغذية المقوية للباءة.

الفصل الثاني يتناول المفردات الطبية:

يذكرها المؤلف بخصائصها ومفعولها، ويؤكدها في آخر الكتاب بشرح قصيدة للأستاذ الشيخ المراكشي في منافع المفردات من لحوم وبقول وفواكه.

يوجد الكتاب بالمكتبة الوطنية تحت رقم 13312، كتابة تونسية جميلة ملونة 161 ورقة من مجموع خط علي المنزلي سنة 1241.

7 ـ عبد القاهر الشريف التونسي

طبيب له كتاب قيم في حفظ الصحة كتبه للسلطان العثماني أبي يزيد الأول في اسطنبول يوم كان السلطان خارجاً للغزو، أبدى له فيه نصائح يحسن القيام بها مدة غيابه. ولا أدري هل ذهب المؤلف إلى اسطنبول زائراً أو مهاجراً لأن كثيراً من العلماء هاجروا مولين وجوههم الشرق أو اسطنبول يوم حل الإسبان بتونس واستفز سكانها، فرحل إلى اسطنبول ووجد بها العز والإكرام من قبل الفضلاء والأعيان والسلطان نفسه، يذكر المؤلف في مقدمة الكتاب ما يلي:

«... لما حصلت لي هذه الخدمة المباركة... تذكرت يوماً كنت مع بعض الفضلاء والأعيان من أهل مجلس الكريم في صناعة الطب وفي أسباب مرض الطاعون، وقد كان هذا الحادث واقعاً بمدينة القسطنطينية فكتبت من إملائي عليه في ذلك ما فيه مقنع، ثم ذكر لي أن مولانا السلطان تحرك لسفر سعيد... فاستخرت الله أن أضيف بمقامهم العالي كتاباً باختصار... مما صح... من الدواء لذلك الحادث العظيم وقد كنت وضعت لمقام الكريم قبل هذا كناشاً فيه نبذ في صناعة الطب فزادني ذلك عنده شرفاً وأعانني أيده الله بالمال والحرفة...».

الكتاب به جزءان: الجزء الأول في حفظ الصحة وبه فصول 12:

- الرياضة وذم الراحة.
- الحركة الكلية والجزئية.
- الحركة المعتدلة.
- أنواع الحركة.
- استعداد البدن للسعي في المياه، في القيظ والبرد.
- في الغزو والبلاد ـ في الإعياء علاج الأمراض.

ـ الأغذية ـ أنواع الحيوانات البرية.

الجزء الثاني: في أسباب الطاعون وعلاجه والبحوث عنه وأدوية وأدعية. يوجد هذا الكتاب مخطوطاً بمكتبة آية صوفيا ـ اسطنبول ـ من مجموع من 55 إلى 101، كتب سنة 899 هـ/ 1493 م وبمكتبتي فيلم مصغر من الكتاب.

8 ـ هبـــة اللّه

التعريف بـــه:

جاء في كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان لحسين خوجة صفحة 209 من طبعة سنة 1975: إن هبة الله بن أحمد الحنفي هذا تزايد في بلد ميدون من جزيرة الموره، وقدم إلى تونس ووالداهُ وأولادهما لما استولت النصارى على بلادهم، وانكب على طلب العلم، وقرأ على الصوفي ومحمد بن محجوبة... وحسين الحنفي ومحمد والي الحنفي وغيرهم، وحصل عنهم المعقول والمنقول، وكان يقرىء في بيته بالمدرسة اليوسفية الفقه والصرف واللغة التركية والفارسية، وتولى التدريس باليوسفية ثم سار إلى الحج... ومات بعد عودته بالإسكندرية ودفن بها سنة 1119/ 1709. وكان واسع الصدر قليل الكلام، جسيماً، أشيب لا يبالي بما يلبسه[1] وكتب كتاباً ثميناً في الطب أستعرضه هنا.

ألاحظ أن حسين خوجة الذي كان معاصراً لهبة الله لم يذكر مكانة هبة الله في الطب وكتابه. ترجم حسين خوجة لمائة وخمسةٍ وثمانين عالماً وصالحاً ولم تنصرف عنايته إلا إلى علماء الدين وغفل أيضاً عن ذكر محمد الحجيج بصفته مؤلفاً في الطب وسيأتي ذكره، وأستفيد من هذه الخلاصة أن هبة الله من بلد ميدون ونعلم أن ميدون هذه على الساحل الغربي من جزيرة مورة وهي من أكبر جزر اليونان وقد امتلكتها تركيا من سنة 1466 م إلى سنة 1867 وتخلت عنها لحساب جمهورية فنيزية (البندقية) سنة 1687 إلى 1715 ثم رجعت مورة تحت حكم الأتراك من

---

(1) حسين خوجة كتاب الذيل، ط تونس، 1975، ص 119.

جديد من 1715 إلى 1825، كما أستفيد أيضاً أن هبة الله هاجر بعد سنة 1687 بقليل وكان حنفياً على مذهب الأتراك ويحسن التركية والفارسية واليونانية والطب، كما يغلب على ظني أنّه كان كهلاً لما جاء إلى تونس. ومما يلفت النظر وله أهميته أنه أول من ذكر في كتابه وجود مرض الزهري بتونس وعلاجه بالزئبق وكان من الأمراض المنتشرة بأمريكا وأدخله السبنيور إلى أروبا ومنها إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وبلدانها في القرن السادس عشر كما أشار إليه في كتابه، وأشار أيضاً إلى أدوية كانت تستعمل في أروبا ونقلها عن أطبائها وعلمائها وذكر أسماءهم وهو أول من أدخل الطب المعاصر من أروبا إلى تونس. ومن الأطباء الذين يستشهد بهم: ديسكردوس وجالينوس والصقلي وابن الشريف (وأظن أنهما أحمد بن عبد السلام الصقلي الشريف وابنه محمد) وعلماء الكيميا. ومما يثبت أنه احترف وكتب بتونس ذكره «جبل زغوان» على مقربة من العاصمة أين يلتقط الأعشاب فيذكرها بأسمائها التونسية مثل الخرشف ويذكر أطعمة تونسية مثل الهريسة واللبلابي والطبيخة ويذكر أحياناً لفظة نبات بعبارتها التونسية ويكررها بما يرادفها بالعربية أو الفارسية أو التركية ويأتي بمكان التقاطها مثل «الكهرباء»، وهي صمغ شجرة في بلاد النمسا، وبلاد الفلمينك (اسبانيا) ويذكر القلالين وهو من أحياء تونس يصنع فيه الخزف وغفل عن ذكر بقول وغلال كانت موجودة في عصره مثل الجلبانة والبرتقال والليمون ويشير أحياناً إلى دواء ويعلن أنه نقله من كتب الإفرنج فيظن أنه كان يحسن اليونانية وكانت اللغة العلمية آنذاك مع اللاتينية فقد تعلمهما بمسقط رأسه قبل نزوحه إلى تونس ويكتب مراراً قائلاً: في حق دواء أنه من صنع المتقدمين أو من صنع المتأخرين ويأتي برأيه قائلاً: قال الفقير. . .

أقسام الكتاب:

يحتوي الكتاب على مقدمة ومقالات أربعة:

تبحث الأولى في أصول حفظ الصحة بالهواء والأكل والشرب والحركة والنوم واليقظة والاستفراغ والفصد ودخول الحمام.

وتبحث المقالة الثانية في المفردات: البقول والفواكه واللحوم والخمر والأعشاب.

والمقالة الثالثة تبحث في المركبات: الأشربة والمعاجين والحبوب والجوارش والأقراص.

وعلاج الأمراض من الرأس إلى القدم وأسبابها، وهي أمراض: الرأس، والوجه، والفم، والرئة، والقلب، والكلى، والمعدة والأمعاء، والديدان، والحيات، والاستسقاء، والطحال، والمثانة، وأمراض الرحم.

والمقالة الرابعة في الأمراض الشاملة للبدن: الحمى، الطاعون، النفخ الزهري، أمراض البشرة: الكلف، سقوط الشعر، الحرق، الزينة، الكسر الأظافر، علاج السموم، لدغ الحية والعقرب.

الخلاصة:

لا يمتاز هذا الكتاب من حيث الترتيب والمنهاج والمبدأ عن الكتب السابقة إلا أنه أتى ببعض الأدوية الجديدة مأخوذة من كتب الطب (الأوروباوي) كالسقامونية. وهو الذي عرف للمرة الأولى بتونس بمرض جديد وهو الزهري وقد خصصنا له مقالاً بحدته في هذا الكتاب.

مرض القلب عند هبة الله:

القلب أشرف الأعضاء الرئيسية وأول ما يتحرك في البدن وآخر ما يسكن. شكله صنوبري مائل إلى جهة اليسار وهو محط الروح والريح يدفعه في العروق عند انقباضه ويجلبه عند انبساطه.

التعليـق:

أما أمراض القلب وأسبابها: إنه يذكر كل شيء يؤذيه سواء كان من نفسه أو من حجابه أو من الأعضاء المجاورة له أو من البرد والحرارة والحمى أو الخوف أو

تغيير الأمزجة والأخلاط ويظهر ذلك في اختلال الخفقان والنبض والخفقان رعشة القلب وكل مزاج يعالج بضده مثلاً: المرض الناشىء من الحرارة يعالج بالأشياء الباردة (علاج أمراض القلب عن هبة الله).

يوجد من هذا الكتاب مخطوطات منها:

- رقم 16331، أوراق 137 خط تونسي بسيط، التاريخ 1171 هـ، الخطاط أمبارك القلعي آخره انتهى كتاب هبة الله في الطب.

- رقم 9139 العنوان: كتاب هبة الله في الطب - خط جميل ملون أوراق 183، الخطاط محمد عطية من بلد الساحلين سنة 1271 هـ.

- رقم 18171 من غير اسم المؤلف خط بسيط وأغلاط كثيرة كتب في رجب 1225 هـ.

- نسخة رقم 18249 عنوانها: الحكيم الحلبي هبة الله في الطب وهي من مخلفات المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب وقد كتب على الصحيفة الأولى بخطه المعروف: «لعل هذا الكتاب هو المسمى إرشاد لصالح الإنسان للشيخ موفق الدين هبة الله بن جميع - راجع كتاب كشف الظنون - لفظ إرشاد» وهو غلط. ونسخة بمكتبتي من غير عنوان ولا اسم المؤلف ولا الناسخ كتبت سنة 1176 هـ.

- كل هذه النسخ متشابهة في الوضع والألفاظ وكلمة الحنفي نسبة إلى مذهب أبي حنيفة النعمان أبدلت غلطاً بكلمة حلبي نسبة إلى بلد حلب التي لم يكن منها. والمؤلف غير موفق الدين الذي أشار إليه حاجي خليفة في كشف الظنون.

وفدت على تونس من جزيرة موره من المهاجرين أو من أسرى القرصنة عائلات كثيرة منها عائلة المرالي التي اشتهر منها: الشاذلي المرالي الذي اشتغل بالصحافة يوم نشأ الحزب الدستوري التونسي سنة 1920 وحسن المرالي الذي كان رايس سفن الوزير صاحب الطابع ونقل الرخام من إيطاليا لبناء جامع بالحلفاوين وعائلة ابن عبد الله المرالي من أفرادها الشيخ البشير بن عبد الله كاهية شيخ مدينة

تونس العصفوري وأخيه الصادق أمين سوق الترك. وذكر لي ابن هذا الأخير سنة 1950 أن أسرتهم نزحت من موره حوالي 1800 La Morée وهو اسم يشبه الجزيرة التي كانت تدعى سابقاً البلبناز Le Peloponése من بلاد اليونان.

9 ـ محمد الحجيج

الرجل:

من أسرة أندلسية. ولد بتونس وقرأ على أجلة علماء جامع الزيتونة. عرف بجودة العقل ودراية النقل وحسن الخلق. يجله كل من يلقاه ويحبه كل من يراه، أحسن المنقول والمعقول، درس الفقه والحديث والقرآن والعربية والبلاغة والأصول والمنطق وعلم التصوف. جلس للتدريس بجامع الزيتونة في هذه العلوم وتولى الخطابة بجامع الزيتونة البراني. له تآليف كثيرة في علوم الدين وكتب كتاباً في الطب، توفي بمرض السل سنة 1108/ 1679 ودفن بمقبرة سيدي عامر البطاش بنهج سوق البلاط. كان معاصراً لحسين خوجة الذي ترجم له في كتابه «ذيل بشائر أهل الإيمان لفتوحات آل عثمان» ومنه أوردت هذه الترجمة، ذكر حسين خوجة كتبه كلها إلا كتابه في الطب[1].

الكتاب:

يوجد من هذا الكتاب نسخ في المكتبة الوطنية واحدة رقم 5393 وأخرى تحت رقم 5394 وأخرى تحت رقم 13428 وهي التي وقع الاعتماد عليها. بها أوراق 146 حجم 31/20 مسطرة 25، خط تونسي من غير تاريخ ولا اسم الناسخ، والثلاث نسخ متشابهة. لم يتميز الكتاب باسم خاص به وإنما يشير إلى فحواه: «كتاب يشتمل على فوائد من الطب وغيره ذو فوائد أخرى تشير إلى طب

---

(1) إن ترجمة الحجيج التي جاءت في كتاب الذيل تنتهي إلى السطر 4 من صفحة 202، والفقرتان التابعتان تشيران إلى الباي حسين بن علي، فلينتبه القارىء.

القلوب تأليف عبد الله محمد الحجيج التونسي».

جاء في مستهل الكتاب من أين اقتبس محمد الحجيج كتابه قال: «شرعت قبل في اختصار مفردات من تذكرة الشيخ داود الأنطاكي ثم لم يتيسر لي إتمامه... ثم بعد زمان اطلعت على الأصل الذي جمعت عليه هذا المجموع وهو (كتاب) هبة الله الحكيم في صناعة الطب. ثم إن مفرداته غير مرتبة وفيها ما لم يعرف فاختصرته ورتبته وأضفت إليه ما كنت جمعت وزدته فوائد أخرى، أستفيد من هنا أنه لم يكن طبيباً محترفاً ومن مطالعة الكتاب ومقارنته بكتاب هبة الله استفدت أن الفوائد التي ألحقها في كتابه وأشار إليها تخص «أحوال القلب».

وهي من خلق وطباع وأوصاف مما يحمد منها أو يذم كالصبر والقناعة والتقوى والبغضاء ويعني بها الأسباب المعنوية والاستهانة بالفقراء وهو ما أراد أن يعبر عنه بطب القلوب ولم نجده في كتاب هبة الله. إن هذه الأسباب التي أعارها المؤلف أهمية بصفته عالماً دينياً ومتصوفاً أوردها من أصول الدين الإسلامي استناداً إلى تعاليم الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل.

والكتاب يشتمل على: مقدمة وفصول وخاتمة ويتناول الأدوية المفردة والمركبة وأعراض الأمراض وعلاجها مثل سائر كتب الطب من حيث الأسلوب والوضع وهو مختصر من كتابي داود الأنطاكي وهبة الله المعاصر للمؤلف وقد سبق الكلام عنه.

10 ـ يوسف القير

قيل إنه من أصل اسبنيولي وقيل طلياني. ولا نعلم هل ولد بتونس أو نزح إليها حراً أو أسيراً، وفي أي سنة حل، أو أسره القراصنة. وكانت لتونس صولة في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثامن عشر، توطن تونس وتعلم لغتها و «القير» كلمة عبرانية معناها «المرتد». يذكر بيرم الثاني أنه كان نصرانياً واعتنق الدين اليهودي. قال في حقه وكان معاصراً له: «عرفته جيداً وهو الطبيب النحرير يوسف القير، كان نصرانياً وتهود، فخرج من ظلمة ودخل في ظلمة أشد». ولا

نعرف عن حياته شيئاً آخر. ونقل عنه الشيخ بيرم رسالته في «المياه المعدنية» بالمشافهة وكتبها بالعربية مما أستفيد أن يوسف القير اشتهر في الفترة التي تمتد من 1162 إلى 1247 هـ، وهما تاريخا ميلاد الشيخ بيرم ووفاته. واعلم من جهة أخرى أنه كان طبيب علي باي الذي تولى الملك من 1172/ 1759 إلى 1199/ 1783 وأن الشيخ بيرم نقل عنه الرسالة المذكورة سنة 1171/ 1757. والقير كان يحسن العربية ولا يكتبها ويؤلف باللاتينية.

مارس الطب ثمان وأربعين سنة وهو ممن أدخلوا الطب الإفرنجي إلى تونس في القرن الثامن عشر يوم ابتدأت النهضة العلمية في النمو على عهد حسين بن علي باي بعد فترة الركود التي اتصفت بها مدة الاحتلال السبنيولي، وإدارة الدايات، وأنه نقل عن الأطباء الذين سبقوه في تونس خاصة أمثال هبة الله المتوفى 1119/ 1707 إذ أجد في كتاب القير عبارات تشابه في الرسم والمعنى كتاب هبة الله الذي تقدمه في الإقامة والصناعة في تونس.

مؤلفاتــه:

رسالة باللغة اللاتينية في المياه المعدنية لحمام الأنف وقعت الإشارة إليها ولم نعثر عليها. كتاب في الطب لم يضع له اسماً خاصاً وكتبه لابنه. يوجد منه نسخ كثيرة بالمكتبة الوطنية باللغة العربية تحت الأرقام التالية:

- 18438 من ممتلكات حسن حسني عبد الوهاب، بها 46 ورقة.
- 16305 من مجموع من ورقة 1 إلى ورقة 90.
- 16314 من مجموع به رسالة بيرم الثاني في حمام الأنف.
- 5406 كتاب القير ـ كتابة بسيطة.

ـ من مجموع كتب سنة 1239/ 1823 به رسالة الشيخ بيرم في حمام الأنف، ورسالة محمد القوصوني في البواسير وكتاب يوسف القير من ص 25 إلى 180 ورسالة الكينة كينة تأليف حسين خوجة، كتابة جميلة. الناسخ محمود

قهواجي، التاريخ 1248/ 1832 مقياس 20 ـ 145 ـ مسطرة 22 وهي النسخة التي اعتمدتها وتشتمل على مدخل ومقدمة وبابين.

المدخـــل:

يا ولدي، بعد أن خاطبتني في صناعة الطب سنين عديدة وطلبت مني بحقك علي أن أضع لك تأليفاً في الطب مقبولاً عند جميع الناس فيما يسهل وجوده من الأدوية ويكون ثابتاً بعد التجربة الصحيحة التي جربتها بنفسي ثمان وأربعين سنة وجربها أكثر علماء النصارى الكبار مما قدرت على الأخذ منهم، قد أجبت طلبك وأردت أن أجمع لك مجموعاً سهل المأخذ مشتملاً على أدوية سهلة الوجود. مجمع على نفعها لينتفع بها الغني والفقير لنزارة ثمنها إذ قد شاهدت كثيراً من الأمراض الصعبة الطويلة بتونس كأمراض الإسهال وقد عالجناها بهذه الأدوية فحصل الشفاء. . .

المقدمـــة:

الباب الأول: في أسباب الأمراض وهي لا تختلف في شيء عما في كتب الأطباء التونسيين من قبله. تبحث الرسالة في سوء المزاج والامتلاء والأخلاط والهواء والحركة.

الباب الثاني: في الأمراض الطبيعية والكليات والسوداء والاستسقاء وأمراض الكبد والرئة والأمعاء والمعدة والديدان والكلى. يذكر المرض وقليلاً من الأعراض الأكثر وجوداً كالإسهال ويسميه الدسنطريا ونزيف الدم والسعال في أمراض الرئة ويذكر في كل مناسبة العلاج باختصار ويذكر الزهري وعلاجه بالزئبق.

الخلاصـــة:

إن كتاب يوسف القير لا يمتاز على كتب الأطباء السابقين إلا ببعض الأدوية الجديدة، والألفاظ الأعجمية، وسأذكر رسالته في المياه المعدنية في باب حفظ الصحة.

11 ـ أحمــد الدهمانـي

الرجـل:

طبيب من النصف الأول من القرن التاسع عشر، لم نعثر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته. وما نعلمه حسب وثيقة عدلية أراني إياها الشيخ المنصف المستيري صاحب جريدة الإرادة أنه كان بقيد الحياة سنة 1250 هـ/ 1834 م[1]. وكان حنفياً، طلع إلى الحج وتقلد خطة الأمناء في صناعة الطب وكان الأمير يقلدها لمن يرى فيه الكفاءة لإدارة المرستان والمعالجة فيه وامتحان المتطببين ومنحهم الإجازة. وبحث أحمد الدهماني مدة إقامته بالشرق على مستوى الطب هنالك ولم يدل لنا بشيء عنه والظاهر أنه لم يستفد بشيء مما يعلمه من قبل لأنه لم يذكر لنا إلا مختلف أسماء مرض الزهري بالحجاز ومصر. والجدير بالذكر أن أحمد الدهماني كان يعالج هذا المرض بطريقة أنجع وأحسن من غيره بتونس وحتى بفرنسا نفسها في ذلك العصر وسنذكرها في المقالة التي خصصتها لهذا المرض بحدته.

نفائس الدرر فيما يزيل المرض ويحفظ صحة الإنسان

وهو كتاب مفيد قيم يسلينا عن تقهقر الطب وعدم تضلع الأطباء الوطنيين

---

(1) إن الوثيقة المشار إليها التي أدلى بها إلينا المنصف المستيري تتمثل في شهادة عدلين أحدهما محمد الشاهد ولم نتوصل إلى قراءة اسم الثاني كانت بتاريخ 1250 هـ، تثبت وصية بتحبيس عقار من طرف البولكباشي أحمد الدهماني الذي انحصر إرثه في زوجته وأحفاده الأشقاء الفقهاء الشيخ محمد الإمام بجامع القصبة والحاج أحمد أمين الأطباء. والوصية بتاريخ 1191 هـ وكل الظن أن الحاج أحمد كان بقيد الحياة آنذاك حيث لم تذكر وفاته بالرسم المذكور.

جاء في دراسة للمستشرق منيان (Magnin) في «مجلة ابلا[2]»: أن أحمد الدهماني هذا قيرواني، أجل إنه يوجد بالقيروان عائلة «الدهماني» وإنها مالكية وطبيبنا هذا حنفي كما تنبه الوثيقة المشار إليها.

(2) (Ibla) سنة 1937 ص 401 (Magnin).

وصلاحيتهم من يوم انقراض الدولة الحفصية وحلول الإسبان والأتراك بتونس. وقد أهداه إلى الحاج إبراهيم كيخي بن كاوي.

ومن الأدوية التي أشار بها في كتابه:

بكوانة: وتعرف بعروق الذهب. وهي عروق لونها أحمر تباع بسوق البلاط وبكوانة تكفف الإسهال ويستخرج منها مادة كيماوية Emetine للغرض نفسه. قال أحمد الدهماني في حق هذا النبات وقوله مطابق لما جاء في الكتب العصرية:

«بكوانة وتعرف بعروق الذهب. وهو منقي للمعدة. يخرج ما فيها. وينفع من الإسهال لا سيما الصفراوي. وينفع من الدسنطاري المعروفة وينفع من الزحير. وشربته درهم». أي من مسحوق بكوانة. وبكوانة تحريف للاسم اللاتيني للنبات Ipecacuanha.

التعليـق:

يثبت هذا المثل وغيره من الكتاب أن المؤلف كان على علم من الأدوية العصرية وإن لم يكن في مستوى الأطباء الإفرنج في ذلك العصر.

يوجد من هذا الكتاب نسخ بالمكتبة الوطنية بتونس تحت عدد: 16439 و 16444 و 4604 و 19815 و 19820 وكلها مماثلة واعتمدت المخطوطة رقم 16444 لهذه الدراسة وبها 116 صفحة. كتبت سنة 1249 هـ/ من غير اسم الناسخ وهي من مجموع به: رسالة للشيخ الشحمي، ورسالة في الأدوية المفردة للشيخ داود ورسالة للشيخ عبد الرؤوف في الحمام.

تقسيم الكتاب: ينقسم الكتاب إلى مدخل وثلاثة فنون وخاتمة. المدخل: يذكر فيه بعد الحمد لله والإهداء القصد من تأليف الكتاب وبيان أخطاء بعض الأقدمين والتحذير ممن لا خبرة لهم بتراكيب الأدوية التي ليست من أدوية الأقدمين ولا من الإفرنجيين وينكر على من يبالغ في مدح هؤلاء الأطباء.

الفن الأول: في الضروريات والمفردات والمركبات.

الفن الثاني: في الأمراض الخاصة بكل عضو.

الفن الثالث: في الأمراض العامة التي لا تختص بعضو.

الخاتمة: فيما يزيل المرض بالخاصية.

وله ملزومة في مداواة بعض الأمراض توجد في مجموع بالمكتبة الوطنية تحت رقم 7936 طالعها: الحمد لله المغيث بالشفا ثم صلاته على من اصطفا، وبها سبعة عشر بيتاً.

أطباء من الصنف الثاني

أَذْكُرُ في ما يلي جملة من الأطباء أثبت التاريخ وجودهم وأشار أحياناً إلى مؤلفات لهم ضاعت وقد توجد يوماً من الأيام وتثبت بدورها إنتاجاً محموداً. وإن هذه الصفحة جزء من تاريخ الطب التونسي لا سبيل لإلغائها.

محمد بوعصيدة

كان أمين الأطباء بتونس ويحترف بمستشفيات القشل (الثكنات) وكانت بكل قشلة غرفة للتمريض ومواردها وأجرة الطبيب تؤخذ من دخل مستشفيات العاصمة. وخطة الأمين خطة إدارية وقد سبقت الإشارة إليها. وللأمين النظر في سيرة المحترفين وفض الخلافات التي تنشأ بينهم وبين حرفائهم وقمع الغش وإجازة من يحسن الصناعة ويتقنها والسماح له بمزاولتها. ومحمد بوعصيدة هذا من الجالية التركية وربما كان يدعى أيضاً حكيم باشا وعلى الأطباء زيارته زيارة مجاملة عند المناسبات. ومن المعلوم أن امتلاك تونس من قبل الأتراك بعد امتلاك الجزائر وليبيا كان الغرض منه الاستيلاء على البحر الأبيض المتوسط. وقد وقع في بدء الأمر من طرف رايس القرصنة سنان باشا وتلاه الاستيلاء العسكري. وتركيا مثل

كل الأمم المستعمرة وقد سبق لها ذلك في أوروبا والبلاد الإسلامية بآسيا ـ تبعث لتلك البلدان إطاراتها لتثبيت قدمها وتعزيز نفوذها وإن كانوا دون أبناء البلاد ثقافة وكفاءة وتضلعاً للقيام بمهامهم. وهكذا وقع في تونس، فكان النفوذ بيد القاضي التركي الحنفي مثلاً والقاضي الملكي التونسي يجلس دونه ليرشده وكان أعلم منه. ويجلس الأول على مقعد والثاني على الأرض وكذلك في الحفلات الرسمية مثل العيدين فلا غرابة أن محمد بوعصيدة نال خطة طبيب المستشفى العسكري الذي كان بالقشلة، ورتبة الأمين بصفته تركياً، والإجازة الآتية التي سلمها إلى الطبيب حمده بالي إذا لم تدل على كفاءته فإنها تدل على بساطة التعبير والكتابة للأمين بوعصيدة. وهذه الوثيقة نوردها بالحرف الواحد:

الحمد لله صلى الله على سيدنا محمد.

تذكرتنا هاته بيد ولدنا سي حمدة بالي وإننا سرحناه ليخدم صنا[عـ]ة الطب لعلمنا به يخدم بالقشل كمرستا[ن] كغيره والسلام من محمد بو عصيدة الأمين في تاريخ في 8 محرم سنة 1275 والسلام. وفي ظهر الورقة خاتم محمد بو عصيدة ـ في حجم مثمن.

حمـدة بالـي

(2) حمدة بن علي بالي الحنفي. هكذا بشهادة وفاته ممضاة من طرف عدلين سلمها لنا أحد أحفاده السيد عبد السلام الجباس وكان تاريخ وفاته ثاني الجمادين من عام 1301/ 1883 ودفن في جبانة السلسه (حديقة المستشفى الصادقي اليوم). كان صيدلياً طبيباً بالقشل حسب شهادة تخول له هذه الصناعة سلمها إليه أمين الأطباء محمد بوعصيدة بتاريخ 8 محرم سنة 1275/ 1858 وقد أشرت إليها سابقاً.

محمد

الحمد لله صلى الله على سيدنا

نعلمكم [illegible] فما تدبير ولدنا سيدي محمد بالجيد وانتا
سرحناه ليخدم [illegible] أطب [illegible]
[illegible] بالفنشكة [illegible]
والسلام من محمد بوعصيدة الامين في اربعة
في محرم سنة ١٢٧٥
دار السلام



صورة خطية لشهادة سلمها الأمين محمد بوعصيدة سنة 1257هـ/

محمـد الجريـدي

طبيب بشهادة سكان قرية، وبأمر من الصادق باي، وكان عدد الذين شهدوا له بالطب خمسين شخصاً من سكان نفطة بالجريد.

وهذا نموذج من الشهادات التي أعطيت لأطباء بطلب من السكان: في ذي الحجة 1255 أمر أحمد باشا بتسمية محمد بن الحاج فرج بن طالب الهواري فشهد فيه أهل الهوارية بأنه يداوي المرضى وجربوا معرفته.

وهكذا كان في أواخر الدولة الحسينية وإمارة الصادق باي الذي باشر الحكم من سنة 1276/ 1859 إلى 1298/ 1881: انحطت صناعة الطب إلى الحضيض وأعطيت الشهادات لممارسة الطب لمن شاء من طرف طبيب الباي في مقابل.

ومن أسماء الأطباء التي وجدتها إثر قراءة لكتب التاريخ وغيرها ولم أجد لهم كتباً بالمكتبة الوطنية وغيرها: محمد يوسف الطرابلسي وأبو بكر بن القلاس.

محمد العباس المغربي

توفي سنة 1142 تولى تدريس الطب بتونس وألف فيه رسائل كثيرة منها رسالة بجامع الزيتونة في بيان أسماء الأدوية وباللهجة التونسية والمعلوم أن كتب جامع الزيتونة نقلت إلى المكتبة الوطنية.

علـي اللخمـي

طبيب السلطان أبي زكريا الحفصي وكان من بين علماء العصر.

يعقوب بن عمران

الدليل الماهر، سريع الإجابة إلى ما دعي إليه.

الشيخ الفقيه الطبيب أبو الحسن علي بن حسين المراكشي

طبيب أبي زكريا الحفصي له كتاب في حفظ الصحة وعلامة السعادة بالأغذية المعتادة: المشمس الزبيب والتفاح. واعلم أن الحلو في التفاح يزيد في تقوية الأرواح.

أبو جعفر المهداوي وكنيته أبو سيد الناس

له كتاب في الطب والتشريح والحكمة وله كتاب المفرد. الكتاب موجود بالمكتبة الوطنية عدد 277.

الحجار

له كتاب في الطب يذكر فيه المفردات ويصفها: زهرها، لونها، حجم ورقها، طعمها، منبتها، أنواعها، مشابهاتها بغيرها، وفوائدها الطبية ومنفعتها وهي مبوبة على حروف الهجاء.

وكتاب آخر بالمكتبة الوطنية من غير عنوان يذكر المفردات الطبية بالفارسية واليونانية والبربرية والأعجمية. ويذكر فيه كيف طبخه، يذكر إسحاق بن عمران وينتقد ابن جلجل.

محمد الكيلاني

طبيب بأمر من الباي محمد الصادق بالمرستان ويتعاطى النظر في أهل الصناعة كسائر الأطباء أمثاله.

أبو محمد عبد الله مسرور القاضي

له تآليف كثيرة وكان حكيماً يعمل الأدهان ويتصرف في الأعمال اللطيفة وكان يتعاطى صناعة الكيمياء.

أبو زكريا الفاسي

نزيل تونس في ذي الحجة سنة 874 وقد جاوز الخمسين وكان أديباً طبيباً لبيباً (من معجم الأطباء لأحمد عيسى ص 164).

عبـد الدايـم

طبيب تونسي من القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي، دعي إلى اسطنبول لخدمة السلطان بايازيد الثاني، تاريخ ميلاده 851 هـ/ 1447 م، وتاريخ وفاته 918 هـ/ 1512 م.

ألف كتاباً إلى السلطان في حفظ الصحة يوم تأهب السلطان للخروج إلى غزوة من غزواته جاء هذا الكتاب في 96 صفحة من الحجم المتوسط كتابته تونسية بسيطة، يحتوي الكتاب على نصائح: الصداع والحمى والأوجاع والدمل وإلى غير ذلك. والرياضة والحركة المعتدلة والسفر أيام القيظ والأيام الباردة والإعياء الذي يحدث للمسافر وتدبير الطاعون. والمياه وأنواعها ومنافعها. وجدت الكتاب بالمكتبة السليمانية باسطنبول ولم أحتفظ على رقمه فوق الرقّة، ولي منه فيلم مصغر واستخرجت من هذا الفيلم كتاباً.

أبو علي بن زياد الأنصاري

كان ناظراً في الطب لطيفاً حيث توجهه، حسن الكلام لطيف الفكاهة ذكره ابن رشيق في كتابه حياة القيروان ص 229.

أحمد بن صالح الدرعي

مخطوط من مجموع شخصي به أوراق 27، أسطرة 22، خط مغربي، تاريخ كتابته سنة 1130 هـ 1699 م. العنوان: طبايع الأمراض والأغذية وطباعها، والدواء الشافي. يحتوي المواضيع التالية: الأخلاط والفصول والدواء الشافي. الكتاب منظومة بها 907 بيت. مما يدل أن أحمد الدرعي كان طبيباً حقاً.

قال لي الشيخ البشير النيفر الأستاذ بجامع الزيتونة نسخة من هذا الكتاب طبع بالمغرب (فاس) وقد أفادنا نفسه، أن عائلة الدرعي تنسب إلى طريقة صوفية منها الشيخ الناصر مخمد بن الحسين توفي سنة 1129 هـ. وكان بجامع الزيتونة أستاذان أحدهما الشيخ العربي الدرعي وأخوه أحمد الذي أنجب ابنين أحمد ومحمد. وقد أدركتهما وكانا من أصح.[. . .]

أبو عبد الله محمد الشاطبي

هو طبيب تولى القضاء بتونس وببجاية عند المرور في طريق الحج سنة 691 هـ/ 1252 م وتوفي ببجاية.

ابـن الليحانـي

طبيب من مهاجري الأندلس، ذكره برونشفيك.

ابـن الروميـة

وبرع من الأندلسيين في علم النبات ابن الرومية الإشبيلي، وتوفي بهذه البلدة سنة 637/ 1239.

ابن البيطـار

وابن البيطار مرّ بتونس وتبين عشبتها وتعرف على كتاب ابن الجزار وذكر اسم هذا المؤلف في كتابه، وتوفي بدمشق سنة 646/ 1248 م.

أبو حفص عمار البكري الصفاقسي

كان فقيهاً تتلمذ على الصيوري وردّ على الغزالي. كان طبيباً رحل إلى مصر وتوفي بها سنة 505/ 1111 م، (راجع الهادي إدريس 705 ج 2 بكتابه الدولة الزيرية طبع بباريس سنة 1962).

ابـن التبـان

بنر من العلوم، عالماً بالنحو والإسناد والحساب والفلك والطب. وتوفي سنة 371/ 981 م بصفاقس (الهادي إدريس: تاريخ الدولة الزيرية ص 114 و717).

القلصــادي

هو ابن عمر أبو الحسن شهر القلصادي. ولد بمدينة بسطة بالأندلس سنة 815 هـ. درس بها وبتلمسان (الجزائر) والحجاز والمدينة وتونس وتتلمذ في الطب على أبي عبد الله محمد الدهان وأحمد العقلي وكان هذا الأخير ماهراً في العلوم العقلية وأستاذاً في الطب. استقر القلصادي في آخر حياته في مدينة باجة (تونس) حيث تولى التعليم والتأليف. وتوفي سنة 1891 هـ.

رجـب الطبيـب

وفي شوال (أوت) سنة 1233 م وقع في الحاضرة (تونس) طاعون أول من تنبه له الحكيم رجب (من الإفرنج واعتنق الإسلام) ولما أخبر الباي محمود بذلك أمر الباي بضربه وسجنه مثل المجرمين.

محمد السنوسي

هو محمد بن يوسف السنوسي، تعلم الفرائض والفقه والمنطق والحساب على القلصادي وربما تعلم الطب عليه أيضاً وتعلم بدوره الطب على أحمد الصقلي وتوفي القلصادي سنة 891 هـ. ومحمد السنوسي سنة 891 هـ أيضاً. ولهذا الأخير رسالة مشهورة في مرض المعدة اسمها: المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وتوجد الرسالة في المكتبة الوطنية تحت عدد 17966 و 2848 ولي منها نسخة كتابتها جيدة جميلة ملونة جاءت في 7 صفحات و 25 سطراً من الحجم الصغير، أطنب المؤلف فيها القول على أمراض المعدة من كثرة الطعام وتناوله قبل فراغ المعدة، وما يحدث من المرض من جراء ذلك. ويذكر المياه التي نتذوقها ونتعرف على فوائدها. وربما كتب كتابات أخرى لم نعثر عليها.

أبو بكر بن يحيى

له كتاب في الطب الملكي، المكتبة الوطنية، عدد 20327.

محمد بن سليمان التونسي

طبيب وكاتب ورحالة. عرف به بتونس الأستاذ أبو بكر بن يحيى في المجلة الطبية التونسية. ولد بتونس سنة 1207/ 1792 وبها نشأ وتعلم ونزح إلى مصر حيث كان أبواه وانخرط في المدرسة الطبية التي أسسها عزيز مصر محمد علي بالقاهرة وعلم بها الطب وشارك في ترجمة الدروس التي كان يلقيها باللغة الفرنسية أساتذة انتدبهم محمد علي من فرنسا. وشارك في تعريب كتبهم وعقب نصها العربي قبل طبعها والمظنون أنه تعلم اللغة الفرنسية بتونس لأن العاصمة كانت

خلال القرن الثامن عشر محط السفن الأروبية في طريقها إلى الشرق أو الرجوع منه، وكانت السماسرة وأعوان القنصليات يتكلمون اللغات الأجنبية. ومن بينهـا التركية والطليانية والفرنساوية خاصة (راجع كتاب المدينة التونسية) Paris 1898 A Lapie فلا غرابة أن محمد بن سليمان كان قد تعلم اللغة الفرنسية بتونس.

ومن مصر تجول في بلاد السودان المصري وأفريقيا الوسطى وألف «لوحة الذهب وهو معجم في الألفاظ النباتية والطبية والبيطرية الحديثة. مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 4611 به 599 ورقة. وأشرف على ترجمة كتاب الطب الذي ألفه كلوت باي Clot bey وطبع بطنطا سنة 1330/ 11 ـ 9911 ومنه نسخة بالقاهرة وأخرى بمكتبة الحرم بمكة تحت رقم 4243 والرقم الجديد 71 وعنوانه «كنوز الرحلة ويواقيت المحنة».



محمد بن سليمان التونسي

محمد الشريف الحسني الزكراوي

نسبة لجده أبي زكريا العباسي. كان نزيل تونس وبها توفي في ذي الحجة سنة 874 هـ وقد جاوز الخمسين. كان أديباً طبيباً لبيباً. ولي المارستان الحفصي بتونس وكان أمين الأطباء وحضر المجلس الذي ترأسه الأمير المستنصر بالله الحفصي لاختبار الطبيب ابن اندراس الذي حل بتونس قادماً من الأندلس وبجاية، حيث أقرأ العقليات مع مشاركة في الفقه واعتناء بالتاريخ (معجم الأطباء وغيره).

عمر القلشاني

نشأ بباجة تعلم بتونس الفقه والمنطق والمعاني والبيان وقرأ الطب على الشريف الصقلي. توفي سنة 848 هـ ذكره الونشريسي صاحب الوفيات وأحمد بابا.

عبد الله الترجمان

أصله مسيحي من مدينة ميورقة من جزر الأندلس، لجأ إلى تونس وأسلم. قرأ الطب في مدينة لاردة بالأندلس وتولى الترجمة بديوان أبي العباس أحمد وابنه فارس عبد العزيز وتولى الطب بدار السلطان له كتاب «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» طبع في مصر 1895.

محمد بن عيسى الزارديني

من أصحاب ابن عرفة. كان عالماً بالمنطق والبيان والأصول والطب أخذ عنه السخاوي وتولى قضاء الأنكحة مات بتونس سنة 882 (معجم الحكماء، ص 440).

محمد الفاسي

علم الطب بتونس وألف رسائل كثيرة، منها «الرسالة الشهابية في الطب» موجودة ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية رقم 16313، كتبت سنة 1256هـ، من

الورقة 1 إلى 17 من غير اسم الناسخ.

الموضوع:

يشرح المؤلف فيها بعض المفردات الطبية. يذكر أسماءها عند أهل تونس وزمن التقاطها. مثال ذلك:

- **أبهل**: صنف من العرعار وفي كتاب الدنوني هو الطرفة.
- **أبار**: مذكور في التذكرة وفي بعض الهوامش مثله رصاص القلالين.
- **ورد الكلاب**: موجود بغار الملح.
- **جنطيانة**: توجد بمصر وزغوان وعند الصقلي هي البلطة.

توفي محمد الفاسي بتونس سنة 1243/ 1833.

محمد بن محمد المنادي

ابن العشاب القرطبي ثم التونسي، قال ابن الخطيب في حقه: كان فاضلاً سخياً ورد الأندلس بعد سنة 740 هـ، لما نكب أبوه وكان على طريقة من الوقار والديانة وكان يقوم على القرآن تجويداً، ويشارك في الطب ورجع إلى تونس فأقام بها على بعض الأعمال النبيهة وله شعر وسط ومنه قصيدة يخاطب سلطانه، أولها:

لعل عفوك بعد السخط يغشاني   يوماً فينعش قلبي الواله العاني

(الضوء اللامع ص 422).

سارة الحلبية

عرف بها أحد معاصريها من علماء الأندلس صاحب كتاب «أنس العشاق»: مخطوط رقم 835 لنينقراد Leningrad ومجلة الأندلس قال: ومن المتظرفات من أهل زماننا هذا ممن فاقت نساء عصرها سارة الحلبية، وفدت على الأمير المستنصر بالله الحفصي صاحب أفريقية وهو مقيم بقصره المعروف بأبي فهر فسلمت عليه

وأنشدت بين يديه. (نقلاً عن «شهيرات التونسيات» ح.ح. عبد الوهاب ـ تونس).

قاسم بن محمد التونسي

درس الطب بالمرستان المنصوري بالقاهرة. وتولى مشيخة رواق المغاربة وكان شهماً، صعباً في خلقه ـ (من كتاب عجائب الآثار تأليف عبد الرحمان الجبرتي).

ابن قويع

ولد بتونس ورحل إلى دمشق سنة 690/ 1291 وعلم الطب بمرسطان دمشق وكانت وفاته بالقاهرة سنة 736/ 1338 (برنسفك).

يذهب الظن أنه تعلم بتونس ولمع فيه لأنه حل بدمشق وعمره سبع وأربعون سنة.

[أبو] الحجاج يوسف الأندلسي

خدم بالطب الأمير الحفصي أبا العباس أحمد المتولي سنة 772/ 1370.

ابـن التبـان

فقيه ومتضلع في الحساب والفلك والطب ـ عاش خلال القرن العاشر الهجري ذكره الهادي إدريس 2 ص 717.

ابـن العـلا

لا أعرف عن حياته شيئاً. له كتاب في الطب سماه «المجموع على التيسير في المداواة والتدبير» أهداه إلى أبي فارس عبد العزيز. قال في حقه إنه عجلة لصغره.

يحتوي هذا الكتاب على ثمانية وعشرين ورقة منها ثلاث ورقات في خصائص الأعضاء والنباتات التي حققها عن أشهر عشابي الآفاق: الكندي وأحمد

النفطي والتلمساني وابن بيطار وابن عمران والرازي والتيفاشي وغيرهم. وهو منتخب من كتب كثيرة. والكتاب موجود بالمكتبة الوطنية تحت رقم 18556 كتب سنة 827/ 1423.

عيسى الغبريني

جمع بين العلم والعمل. ولي الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة. تعلم الطب على أستاذه ابن عرفة الورغمي تلميذ أحمد الصقلي. توفي سنة 815/ 1414.

أبو القاسم القسنطيني

الإمام العلامة، وجه عصره، قاضي الجماعة، جامع شتات العلوم، أحد تلاميذ الغبريني. ولي (القضاء) عوضاً عن البرزلي إلى أن توفي قتلاً يوم 17 صفر 846/ 1442 إثر صلاة الصبح بجامع الزيتونة. قال الرصاع في حقه: حضرت مجلسه للتفسير... والطب ونحو ذلك... (أحمد بن أبي الضياف، ج 7 ص 62).

محمد بن عرفة الورغمي

شهر الإمام بن عرفة، ولد سنة 710 وتوفي سنة 803 هـ من أئمة الفقه المالكي تولى القضاء بتونس والخطب
ة بجامع الزيتونة، له كتب في الحديث والفقه والمنطق.

قرأ الطب على أحمد الصقلي. يذكره الرصاع في كتابه «الفهرست» ص 160 ط تونس، قال: قد قرأ الطب على الشيخ الفقيه أبي العباس أحمد الصقلي وكان ماهراً بالطب وسمعت منه ومن غيره أنه كان يقول: بلدة لا يسكن بها الصقلي لا تحل السكنى بها لما كان الصقلي يتقن في صناعة الطب وكنت قد مرضت ودخل علي وجلس عند رأسي وسألني بالحال وكان عارفاً بالطب فعلم بالداء ووصف الدواء.

محمد الأنصاري شهر الرصاع (1489/895)

من بيوتات العلم بتونس، حيث نشأ وتفنن في العلم ونال القضاء. قرأ الطب على أبي القاسم القسنطيني (فهرست الرصاع، ط تونس سنة 1967 المكتبة الآثارية).

أحمد التيفاشي

ولد ونشأ بقفصة من عواصم تونس وتثقف بجامع الزيتونة ونال من المعقول والمنقول. رحل إلى القاهرة وقرأ الطب وكتب موسوعة كبيرة في مختلف العلوم وخصص فيها كتاباً للطب سماه «الشفاء» وتوفي بها سنة 651 هـ. (الورقات ح. ح. عبد الوهاب 2 ص 455).

علي بن أبي طالب القيرواني

كان يفسر الأحلام ويدعي الطب، قيل إن أحد خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلاً عجز عنه الأطباء فرأى النبي يوماً في نومه فشكا إليه فقال له: «ادهن بلا وكل بلا تبرأ»، فلم يفهم فسأل علي بن أبي طالب قال: إن النبي يأمرك «أن تدهن بالزيت وتأكل منه»، فكان الأمر كذلك فقيل له من أين لك معرفة ذلك؟ فأجاب: قول الله عز وجل: ﴿من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار﴾ (عن ابن أبي أصيبعة ص 20).

محمد بن أحمد المديوني

له كتاب الخليل في أدوية العليل، مخطوط، (وطنية أوراق 185) يبحث في الروح والكيمياء.

الطبيب ابن عيشون

يذكره برنشفيك في الجزء الأول الصفحة 136 من كتابه «بلاد البربر في العهد الحفصي».

من معجم الأطباء

للمؤلف أحمد عيسى (طبع القاهرة 1942) هذه باقة من الأطباء الذين اشتغلوا بتونس:

محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن يوسف التونسي: ذكره القاضي صاعد.

محمد بن محمد أبو عبدالله الجعفري التونسي: ذكره ابن تغري بردى في المنهل الصافي وأحمد عيسى ص 46.

محمد بن محمد الزلداوي التونسي: ذكره في كتاب نيل الابتهاج لأحمد التنبكتي طبع 1329 هـ مصر، وأحمد عيسى ص 440.

أحمد بن محمد التونسي الدهان

له كتاب في بضع وأربعين صفحة ذكره الضوء اللامع ص 118.

أحمد المغازي

طبيب تونسي نقلاً عن الضوء اللامع للسخاوي (من معجم الأطباء، ص 125).

الشاطبي وأبو الحجاج

من مهاجري الأندلس أبو عبد الله محمد الخرجي الشاطبي، توفي بتونس سنة 1252 م تولى القضاء بها بعدما تولى نفس الوظيفة ببجاية عند مروره بها وأبو الحجاج يوسف وكلاهما يتقدمان في الطب ولم يحدثا مدرسة في الطب.

أمثلة متفرقة

أمراض العينين: من أمراض العينين المشار إليها في كتب الطب التونسي: ضعف البصر والرمد وحكة العينين والبياض الواقع في العين والطرنة والشعيرة والظفر والماء النازل في العين.

جرب العينين: هو خشونة الجفن مع حكة وهو من الأمراض التي تعد (أي كثيرة الوجود) والخشونة تعرض في باطن الجفن وأنواعه أربعة:

الأول: خفيف وعلامته إذا قلبت الجفن رأيت فيه حباً. . . مع قليل دموع.

الثاني: أكثر خشونة من الأول مع وجع وثقل ودموع.

الثالث: أشد خشونة وأصعب، إذا قلبت الجفن رأيت شقوقاً مثل شقوق التين.

الرابع: أشد من المرحلة السابقة وهي علة لا تكاد تبرأ لكثافتها.

آلات طبيـــة

الحقنة: يوضع الدواء في مثانة كبش ويوثق في فمها قصبة رقيقة أو آلة تشبهها من معدن الفضة ويكون وثوقها شديداً محكماً.

المكوى: لم أجد في الطب العربي التونسي ذكراً للكي وكيفيته وطرقه ومواضعه.

المرود: يصنع من الخشب أو من الفضة ليدفع الحجرة إلى المثانة عند حصر البول.

أطباء صفاقس

تذكر المصادر ثلة من الأطباء المحترفين بصفاقس من أبنائها، ومنهم من خلف تآليف، وتعلم كلهم أو جلهم بمصر لقرب بلادهم منها واستقر جمع منهم بها. وهذه أسماؤهم:

1 ـ محمد مغوش

طبيب صفاقسي، مذكور في كتاب «شجرة النور الزكية»، ص 273، وفي كتاب «السراج في الحلل السندسية» المجلد الأول 3 ص 843 طبع تونس 1970.

قرأ بتونس تضلع في المنقول والمعقول، حافظاً متفقهاً نال القضاء في الجيش ثم هاجر إلى الاستانة يوم حل السبنيور بتونس فقربه السلطان وأكرمه ولم يطل مقامه بتركيا، فرجع إلى مصر واجتمع بعلمائها فعظموا درجته العلمية وحج وتوفي بالقاهرة سنة (947/ 1540) وكتب على قبره:

تـوفـي التـونسـي فقلـت بيتـاً ... يهيـج كـل ذي شجـن ويـؤنـس
أتـوحشنـا وتـونـس بطـن أرض ... ولكن مثل ما أوحشت تونس

وجاء في «شذرات الذهب ج 8/270» في حقه هذان البيتان:

ألا يــا مــالــكَ العَلْيــاءِ مــن ... به في الأرض أثمر كلُّ مغرسْ
لئِن أوحشتَ تونس بعد بُعْدِ ... فأنتَ بمصرَ مُلْكِ الحُسْنِ تُؤْنِسْ

له كتاب في الطب بالمكتبة الوطنية رقم 16299 في مجموع من ورقة 193

إلى 271 من غير عنوان سوى التعريف به: كتاب الحاج مغوش في الطب كتب سنة 1150/ 1780 خط مغربي بسيط دون اسم الناسخ وبدون إهداء.

الكتـاب:

يستهل الكتاب بفصل فيما ينفع من الهرم، ثم يتناول أمراض الرأس والصدر والمعدة والكبد والطحال والجوف والأمعاء وضعف الباه والسهر وأوجاع المفاصل والسرطان وأمراض الكلى والرحم والقروح وحرق النار والجدري والكلب والسموم وأمراض النساء والأطفال، ثم يأتي بشرح الأوزان. والكتاب فقير من الوصفيات.

وذكر ابن الجزار في علاج أمراض المعدة.

عمر بن محمد البكري شهر الذهبي

من أهل صفاقس. كان خبيراً بالطب، انتقل إلى مصر واشتغل بها ثم رجع إلى بلاده، حيث توفي سنة 505/ 1111 ذكره (ياقوت ج 5 ص 87).

محمود بن سعيد مقديش

ولد في أواسط القرن الثاني عشر هجري قرأ بالزيتونة والأزهر ورجع إلى صفاقس ودرس بها الفقه والمنطق والحساب والطب، توفي سنة 1228.

حسن الذويب الصفاقسي

تعلم بتونس ثم سافر إلى مصر وأكمل تعليمه وأخذ علم الطب على الشيخ قاسم التونسي طبيب الحضرة السلطانية بمصر ورجع إلى تونس وتطبب بها ثم رجع إلى صفاقس وتوفي بها سنة 1199/ 1784 بمرض الطاعون، وكان شاعراً يغلب عليه الهجاء. ذكره محمود مقديش في تاريخه ص 220.

أبو النصر عدنان بن نصر منصور العين الزربي

له كتاب الكافي في الطب. أوراق 68 به نقص في أوله ووسطه. يبتدىء من

الباب 75 خط تونسي. الكاتب: قاسم محمد الشرفي سنة 893 هـ بالكتاب رطوبة وسوس وإضافات منقولة عن الشريف الصقلي. المخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 19404، ومخطوط آخر رقم 1944 من مكتبة صفاقس، أوراق 39 به رطوبة ونقص.

محمد المصمودي

مدرس. تولى القضاء وصرف عنها من غير موجب ورجع إليها، يحسن الطب وكان مكفوفاً، توفي بالطاعون (عن مقديش ص 221).

محمد كمون

كان يحسن الطب وتولى التدريس. توفي بالطاعون سنة 1199 هـ عن مقديش ص 236.

علي الخراط

كان طبيباً وصيدلياً، له أرجوزة في الصيدلة طالعها:

يقول عبد ربه الغفار مكوّر الليل على النهار

وهي طويلة. وله أيضاً رسائل وكتاب في الطب مفقود. توفي سنة 1114 بصفاقس.

محمد بن محمد السيالة

كتابـــه:

الجواهر النورية في الأدوية الجسمانية والروحية، رقم 20352 بالمكتبة الوطنية، كبير الحجم، كثير التشطيب، الورق 20 من مكتبة صفاقس.

أراد المؤلف أن يبين في هذا الكتاب حقيقة الروح والكيميا والألوان والحوامض والروائح والشم والأطعمة والقهوة وسر الحروف وذكر كثيراً من الدعاء الصالح. هذه الرسالة ينقصها الأساس العلمي ولم أر فائدة في تلخيصها وأقتصر على مقالته (أرجوزته) في الوقاية من الوباء:

«وهكـذا الحكيـم ذو الآراء مـدبـر فـي حيـاة الـوبـاء(؟)
قد قال قولاً صادقاً فيما مضى وكلكم أنكرتم عنه القضا
يقـول إنـي نـاصـح بـالقـول لراغب النجاة من ذا الهول
وقد نظرت الذي في الهواء وجدته صاف عن الأسواء
فاستفرغوا الأخلاط بالتناقي وقـوِّمـوا الأبـدان بـالتـريـاق
واستعملوا الخلول في الخيشوم لكـي يقـاده عنكـم بـالشـوم
ولتجعلوه أيضاً في المراق لم تبلغوا الروح إلى التراقي
وأصلحـوا الهـواء بـالتبخيـر فـإن ذا مـن أحسـن التـدبيـر
بالعود والكليل أيضاً بخروا وكـل إنسـان علـى مـا يقـدر
ولازموا البيوت والمعاصر وأحـرقـوا الثيـاب بـالمقـابـر
هذا هو العلاج في الوباء إن كانت الآفة في الهواء»

الوقاية من العقارب بصفاقس

العقارب تكثر بالجنوب التونسي في الصيف، وقد نص عليها التيجاني في كتابه ص 90. ومن المحسنين من أعد لها أوقافاً لإبادتها بالمدن. وفي صفاقس أناس يعرفون غيرانها فيدخلون فيها سفافد فتخرج ويقتلونها ويجعلونها قلائد يطوفون بها بالأسواق زمن الخريف ويتقاضون من التجار وأهل البر أجراً.

حفظ الصحة

كان للأطباء التونسيين عناية خاصة بحفظ الصحة، ويبذلون في كتبهم الإرشادات والنصائح لهذا الغرض ولم يخل كتاب منها. وألفوا كتباً ودراسات خاصة بهذا الفن، والغاية من هذه الكتب اجتناب الأمراض والوقاية الفعلية منها في مستوى الفرد والمجتمع.

ففي مستوى الشخص يشير الطبيب أحمد الخميري الذي اشتهر خلال القرن الثالث عشر الميلادي:

- بالعيش في الهواء الطلق.
- والرياضة الطبيعية.
- والرياضة النفسانية.
- والأغذية والأشربة المألوفة.
- والنوم الطبيعي.
- وتنقية البدن.

وفي مستوى المجتمع يرتكز حفظ الصحة عامة في تونس على:

المسكن:

بناء المساكن في المدن والقرى بالحجارة وسقفها أقباب أو سطوح. وتطلى الجدران بالجير وهو من المواد المطهرة. ولا تخلو الديار كلها من النوافذ لدخول الشمس، أما في البوادي فكانت الأكواخ.

المـاء:

وهي المادة الحيوية بعد الغذاء والهواء وتتبعها الشمس. وقليل جداً المسكن الذي لم يوجد فيه بئر أو ماجل لجمع ماء المطر أو الاثنين معاً، واجتهد أمراء أفريقية وسلاطينها في بناء المواجل والصهاريج لجمع المياه لصالح الرعية وحاجياتها في القيروان ورقادة وسوسة وصفاقس وتونس. وتولوا إصلاح الحنايا الرومانية لجلب ماء عين زغوان. وكان منها قناة لجامع الزيتونة والمستشفى القريب منه. وفي سبيل البر حفر المحسنون آباراً وبنوا مواجل وقصصان لإرواء العباد، وبنوا أحواضاً لإرواء الدواب. وكان ذلك في جميع العواصم وجميع القرى وقل أن تجد قرية ليس بها حمام الماء الساخن. يذكر البكري في غرة القرن الرابع عشر الميلادي أن عدد حمامات القيروان كانت يوم زيارته لها ثمانية وأربعين حماماً، وبتونس العاصمة خمسة عشر حماماً. ويذكر الشيخ ابن سلامة الذي تولى القضاء سنة 1849 أن عدد الحمامات بتونس أربعون، ويرجع بناء حمام سوق الفلقة القائم الذات اليوم إلى سنة 1423 ميلادي وهو حمام نهج زرقون. ويذكر ديفنتان Des Fontaines الطبيب الفرنسي الذي زار تونس سنة 1724 م أن الحمامات بتونس كانت مريحة وحسنة النظام. ويوجد داخل كل جامع أو مسجد بئر وماجل ومرحاض للطهر. ومن يراجع اهتمام الأغالبة وأمراء الدولة الحفصية بجمع المياه للشرب واهتمام علي باي بتوفيرها للعواصم (تونس ورادس وسيدي أبو سعيد وصفاقس...) ومن يلاحظ اهتمام الأهالي أنفسهم بتوفير الآبار والمواجل بديارهم يدرك أن الاعتناء بتعدد الحمامات وتوفير المياه أكبر مظهر من مظاهر الحضارة.

المعاش:

وفي ميدان المعاش يجدر بالذكر أن الرقابة كانت منظمة ومستمرة على مواد الغذاء من طرف أمناء المعاش لقمع الغش. وكانت متوفرة وأسعارها محددة من طرف شيخ المدينة بالعاصمة والسلط المحلية بالقرى.

مواطن الصحة:

وفي ميدان الصحة العمومية كانت تونس في مقدمة الدول التي أسست مواطن الصحة.

الدمنة:

مقر المجذومين بالقيروان وسوسة وصفاقس وتونس. وكانت خارج المدينة.

المستشفيات:

بالعواصم: بسوسة وصفاقس وتونس.

الكرنتينة:

بموانىء تونس وغار الملح للتحفظ من مرضى الوباء والكوليرا وهما مرضان كثيرا العدوى وسائدان بجهات البحر الأبيض المتوسط الشرقية: الإسكندرية، حيفاء واستنبول خاصة. وكانت الكرنتينات داخل العاصمة بالقلالين وركن القرستون وجزيرة شكلي.

وقد خصصت بحثاً لكل من هذه المواطن:

- المراجع: البكري ص 409.
- تاريخ ابن سلامة.
- التاريخ الباشي ص 310 وبعدها.

الحمامات العادية:

عرفت أفريقية الحمامات منذ العهد الروماني وتكاثرت في المدن والقرى مع انتشار الإسلام. كانت ولا تزال على غرار المثال الروماني، متكونة من ثلاث غرف متدرجة الحرارة، باردة ومتوسطة وسخنة وغرفة رابعة للاستراحة. الجدران من الحجارة، السقف من الآجر المثناة بالحجارة (دمس) لإدخار الحرارة. جاءت

الحمامات لإزالة الأوساخ من البدن ونظافته والطهر قبل الصلوات. أما الحمامات الرومانية فإنها أكبر رحابة وبها غرف أخرى للرياضة البدنية واللهو والأكل. وقد أشرنا سابقاً إلى كثرة الحمامات حسب ما ذكره البكري وغيره.

الحمامات المعدنية:

توجد بتونس حمامات معدنية كثيرة يبلغ عددها خمسة وثلاثين حماماً، ومن أشهرها قربص وحمام الأنف وحمام الجديدي قرب بلد الحمامات والزريبة وجبل الوسط بالقرب من بلد زغوان وحامة قابس وتوزر وحمام سيالة بالقرب من باجة وحامة مطماطة. جاء في رحلة التيجاني (سميت الحامة من الحمة في اللغة هي العين التي بمائها سخانة). وكل هاته العيون ومياهها تحت طلب عموم الناس للطهارة والخلاعة والعلاج. يأتيها المرضى من قريب ومن بعيد وكان للأمراء عناية خاصة بها.

حمام قربص:

حمام قربص على سفح الضفة من خليج تونس، به عيون كثيرة وأملاحها تختلف من حيث الجنس والكم وتتميز بمفعولها الصحي. منها ما ينفع الكبد ومنها ما يزيل أمراض البشرة وكلها سخنة تحصل بها الفائدة في أمراض المفاصل إلا عين أقطر فهي باردة وصالحة للشراب وللحصى في الكلى لأن ماءها يدر البول.

والعيون السخنة سبع: عين الشفاء والصبية والعراقة والفكرون والعتروس والكبيرة وعين كنسيرة التي تبعد عن جميعها بضعة أميال وماؤها صالح لأمراض البشرة وكذلك طينها. وللشاعر المسعودي قصيد رائع بعثه من قربص إلى أصدقائه يصف فيه قربص ومياهها[1].

حمام الانف:

بالقرب من العاصمة، يبعد عنها 16 كلم، به عينان: عين الباي وعين العريان. أحدث بنايتها حسين باي الثاني سنة 1244/ 1828 كتب الوزير السراج في الحلل أن العين

---

(1) ص 244 الآتية.

السخنة المعروفة في القديم بالحمة وتعرف اليوم بحمام الأنف، وماؤها مفرط السخانة، وهي موصوفة بإبراء ذوي العاهات، يطلبون الجلوس على مائها للتداوي وكتب محمد بن حسن بيرم الثاني رسالة شاكراً مياه حمام الأنف ومشيداً بها، وهذا نصها:

الرسالة:

ينقل فيها شيئاً من كتاب يوسف القير في الموضوع نفسه - يقول بيرم الثاني:

«قد اطلعت على رسالة فيه (الكتاب) عجيبة مفردة... لم يسلك طريقها وارد... موضوعة في التدبير في الحمامات السخنة المعدنية في خصوص... حمام الانف ألفها بعض أطباء عصرنا باللغة اللاتينية الأعجمية وهو الطبيب النحرير يوسف القير... فاجتمعت به وعربتها وقدمت عليها مقدمة من كتب أطباء الإسلام في مطلق دخول الحمام في أوراق تسع تناولت قول أطباء الإسلام في فضل دخول الحمام بصفة عامة وشراب المياه المعدنية وذكر المعادن التي تمر عليها ونأخذ منها وهي حسب يوسف القير: الحديد والكبريت وملح الطعام والجير ويذكر سبب سخانتها. ثم يأتي على حمام الأنف خاصة والأملاح الموجودة في مائه ومنافعها شرباً واغتسالاً».

ويختم الرسالة بقوله: «وقع الفراغ من تسويد هذه الصحايف... على يد الفقير لله سبحانه وتعالى محمد بن حسين بيرم كان الله له... لست خلون من شوال من سنة 1171 هـ.

يوجد من هذه الرسالة نسخ كثيرة بالمكتبة الوطنية منفردة أو ضمن مجامع تحت الأرقام: 9760 و 5441 و 18438 و 16314 و 16305 والرسالة 510 ضمن مجموع هي التي اعتمدتها وكان نسخها سنة 1241 هـ.

الأمراض السائدة

نريد بهذه العبارة الأمراض المعدية التي تسود البلاد من حين إلى آخر فتكثر الإصابات وتزرع الموت وتقلل العمران. وأهمها الأمراض الوبائية، ولم يفرق

القدماء بعضها عن بعض ويطلقون على جميعها كلمة «الوباء» أي المبيدة وهي الوباء والكوليرة والحمى التيفوسية والجدري، ولا يصفون إلا الوباء والجدري، ويطلقون على بقية ما سمي وعلى غيرها مثل حمى المستنقعات كلمة «الحمى المحرقة» لأن من أوصاف جميعها الحمى الشديدة. ومن الأمراض المعدية غير الوبائية الحصبة وكانوا يفرقون بينها وبين الجدري ولا يعرفون غيرهما من الأمراض الطافحة التي تظهر على سطح البشرة مثل بوزقار وبوكبوس... ويعرفون الرمد والكلب وقد أمر الإمام سحنون قاضي القيروان (المتوفى 240 هـ) الشرطة بقتل الكلاب التي تجول بطرقات المدينة بالحراب، ويعرفون الجرب ويعالجونه والفرطسَة.

قال الشاعر فيمن أصابه جرب:

قالوا به جرب فقلت لهم قفوا	تلك الندوب مواضع الأبصار
هو روضة والقد غصن ناعم	أرأيتـم غصنـاً بـلا أثمـار

ومن الأمراض السائدة:

الجدري:

مرض كثير العدوى، شديد الوطأة، يذكر ابن عذارى أن المنصور (الصنهاجي تولى سنة 373/982) حين حركته إلى المهدية عرضت له حمى وظهر به جدري فأقام 17 يوماً وتوفي (ابن عذارى ص 263).

الرمد:

كان منتشراً في أنحاء البلاد كلها وبالمواطن الجنوبية خاصة.

الفرطسَة:

وقد أصاب أطباء تونس في علاجها.

الوبــاء:

يطلق هذا الاسم في القديم على أمراض كثيرة خطيرة نعرف اليوم أنها من أثر المكروبات. وكل مرض منها يكونه مكروب خاص به يمتاز عن غيره بشكله وغذائه ونموه. وتنتشر المكروبات من المريض إلى السليم مباشرة أو بواسطة الماء، والبعوض، والقمل وغيرها من الحشرات الطفيلية. والطاعون كلمة أخرى بمعنى الوباء، وهي مشتقة من الطعن وهو الإيقاع بالغير بآلة من آلات الموت. ومن مدلول هاتين الكلمتين أن الوباء يحل بقطر من حين إلى آخر وينشر الموت بسرعة وكثرة تذهب أحياناً بأهل قرية عن آخرهم في فترة قليلة من الزمان. وكان الإخباريون يؤرخون به ويطلقون عليه اسماً علماً. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ابتدأ فصل الأمراض الوبائية عن بعضها بعضاً عند اكتشاف المكروبات بفضل آلة المجهر وأطلق على كل مرض اسم خاص به. وانفردت كلمة الوباء أو الطاعون بالمرض الذي يصيب الغدد اللمفاوية (الولسيس) في العنق والإبط والفخذ فيورمها وتسمى «النقطة» أو «النذيرة» وتتقرح وتسمى «الريشة» إذا سال منها القيح. ومكروب الوباء وقع اكتشافه سنة 1894 يشبه آلة الحياكة المسماة عندنا «النزق». ينتقل المكروب من المريض إلى السليم مباشرة بواسطة نفثات اللعاب إذا حل بالرئة وأحدث بها قروحاً وهو «الوباء الرئوي» أو بواسطة البعوض الذي يمتصه من دم المريض وينقله إلى السليم ويحقنه به. وينتقل المكروب أيضاً من قطر إلى آخر بواسطة اليرابيع التي يسكنها وهي تتكاثر أحياناً في البواخر التي تجد فيها المأوى والمأكل. وتتناسل وتنزل في الموانىء مع البضاعة وتنشر البعوض التي تحملها والمرض إذا كانت مصابة به.

ومن أوصاف الوباء: النقطة والريشة والحمى الشديدة واصفرار اللون والخفقان وبرودة اليدين والرجلين والعدوى. ومن الموانى الملوثة بالمرض عادة الإسكندرية واستنبول. إن طاعون سنة 849/ 1445 ابتدأ في مصر، ومثله سنة 871/ 1486، وآخر سنة 1468/873 اجتاز ليبيا وتونس. ومثله سنة

1493/899. تذكر المصادر وهي كثيرة أن وباء سنة 425/ 1033 أصاب خلقاً كثيراً وتبرعت أم يوسف امرأة المعز سلطان أفريقية بستين ألف كفن (60.000). (الشماخي ص 415). ووباء القشاش نسبة إلى الولي المحسن أبي الغيث القشاش ويدعى أيضاً وباء بوريشة سنة 1605/1015 ذهب يومياً بما يقارب ثلاث مائة نسمة. يذكر كاتب مناقب الشيخ أبي الغيث القشاش أن كثيراً ممن تطلع عليه النذيرة يأتي إلى الشيخ فيسليه بقوله: «ما عندك سوء، طلعت في ناس كثيرة فكهم الله بقدرته... وأنا فيه» قال الكاتب: «دخلت عليه يوماً وهو مصفر اللون ضعيف». وذهب أبو الغيث وأولاده واثنا عشر من خدمته وكانوا من العبيد قد أعتقهم من قبل لتلافي شر المرض وذهب جميعهم ضحية الوباء (مناقب أبي الغيث القشاش مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 12545).

والوباء الذي حل بتونس 1053/ 1643 ودام سبع سنوات سمي باسم حاكم تونس الداي أحمد خوجة وكان به الفناء. ذكره ابن أبي الضياف ج 2 ص 139 وابن أبي دينار ص 211 أيضاً. ووباء الشريف حل بجزيرة جربة سنة 1117/ 1705. ولم تنج تونس من الوباء الخطير الذي أصاب أروبا وبلدان البحر الأبيض المتوسط في القرن الرابع عشر ميلادي ويسمى «الوباء الأسود».

الحمى التيفوسية:

ومن الأمراض التي أطلق عليها الإخباريون اسم الوباء وليست منه: مرض الحمى التيفوسية وتسمى مرض القمل لأن المكروب المتسبب فيه تنقله القملة من المريض إلى السليم ويكثر عادة في سنوات الجدب والمجاعة والبطالة وقلة الملبس وتكدس الناس في غرفة واحدة وتكاثر القمل. فالإصابة التي ذكرها ابن عذارى ج 1 ص 300 بالقيروان كانت على حسب الظن من هذا الصنف من المرض خصوصاً وأنه يذكر: «لما كثر الخصب في سنة 396/ 1005 ارتفع الوباء»، لأن الخصب له علاقة متينة بإزالة الحمى التيفوسية لأنه عامل لتفرق السكان ونظافة الثياب.

حمى المستنقعات:

والوباء الذي أشار إليه صاحب (الحلل السندسية، ج 2 ص 347) الذي يحف بجهة قابس وسببه شجرة الدفلة والمياه الجارية حولها وعفونتها ووخامة مائها، فإنه من نوع حمى المستنقعات وكانت قابس مشهورة بها. ومن نوع حمى المستنقعات أيضاً ما جاء في صحيفة 438 من الكتاب نفسه، أن قرية أجاص (من الجنوب التونسي) ذات مياه كثيرة وبها عين خرارة عذبة غير أنها مستوبأة.

حمى التيفويدية:

ولم يمت لويس التاسع (سان لويز St Louis) الذي حل بقرطاج سنة 1276/669 قرب تونس بمرض الوباء حسب المراجع العربية والأروباوية بل قضى نحبه وكثير من حشمه وعساكره بالحمى التيفويدية. يستفاد ذلك من وصف المرض الذي حرره طبيبه الخاص مات سان لويز على فراش من الرماد لكثرة الإفراط وشرب المياه الملوثة. إن الإفراط من أوصاف الحمى التيفويدية والمياه الملوثة سببها الرئيسي.

الوقاية: تنص جميع الكتب العربية التونسية أن الوباء ناتج عن تعفن الهواء، أو عن تلاقي الكواكب، أو انتقاماً من الله لأمة مذنبة. ومن الأطباء من يعتقد أنه مرض معدي ومن هذه النظرية يركز الوقاية على عزل المريض وأن لا يخرج من بلد إلى آخر أو يدخل السليم بلداً مصاباً، وأن تحرق ثياب الميت ويعجل بدفنه، وتبخر البيوت. ويأمرون بشم الخل لتطهير الهواء قبل حلوله بالجسم. أما المتدينون والأولياء والصالحون المتشبثون بنظرية القضاء والقدر فيشيرون بالتوسل إلى الله والابتهال إليه ليرفع عنهم الكارثة أو يخفف وطأتها على الأقل وعن ذكر شم الخل يقول الشاعر متهكماً:

أراك تشم الخل في زمن الوباء ... وتزعم أن الخل ينفع يا خل
ولكن حكم الله في العبد نافذ ... يموت الفتى حتماً وفي أنفه الخل

الكوليرا:

مرض معدي ووباني، أصله من الهند حيث يوجد طيلة السنة. ولم يظهر في أقطار البحر الأبيض المتوسط إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر يوم تكاثرت الاتصالات والتجارة مع الهند وفتح قنال السويس، ويسمى الريح الأصفر بالحجاز والهيضة بتركيا. يكون هذا المرض مكروب خاص به اكتشفه الطبيب الألماني كوخ Koch سنة 1883 في فضلات المصابين. يعيش في الأمعاء أين يتكاثر ويحدث التهاباً وأقراحاً وإسهالاً مفرطاً وحمى وينتج عن ذلك سحب الماء من الجسم، فيجف ويهزل ويهلك العليل بعد أيام قليلة.

ظهر هذا المرض بتونس للمرة الأولى سنة 1252/ 1836 فأصاب الناس قليلاً. ورجع مرة ثانية سنة (1266/ 1849) فكانت الوطأة أشد وأكبر ومات خلق كثير في اليوم الواحد في العاصمة وفي القرى والبوادي عدّ بالمئات ومنهم جمع كبير من العلماء والفضلاء. وفي وطأة ثالثة سنة (1272/ 1861) وفي رابعة سنة (1286/ 1869) امتدت الكارثة أكثر من سنة، ومات مدتها ما ينيف على (25.000 نسمة) وكان عدد سكان العواصم والبوادي مليون نسمة ونصف مليون تقريباً.

طريقة العدوى:

يسلك المرض وبالأحرى ينتقل المكروب من الشرق الأقصى إلى تونس أحياناً بواسطة الحجيج. ففي مكة والمدينة تجتمع الوفود من جميع أقطار المسلمين ومن بينهم أقطار الشرق الأقصى من الهنود ومن الصينيين فإذا كان من بينهم مصاب تتسرب العدوى إلى التونسيين وربما يصل المرض إلى تونس عند رجوعهم إلى بلادهم وبواسطتهم. وكذلك يتسرب المرض بواسطة غيرهم من المسافرين الذين يحلون بميناء تونس قادمين من الشرق الأقصى أو بواسطة البضاعة التي يجلبونها إذا كانت ملوثة. والملاحظ أن هذا المرض قل وانقطع منذ سنوات

خلت بفضل الوسائل الوقائية الفعالة التي أعدتها السلطة السعودية. وإن كاد العلاج أن يكون مستحيلاً في القديم فإن الوقاية أصبحت اليوم في استطاعة الفرد والجماعة والحكومات. هناك احتياطات كثيرة كان يعمل بها على الصعيد الشخصي والقومي: ففي تونس كانت المراقبة في المواني تأمر بإجبار المراكب القادمة من البلدان الملوثة بالتربص «الكرنتينة» حتى يتبين سلامة الركاب والبضاعة المنقولة. وكانت المرضى تعزل بالحجر الصحية وأعدت تونس الهياكل المتسعة بحي الحفصية (المعامل التي كانت تصنع فيها المدافع) وكذلك بالمخازن المتسعة بحي القلالين، وأعدت فشلة سوق الوزر لليهود لقربها من حارة سكناهم وأعدت الحكومة أطباء لربض المدينة وربض باب سويقة وربض باب الجزيرة وأعانت المصابين مادياً وحرقت الثياب الملوثة، ووقع التعجيل بدفن الموتى، وتبخير البيوت باللبان وزيت العرعار أربع مرات في اليوم، وسكن الناس المرتفعات واحتجب صاحب البلاد (الباي) بباردو أو بقرطاجنة أو بالمحمدية ولا يتصل بالرعية، ويتخاطب مع الوزراء من وراء شرفة. وأنه صدر أمر سنة 1266 بمنع الخروج من البلد الملوث أو الدخول إليه فكان العمل به نسبياً لتعذر منع مرور الأشخاص والقوافل في بلاد متسعة. كل ذلك عند حلول الكوليرا.

عرف بكارثة سنة 1266 هـ الشيخ محمد بيرم الثاني مفتي الحنفية بالعاصمة الذي أصيب فيها بامرأته وخمسة من أبنائه سجلها في كنشة الموجود بالمكتبة الوطنية تحت رقم 18257. وهذه نتف منها أوردها لما جاء فيها من وصف للحالة الاجتماعية بتونس مدة المرض خصوصاً وأن كتب التاريخ فقيرة منها:

أقول وقد مضى أهلي سريعاً ... وما بي بارتجاعهم يدان

فلو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا اختيار مع الزمان

فهذا ما استطعت أقول فيهم ... وهذا في رثائهم كفاني

لعظم قضيتي فيهم ورزئي ... لأكثر لم يطاوعني لساني

وقال:

لما نوت أولادي الخمس بالوباء وأعظم بها من محنة وبلية
ولم أستطع فيهم ولاء أقوله تمثلت قولاً قيل في محنتي
صبرت على فقد أناس وذقتها مرارة صبر فيه تحلو منيتي
فيا مقلتي جودي عليهم بأدمعي ويا كبدي الحرى عليهم تفتتي

وقال في اجتماع العشاء عند المشاورة بالأمير حمودة باشا:

يا سائلاً عن زمرة الأطباء العارفين كيف ضر الأوبية
رئيسهم حميدة الدهماني ليس له في طبه من ثاني
يعدل المزاج والأخلاط فإنه في طبه بقراط
يقول ناصح للناس أن يفعلوا فما عليهم باس
يجتنبوا اللحوم والشراب وكل ما ينشط الأعصاب
ويهجر الجماع والحمام وكل ما يؤثر الأسقام
يحصن البيوت بالأقفال فإنها تزيد في الآجال

وقال واصفاً موقف الأكابر إزاء الكارثة:

قالت جماعة من الأكابر نبخر البيوت بالعنابر
ونطرد القطوط والعصافر كي لا يجيئنا الوباء طائر
لكن ما الحيلة في الفيران لأنها تأتي من الغيران
ونجعل الحراس والدرابزة وبالطريق نحمل العكاكزة
وكل من يقصدنا بالقرب ينالـه عكازنا بالضرب

وقال في شأن القضاة والمفاتي:

وقالت القضاة والمفاتي الأرجح الذهاب للفلاة
ونترك الرخام والنقوش مخافة أن نركب النعوش
فالقول للفرار هو المعتبر وليس فيه قادح ولا ضرر

فتبطل الأعذار والآجالا لا يستمع من واحد مقالا

فيحبس الخصمان تحت الأرض ويمهل الفصل ليوم العرض

ويصف روعة اليهود وحيرتهم بقوله:

وقالت اليهود والربية فإننا نذهب للبرية

ونجعل البوخة في الغذاء فإنها من أنفع الدواء

قالوا فإن يمت من ذا يرفعه قال لهم (الخاقام) يرتبون أربعه

ويأخذ الأجر من الصندوق لأنه من أوجب الحقوق

ويشير إلى نشاط شيخ المدينة وحزمه هكذا:

وقال عفريت من الإنسان رداً على الحكيم والدهمان[1]

فطبكم عندي بطيء فاسد ونصحكم أيضاً ركيك فاسد

أنا الذي أقاتل الجنونا وأصرف الوباء والطاعون

ونسجن المرضى في المخازن ونغسل الأموات في الجبابن

ونحرق أيضاً بها الثياب فإن فيه الأجر والثواب

ونقفل الأبواب والمقاصرة لأن ذا رايته بالقاهرة

ونبطل البيع مع الشراء في كل ما ينسب للوباء

هذا هو الرأي الصحيح الغالب ومن يخالف أمرنا يعاقب

ومن قول البلدية (أعيان العاصمة):

قالت جماعة من البلدية أهل الجسوم الصافية النقية

لنترك شيئاً من العادات فينهك الجسم من القوات

فتذهب النساء عند القاضي ويقع الطلاق بالأغراض

ويوجد بالكناش المذكور قصائد أخرى في وصف موقف الأندلسيين

---

(1) يشير إلى الحكيم وأمين الأطباء أحمد الدهماني.

والجرابة والنصارى ومقالة أهل الفضل والعرفان وفيها دعاء وهي طويلة يلتجىء فيها العالم والأديب إلى القضاء والقدر نذكر منها هذين البيتين:

وقال أهل الفضل والعرفان   نفوض الأمر إلى الرحمان

فهذه عقيدة الأبرار   ومن يخالفها غدا في النار

وللحكيم سيالة الصفاقسي كتابة في هذا الغرض وكذلك للكاتب والأديب محمد قابادو (كنش رقم 1654 بالمكتبة الوطنية) يوم حلت الكوليرا سنة 1266 وفي جميع هذه الكتب وصف للحالة الاجتماعية بتونس وتروع أهل البلاد[1].

التلقيح ضد الجدري:

من مخطوط رقم 1365 بالمكتبة الوطنية لم يذكر فيه اسم المؤلف ولا اسم الناسخ وتاريخ النسخ. كتابة تونسية وهي رسالة يظهر أنها من خط المؤلف نفسه وهو من القرن التاسع عشر. جاءت هذه الرسالة في قالب فتوى أجاب عنها عالم تونسي استدل بالإمام المازري (القرن السادس هـ) والإمام ابن عرفة (القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م) وكلاهما من المذهب المالكي ومفاد الرسالة: «التلقيح ضد الجدري مستحب وواجب، إذ المرض (الذي يكونه التلقيح) لا يؤدي صاحبه إلى الخطر ويتحتم إذا أمر به السلطان فيكون مشروعاً متحتماً». وتشير الرسالة إلى اللقاح أنه: «يؤخذ من بثور تظهر على ثدي البقرة وهو ليس بنجاسة والفقرة 28 من

(1) المراجع: ابن أبي الضياف، ج 4 ص 129، وج 4 ص 128، وج 6 ص 91، وج 9 ص 91.

- ترجمة من اللغة التركية لرسالة في المرض الذي شاع بتونس. حررها وأرسلها أمين أطباء استنبول مخطوط عدد 15847 بالمكتبة الوطنية رقم 1391 وعدد 19823 به ورقات 3 و 19824 به ورقات 4 رقم 1659 كنش المناعي.

- كتاب الباشي، ص 328.

- كنش المناعي، رقم 18176 «تونس الطبية» نوفمبر 1969.

- صفوة الاعتبار، ص 127.

- ورقم 16589 مخطوط بالوطنية.

الأمر العلي المؤرخ في 13 صفر سنة 1296 ـ 3 فيفري 1879 الذي جاء في تأسيس المستشفى الصادقي تنص على وجوب التلقيح للأطفال ضد مرض الجدري في الثلاثة الأشهر الأولى من العمر وعلى آبائهم المسؤولية إذا لم يقوموا بهذا الواجب. ويقع التلقيح بالمستشفى مجاناً للفقراء وفي مقابل أجر عين بعشرة ريالات لذوي اليسر ويسلم الطبيب بطاقة تثبت تلقيح الطفل. ويقع التلقيح بالمستشفى في شهري أفريل وسبتمبر وفي غير هذين الشهرين إذا ظهر المرض بالبلاد. وفي هذه الحالة يقع تبليغ الجمهور بواسطة جريدة الرائد التونسي والمحركين (العمدات)[1] وتشير الرسالة أيضاً إلى:

داء الكلب:

وفي داء الكلب فإن التلقيح لا يجوز لأن الدواء من فم الكلب، وإنه مرض وفيه خطر، وللعلاج فائدة. وقد أشرت آنفاً أن الإمام سحنون قاضي القيروان أمر الشرطة بقتل الكلاب التي تتجول في المدينة.

الكرنتينة:

الكرنتينة كلمة أجنبية أدخلت من اللغة الفرنسية إلى العربية معناها: «أربعون» وتدل على التزام المراكب الملوثة الإقامة مدة أربعين يوماً خارج البلد المزار بأمر من سلطة هذا البلد حتى يتبين أن المسافرين على متنها والبضاعة التي تحملها نقيان من مرض وبائي. وقد تكون مدة الكرنتينة أقل من أربعين يوماً وربما يجبر المركب بالتزام الكرنتينة تنكلاً لغرض سياسي أو مادي. ولكل مركب ورقة تدعى «البتيندة» Patente وهي الجواز الصحي. وتكون البتيندة صافية إذا برح المركب بلاداً نقية من مرض وبائي وبالعكس إذا كانت «ملوثة» وفي هذه الحالة يستظهر المركب بالسنجق الأصفر. ولما فتح قنال السويس للملاحة وتكاثرت المراكب الراجعة من الشرق الأقصى وهي مواطن الأمراض الوبائية وخشيت الحكومات الأروبية انتشار الأوبئة

(1) إن هذا المصل وطريقة هذا التلقيح من اختراع جنار Jenner الطبيب الإنكليزي المتوفى سنة 1823.

في أوطانها وفي مقدمتها إنكلترا وقعت هاته الحكومات سنة 1903 على معاهدة أبرمت بباريس مفادها: إحداث حجر صحية في طريق المراكب الواردة من الشرق الأقصى. نخص بالذكر حجرة «قمران» بالبحر الأحمر أمام ميناء جدة وحجرة «الطور» قبل دخول الباخرة إلى البحر المتوسط وأسندت مسؤولية قمران إلى السلطة الإنكليزية والطور إلى السلطة المصرية. وكان لتونس حجر صحية بميناء غار الملح، وحلق الوادي، وجزيرة شكلي في قنال تونس. ويرجع تأسيس الحجر الصحية إلى القرن السابع عشر.

المجلس الصحي:

وفي سنة (1251/ 1835) لما ظهر مرض الكوليرة في أحد موانىء البحر المتوسط خشي قناصل الأمم الأجنبية المعتمدون بتونس تلوث البلاد، فطلبوا من الباي إحداث مجلس صحي للنظر في اتخاذ الوسائل الوقائية للاحتراز من المرض. فأجاب رغبتهم، وفي 24 من شهر سبتمبر من السنة نفسها أسس المجلس الصحي للنظر في أمر كل مركب يقدم من الخارج. ووقع انتصاب هذا المجلس يوم 24 سبتمبر من السنة نفسها برئاسة قايد (والي) حلق الوادي، وكان نصف أعضاء المجلس من القناصل والنصف الآخر من التونسيين ومن بينهم طبيب الباي.

مرض الزهري أو المرض الإفرنجي:

أجمع المؤرخون أن الزهري دخل أروبا في آخر القرن الخامس عشر، أدخله البحارة الذين رافقوا كرستوف كلنب عند رجوعهم من أمريكا الجنوبية. وكل ما ذكر من القروح قبل هذا التاريخ ليست منه. ولا ذكر لهذا المرض في الكتب التونسية إلا ابتداء من القرن السابع عشر.

كتب الحسن الوزاني (ليون الأفريقي) في الرحلة التي قام بها في شمال أفريقيا سنة 1516 ميلادي أن جمعاً غفيراً من اليهود الذين أطردهم فردناند ملك إسبانيا من بلده حلوا بأفريقية وحل معهم المرض الإفرنجي وانتشر باختلاط بعض الأهالي بنسائهم... ويجزم الإخباريون أن المرض جاء من اسبانيا ويطلق عليه

سكان العاصمة «المرض الفرنسي» وأوقع بكثير من أهالي المملكة.

ولاحظ الطبيب الفرنسي دفنتان Des Fontaines الذي جاء تونس سنة 1724 أن المرض متكاثر بمستشفى العبيد.

يسمى هذا المرض في تونس «الفرانسي» نسبة إلى البلاد التي جاء منها على سبيل التقدير واسم «الكبير» نسبة إلى خطورته. ذكره أطباء كثيرون نخص منهم هبة الله، وذكره الحجيج ويوسف القير ويسميه الحب الإفرنجي، وذكره الدهماني والباجي المسعودي.

وكتاب من غير اسم المؤلف رقم 16443 خط تونسي بسيط أوراق 31 عنوانه «رسالة في المبروكة»، آخر من غير اسم المؤلف رقم 4865 وكتاب به أوراق 24 رقم 18758 من غير اسم المؤلف عنوانه: مفردات طبية أفريقية.

إن أول من عرف بهذا المرض في تونس هبة الله الحنفي قال: «مرض لم يذكره الأطباء المتقدمون في كتبهم لأنه ظهر في آخر القرن الثامن هجري لما بعث ملك إسبانيا عساكره إلى بلاد «يكي دنيا» هكذا كتب ومرادها تلك البلاد البعيدة فضبطوا بعض البلدان هناك واختلط العسكر بأهل تلك البلدة وكان المرض فيها فسرى منهم إلى بلد إسبانيا. ومنها انتشر في جميع البلدان خصوصاً في استنبول ومصر ولذلك سمي مرض الإفرنج. وهذا المرض يسري غالباً بالجماع والاختلاط ويكون ميراثاً عن الآباء والأمهات... ويذكر من أوصافه: الوجع في عظام البدن وخروج الدمل الردي وسقوط الشعر واللحية وحدوث مرض التصفية والأورام في البدن...» وزاد عن هذه الوصفيات كل من الأطباء الحجيج والدهماني والقير وغيرهم ونخص بالذكر الكاتب والمؤرخ الباجي المسعودي الذي أصيب بالمرض وزاد على هذه الوصفيات: أن من أسباب المرض الجماع وأنه معدٍ وتهيؤه التصفية وسقوط الشعر والدمل الردية وأقراح اللهات ويظهر حب مفرطح على البدن ذو قشر لطيف بين الصفرة والسواد مهما أزيل عنه رشح منه مادة رقيقة صديدية وحين يأخذ في البرء يظهر في وسط القرحة وأطرافها ثقب ويبدأ منه الجفاف إلى تمام البرء

ويبقى آثاره إلى نحو الشهرين والثلاثة ووجع العظم يشتد بالليل ويفسدها ويحل بالمفاصل والرأس ويعدم الإبصار بالعين مع سلامة ظاهرها (الكحلي) ويوصي المسعودي بترك الجماع وركوب الخيل ويذكر العلاج عند العامة: مرارة البقري وحمام قربص والعراقي عند اليهود وما يشير به الأطباء من قصد في كل شهر ومسهل لتنقية البدن والحمام وشرب المياه المعدنية وماء المبروكة (السلصبراي) Salsepareille هي عروق شجرة غليظة مثل القلم داخلها بيضاء وخارجها سوداء تغلي وماؤها مدرر!.

العلاج: بالزئبق ينكره هبة الله لخطورته ويحبذه الدهماني إذا عمل منه دهن بمثابة ثلث من الزئبق وثلثين من شحم الدجاج يدلك بجزء منه المفاصل أو يعطى أقراص تصنع بدقيق المبروكة والأفيون مع الاحتراز في تناولها.

التعليق: لم يمتز أطباء الإفرنج في القرنين الثامن والتاسع عشر بوصف هذا المرض على أطباء تونس، بل يمتاز الدهماني بصناعة دهن الزئبق وبكيفية استعماله خاصة على زملائه بأروبا وهو أنجح دواء إلى مستهل القرن العشرين ولم يلغ إلى ظهور البنسلين سنة 1942.

السيلان:

يذكره ابن الجزار وجميع الأطباء ضمن أمراض القضيب. ويحشره أطباء القرون الأخيرة ضمن مرض الزهري وأنه وصف من أوصافه، ومظهر من مظاهره وتسميه عامة الناس «التصفية» وكذلك بعض الأطباء ويظنون أنها مادة تسيل من القضيب وخروجها خير من بقائها وعلاجها بالأدوية المدررة للبول.

عسر البول:

إن كان عسر البول ناتجاً عن حصاة في القضيب يدفع بالمرود إلى المثانة، والمرود من الخشب أو من معدن الفضة.

المستشفيات بتونس

المستشفيات هياكل أو قصور لإيواء المرضى قصد العلاج تشيدها الملوك والحكومات وتخصص لها من بيت المال أو خزينة الدولة أو من أوقاف مؤبدة ريعاً ينفق منه على المرضى من لباس ومآكل وأدوية وعلى الأطباء والخدمة القائمين بأعمالها.

إن العرب لم تؤسس المستشفيات في الجاهلية والمظنون أنها وجدت لأول مرة ببغداد في عهد عضد الدولة البويهي في العهد العباسي.

الشكل الهندسي

لم يبق من آثار الدمنة بالقيروان أو بسوسة ما يمكن الاستفادة منه عن الشكل الهندسي لهذه المنظمة. المظنون أنها كانت على رسم الدور المألوفة بالقيروان أعني: سقيفة وصحن وغرف حوله، وخصصت غرفة منها للصلاة. أما ما بقي من المرستان الحفصي فيشير إلى مدخل: سقيفة بها غرفة ربما أعدت للحارس وصحن وغرف حوله وعلّية بها غرف أيضاً. وجاء مستشفى العزافين على هذا الشكل. ولا تمتاز جميعها بنقوش وزخرفة.

أما مستشفى القرسطون فقد أقيم بثكنة سوق الوزر. قد كان على شكل المستشفى الصادقي والمكتبة الوطنية اليوم، يشتمل على مدخل ضخم وسقيفة وصحن متسع وطابق به بيوت كثيرة.

يذكر ابن أبي أصيبعة أن عضد الدولة دعا الطبيب الفارسي أبا بكر الرازي

وطلب منه أن يختار مكاناً صالحاً لبناء مرستان ببغداد، فأجاب الرازي دعوة الأمير وعلق قطعاً من لحم في مختلف أنحاء المدينة وعاينها يومياً وعين لبناء المرستان الموضع الذي لم ينتن فيه اللحم إلا مؤخراً مستفيداً من ذلك طيب الهواء، والمرستان أو البيمرستان كلمة فارسية معناها المستشفى.

الدمنــة

ومـن المـرستـانـات مـا هـي مخصصـة لإيـواء المجـذومـيـن وتسمـى «دار المجذومين» يقيمون بها ولا يخرجون منها خيفة انتشار المرض، ومعلوم أن الجذام مرض مشهور بالعدوى من قديم العصور، سجل وجوده بالهند والصين ومصر قبل الإسلام ويعرفه اليونان والعرب وفيه جاء المثل «فروا من المجذوم فراركم من الأسد» ذلك أن المرض مشوه يبشع الوجه ويجدع أصابع المرء ويقعده عن العمل.

أما بأفريقية فإنه لم يبلغ لعلمنا أن مرستاناً وجد في العهد البربري الفنيقي أو الروماني وحتى في القرن الأول من الفتح العربي. وأن أقدم المصادر التي تشير لدار المجذومين بالقيروان يرجع وجودها إلى القرن الثاني للهجرة.

جاء في معالم الإيمان[1] والمدارك[2] وح.ح. عبد الوهاب وغيرها من المصادر ـ وهي تنقل بعضها عن بعض ـ أن أبا عمرو هشام[3] بن سرور التميمي «كان يذهب إلى دار المجذومين بالدمنة في (عيد) الفطر، و (عيد) الأضحى، ويجعلهم صفوفاً ويطعمهم بيده ويفلي خروقهم ويدهن رؤوسهم وتوفي سنة 307). يشير بذلك إلى أنه يتقرب إلى الله بجبر خاطرهم ولو أدى به ذلك إلى العدوى.

(1) معالم الإيمان، ط تونس 1320 ج 11 ص 235.

(2) المدارك مخطوط ج 11 الورقة 135.

(3) الورقات، ط تونس 1965 ج 1 ص 273.

والدمنة توجد خارج المدن ـ جاء في معالم الإيمان أن أبا عبد الله السوسي كان عظيم القدر كبير الشأن خرج من القيروان فسكن الدمنة[1] والدمنة بالقيروان خارج السور وبالقرب من تربة أبي زمعة البلوي[2] وهو حي من أحياء القيروان توجد فيه الدمنة، أطلقت عليه هذه الكلمة، فكان يوجد به مسجدان مسجد السبت ومسجد الخميس يقرأ فيهما القرآن والرقائق ويسكن فيهما الزهاد العباد[3].

وفي الحاوي للبرزلي[4]: وهٰذه البقعة بالقيروان تسمى الدمنة ويسمى مسجدها مسجد الدمنة ومسجد السبت، وأحفظ عن ابن شرف في كتابه المذيل على ابن الرقيق أن هذا كان معروفاً بالمبتلين، يسكنه أهل العاهات، به ماجل يسمى ماجل المجذومين (و) بعد خراب القيروان (قال) ثم كثر الناس فيه ثم عمارتهم حتى سكنه أهل الدنيا لكونه مسرحاً لا يؤدي باعثه ظلماً، فلما كان زمن فتنة العرب فهو أول ما خرب لكونه خارجاً عن البلد وهو اليوم بقرب تربة أبي زمعة البلوي.

وأطلق صاحب المدارك على معنى الدمنة في ذكر يحيى بن عمر الكناني وأنه (أي يحيى بن عمر) ألّف كتاباً في النهي عن حضور مسجد السبت ـ كلمة ـ ربض العتلنين[5]، وفي المخطوط عدد 18620 من الكتاب نفسه[6] أبدلت الكلمة بعبارة «ربض المفلس»[7].

والجذام تسمى باليونانية Lèpre ـ Lepros ـ قشور ـ وهي من أوصاف المرض، فقد تعددت الألفاظ والمعنى واحد.

---

(1) معالم الإيمان، ج 11، ص 169.
(2) معالم الإيمان، ج 11، ص 118.
(3) معالم الإيمان، ج 11، ص 115.
(4) المعيار.
(5) المدارك، ج 11 الورقة 135. وقع هنا تحريف من الناسخ إذ كتب عتلنيق عوض عتلنين ومعناه الذين يبارحون مكانهم (البستان ص 1516).
(6) المدارك عدد 18620 ج 11 الورقة 10.
(7) اسم مفعول أي من كان بجلده لمع تشبه فلوس السمكة أو من لم يبق بيده فلس (المنجد).

ومما يؤكد ما جاء في كلمة الدمنة بمعنى حي الجذماء أو دار المجذومين الفتوى الآتية للفقيه الونشريسي[1]: «سئل الونشريسي عن دمنة في بعض نواحي أفريقية وبها أرض تسمى «الأحباس» يسكنها أصحاب ـ هل يثبت تحبيس هذا الموضع؟ فأجاب: هذه البقعة المسماة بهذا الاسم كان بها [المصابون] بالجذام، وإذا كثر عددهم ليكونوا بناحية لا يضرون بالناس فهم أحق بها وما كان من وقف فإليهم يقصد».

ومن الملاحظ أن الدمنة لم يأت ذكرها في المصادر إلا بمناسبة زيارة أمير أو محسن أو فتوى، ولا نعلم شيئاً عن إدارتها ونظمها وتأسيسها.

إزاء دمنة القيروان وجدت مؤسسات مثلها بالمدن الأخرى بتونس.

جاء في محاسن الإيمان[2] نقلاً عن البكري في ذكر جلولاء قال: «أنشأ أهلها ـ أي أهل القيروان ـ بموضع حصن جلولاء الرياض الأنيقة المسماة بسردانية[3] جميع أنواع الشجر، حتى كان فيها من النارنج ما يزيد على ألف أصل، وكان بها ربض على حدة، لسكنى أهل العاهات والأمراض لا تؤدّي باعته ولا ما يدخل إليه ظلماً من مكس أو غيره لكونه مسرَّحاً من ذلك رفقاً بمن يسكنه من المبتلين ويسمى ذلك الربض بالدمنة»، وبضواحي سوسة يذكر البكري[4]: «أن دمنة الدوميس كانت خارجة عن المدينة بموضع يسمى وادي الدمنة».

وبالمصدر نفسه[5] إن ربض المرضى بتونس (العاصمة) خارج عن المدينة وذلك في عهد بني الأغلب.

---

(1) المعيار ج 7 ص 26، ط حجرية 1316 هـ.

(2) محاسن الإيمان ـ محمد النيفر ـ ط تونس.

(3) قرية تبعد 18 كيلومتراً عن القيروان وتعرف في القديم بسردانية.

(4) البكري، المسالك ص 45 ط الجزائر 1911. الدوميس قرية بالقرب من سوسة على طريق القيروان.

(5) ص 40.

يتجلى بوضوح من كل هذه التحقيقات أن «ربض المرضى» أو «حي الدمنة» و «الدمنة» كانت لسكنى أهل العاهات بمعنى المجذومين وكانت خارج المدن لاجتناب العدوى وحفظ صحة السكان.

ذهب المؤرخ الشهير حسن حسني عبد الوهاب أن الدمنة بالقيروان هي المستشفى نفسه ودار المجذومين بداخله وقسم من أقسامه[1] حيث أن المصادر لم تذكر أين كان هذا المرستان وكيف كان رسمه وترتيبه، ويذهب أكثر من ذلك فيتخيل هذا الرسم ويصفه كما يلي:

«ومما تجمع من الاطلاعات والبحث يتبين أن الدمنة كانت بشكل مربع، يدخل إليها من باب واحد يفتح على سقيفة طويلة... ويحف بجانب السقيفة غرفتان يسكنهما حارس... وفي آخر السقيفة باب يفضي إلى صحن متسع غير مسقف، يحيط بجوانب الصحن ثلاثة أو أربعة أروقة (مجنبات) معقودة السقوف ومن ورائها عدة حجرات لإيواء المرضى، ومن جهة أحد الأروقة باب مستقل يدخل منه إلى الدمنة... دار الجذماء» ويصف دمنة سوسة بأنها «على غرار مرستان القيروان، على شكله ونظامه وترتيبه»[2].

إن هذا الرسم هو رسم مستشفى عزيزة عثمانة اليوم بالحاضرة من غير الطابق الأول، وسأعود إليه، ولم أجد في كل ما قرأته من كتب القدماء ما يشير إلى وجود مرستان بالقيروان وبالأحرى على رسم مثل هذا أو غيره، ويشق علي، بالتالي، أن أذهب مذهب ح.ح. عبد الوهاب.

عثرت أخيراً على خريطة مسح القيروان وناحية منها[3] قام بصنعها الجيش الفرنسي إثر احتلاله لتونس، فوجدت بها غربي البلد أرضاً ملاصقة لجبانة سيدي عرفة وتربة العواني تدعى المرستان وأفادني عميد أسرة

---

(1) مجلة «الفكر» سنة 1958. الورقات ج 1 ص 273 وما بعدها.

(2) الورقات ج 11 ص 47.

(3) Service topographique de l'armée carte Série p. 757, famile LXIII- Kairouan 2e édition IGNF Juin 1951.

العواني[1] أنه كان يوجد على الأرض المذكورة مرستان للأمراض العقلية في القديم وأن هذه الأرض كانت من أملاكهم فأعلمت بذلك معهد الآثار لإجراء التحقيقات والحفريات اللازمة، وعلى كل حال فإن باب البحث لا يزال مفتوحاً.

حيلة طريفة:

توجه تجار من تلمسان إلى فاس وخافوا على أموالهم من قطاع الطريق وضعوها في زنابيل على حمير مع أدباشهم وكساء عتيقة واشتروا شحماً وطحالاً وكلما مروا بطائفة من الأعراب دهنوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم بالشحم وذروا عليها من الطحال المجفف والمسحوق وأوهموا العربان بأنهم مجذومون. فيضعون لهم الطعام على شافة الطريق ويبتعدون منهم (عبد الباسط ورقة 110).

المستشفى الحفصي

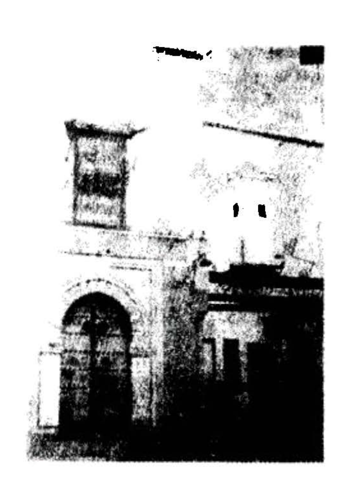
البحث عن هذا المستشفى له قصة أوردها للعبرة.

قرأت سنة 1944 في عدد من «النهضة الأدبية» وهي ملحق لجريدة «النهضة» وكانت تصدر في حجم صغير مرة في الأسبوع بتونس: «إن هذا المستشفى كان بنهج النفافتة[2] بالعاصمة وكان الطبيب الصقلي يطبب به»، فذهبت إلى المكان وسألت شيوخه هل سبق في علمهم أن مرستاناً وجد بحيهم؟ فوجدتهم في جهل تام من المسألة، فظننت أن آثاره قد اندثرت كلها، على أن ما جاء في جريدة «النهضة» جدير بالاهتمام لما لصاحب المقالة من خبرة في التاريخ وإن لم يذكر موارده.

---

(1) أسرة العواني استوطنت القيروان منذ القرن الثاني للهجرة.

(2) كان الحفصيون يسكنون حي باب الأقواس حيث يوجد نهج النفافتة.



المستشفى الحفصي نهج
الديوان



المستشفى الصادقي الذي
أصبح فيما بعد مستشفى
عزيزة عثمانية

وفي مجلة «المباحث» التي كانت تصدر بتونس قرأت مقالة سنة 1947 عنوانها: «البيمرستانات في الإسلام» جاء في آخرها ما يلي: «إن المستشفى الحفصي كان بالقرب من ضريح سيدي محرز[1] بالعاصمة ويرجع تأسيسه إلى القرن الثامن هجري، ذكره الزركشي»، فراجعت كتاب الزركشي فلم أجد به ذكراً للمكان المشار إليه[2].

وفي السنة نفسها صدر كتاب باللغة الفرنسية عنوانه «بلاد البربر الشرقية» جاء فيه: «أن أبا فارس أسس مرستاناً مثل مرستانات الشرق لإيواء المرضى والعجَّز من المسلمين. وأضاف: أظن أن المستشفى الذي أسس في القرن السابع عشر ميلادي (يشير إلى المستشفى الذي أقامه حمودة باشا المرادي) هو تجديد مستشفى القرون الوسطى (أي الحفصي)».

اتسعت شقة الخلاف وجاء الظن بعد اليقين ولم أظفر بنتيجة. وفي يوم من الأيام جاء إلى قاعة المطالعة بالمكتبة الوطنية السيد عبد المجيد السبعي وهو رجل مولع بمطالعة التاريخ التونسي ونسخ كتبه بيده، فسألته هل له علم بموضوع المستشفى الحفصي بالعاصمة وقصصت عليه ما وصل إليه البحث. ففكر قليلاً وطلب المخطوط عدد 10642 وهو الكتاب الثاني من الحلل السندسية في الأخبار التونسية للسراج[3] ووضع إصبعه على السطر الثاني من الورقة 29 ب ومد إليّ الكتاب فقرأت: «إن طبال باشا جمع الأسلحة تحت يده وكان الديوان (ديوان عسكر الترك)[4] آنذاك بالقصبة كما قدمنا بمكان هو اليوم دار البارود وأما دار

(1) توجد بالقرب من ضريح سيدي محرز مقبرة أمراء الدولة الحفصية.

(2) الزركشي «تاريخ الدولتين» ص 33، ط تونس.

(3) السراج/ ك 1، ج 4 ص 1075، طبع الكتاب الأول في أربعة أجزاء بتحقيق محمد الحبيب الهيلة ولم يزل الكتاب الثاني مخطوطاً.

(4) ديوان الترك هو هيئة ضباط عساكر الترك وكلهم من الإنكشارية. وله النظر في تسمية الباشا وهو حاكم مدينة تونس. وكانت دار الباشا أي مقر الحكم والسكنى بنهج الباشا ومكانها المدرسة الثانوية للبنات حالياً. وبداخل بناية الديوان قبر سيدي بقطاش، وبقطاش هذا =

الديوان بزماننا هذا فإنها كانت المرستان». . .

يظهر أن التقهقر السياسي والانحطاط الاجتماعي والعجز المالي وبصيغة أخرى أن الحالة السياسية التي آلت إليها الدولة الحفصية في آخر عهدها كانت سبباً في غلق أبواب المرستان، وإنهاء مأموريته، وأصبح شاغراً خالياً من المرضى والأطباء فاتخذه ديوان عساكر الترك مقراً لاجتماعاتهم.

ودار الديوان المشار إليها هي المحل الموجود اليوم بنهج الديوان رقم 3 والذي أصبح فيما بعد المحكمة الشرعية وبقي ملتصقاً بها اسم «الديوان» وكان ذلك سنة 1273 هـ/ 1856 م. والمشير حمودة باشا الحسيني هو الذي أقر فيه المجلس الشرعي وترأس بنفسه أول جلسة للحكم[1] فبانت الحقيقة وارتفع الالتباس.

جاء ذكر المرستان الحفصي للمرة الأولى في تاريخ الدولتين للزركشي ص 116 عند التعريف بأبي فارس عبد العزيز الذي تولى الملك من سنة 796 إلى سنة 837 هـ (1374 ـ 1433 م) ما يلي:

«إن من حسناته إحداث المرستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقافاً تقوم به» ولم يذكر المكان الذي أنشىء فيه هذا المرستان وعدد غرفه ونظمه. ونقل عن الزركشي، الوزير السراج، وحسن حسني عبد الوهاب. وجاء في إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف، ج 1، ص 187: «إن من مآثر أبي عمرو عثمان بن المنصور السبالة شرقي القصبة، ومنها

= سمي داياً في معسكر باجة سنة 1098 هـ/ 1686 م خلفاً عن أحمد شلبي وتوفي سنة 1099. ذكره روسو.

والراجح أن التابوت الموجود هنالك لا يغطي قبراً، ولا يحتوي على شيء إنما هو رمز للولي الصالح (؟) بقطاش دفين استنبول والذي يعتبره عساكر الإنكشارية شيخاً لهم ويتوسلون ويحلفون به. وبقطاش الباشا المذكور دفن بمقبرة الإنكشارية بالقصبة على حسب الظن وحلت مكان هذه المقبرة التكية المعروفة.

(1) ابن أبي الضياف ـ ج 4، ص 220.

سبالة قرب المارستان ومعروف أن أبا عمرو عثمان بن أبي فارس عبد العزيز تولى أمر البلاد من سنة 839 إلى سنة 893 (1435 ـ 1488)[1] وغفل عن ذكر المرستان الشماع وابن أبي دينار.

ولا نعلم شيئاً عن إدارة هذا المستشفى وأنظمته الفنية وموارده وعدد المرضى التي تؤمه إلا ما جاء في كتاب أحمد عيسى[2]: معجم الأطباء. يشير إلى هذا المصدر ص 461: «إن محمد الشريف الحسني الزكراوي نزيل تونس وبها توفي سنة 74 هـ. قد جاوز الخمسين وكان طبيباً أديباً ولي المرستان بتونس وأقرأ العقليات مع مشاركة في اللغة» ونعلم من جهة أخرى أن القرن التاسع الهجري ازدان بعدد من الأطباء العباقرة قد خلدت مصنفاتهم أسماءهم، أخص بالذكر:

ـ أحمد عبد السلام الصقلي، صاحب كتابين في الطب وكتاب في حفظ الصحة.

ـ ومحمد الصقلي وله تأليف قيم في الطب «المختصر الفارسي».

ـ وأحمد الخميري وله كتاب في حفظ الصحة ليس له وزن.

ـ وأحمد بن الحشا وضع كتاباً «قاموس» في تفسير المفردات الطبية.

وكل هذه الكتب أهديت إلى سلاطين الدولة الحفصية مثل المستنصر بالله وأبي فارس عبد العزيز وهي موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس وبكثير من المكتبات الخاصة والأجنبية وقد سبق الحديث عنها.

---

(1) إن السبالة شرقي القصبة التي أشار لها ابن أبي الضياف من إنشاء المستنصر بالله الثاني الذي تولى سنة (683 هـ)، وليست من إنشاء أبي عمرو عثمان بن المنصور. أشار إليها العبدري في رحلته عند ذهابه إلى المشرق سنة 688 هـ، أو عند رجوعه سنة 691 هـ. لما ذكر مدينة تونس قائلاً: «أما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رشحاً يسيراً سرب إلى ساقية جامع الزيتونة، يتسرب منها في أنابيب من رصاص وهي السبالة يسقى منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ويكثر عليها الازدحام». العبدري مخطوط تونس عدد 15952، وط. الرباط 1956.

(2) معجم الأطباء، ط. مصر 1942.

فلا شك ولا ريب أن هؤلاء النفر من الأطباء قد باشروا بالمرستان الحفصي واكتسبوا بفضله الخبرة في المداواة والتأليف.

الظاهر أن مرستان العزافين الذي سيأتي ذكره[1] هو أيضاً من منشآت الدولة الحفصية. تشير بذلك عبارة الوزير السراج في الحال السندسية مخطوط 10642، ج 1، ص 51: عند ذكر مآثر حمودة باشا المرادي وإنشائه مرستان العزافين. جاء في هذه الوثيقة ما يلي: «وهو اليوم بيد أميرنا هذا كأنه كما وضع بل أجمل من حالته الأولى بحيث دام بقاؤه أمر بإحيائه وإصلاحه غاية وإحياء أوقافه. أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب» وهو الأمر الذي أدخل الالتباس في ذهن المؤرخ برانشفيك، اللهم إلا إذا كان مرستان العزافين من مؤسسات الترك قبل ولاية حمودة باشا فيكون من حسنات يوسف داي الذي أنشأ بتونس العاصمة جامعاً ومدرسة للطلبة وحصوناً وأسواقاً وجسوراً وأصلح الحنايا لجلب ماء زغوان.

بقيت لنا مسألتان:

الأولى: هل كان لهذا المرستان عمر طويل وأصل فيه الغرض الذي أسس من أجله؟.

يظهر فيما تقدم أن أبوابه فتحت لمعالجة الفقراء مجاناً كما هو شأن المستشفيات في عصرنا هذا وفي كل العصور مدة تفوق مائة وأربعين سنة أي من إمارة أبي فارس عبد العزيز إلى السنوات الأخيرة للدولة الحفصية يوم تدهورت الأحوال وسادت الفوضى وانعدمت مداخيل الدولة.

المسألة الثانية: هل كان هذا المستشفى فريداً من نوعه أم أوجد غيره في تلك المدة أو قبلها؟.

من الممكن أن المستنصر بالله الأول الذي ترأس سنة 647 هـ أسس مرستاناً، نحن نعلم أن الحضارة التونسية بلغت في أيامه أوجاً لم يسبق له مثيل في

(1) راجع مجلّة «الفكر» عدد 1، سنة 19 (أكتوبر 1973).

تاريخ تونس وأنه كان مولعاً بالعلوم وقد خفّ إلى دولته ودولة أبيه أبي زكريا من قبله علماء أجلاء وأطباء عباقرة من الأندلس. ويذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية: «أن المستنصر ترأس مجلس اختبار الطبيب أبو القاسم محمد الأموي الحاذق الفاضل المعروف بابن اندراس من أهل مرسية ورد على بجاية سنة 660 هـ. وبسط لقراءة الطب والعربية... قرأت عليه أرجوزة ابن سينا قراءة إتقان وجودة وكان يحضر نبهاء الأطباء وتجري في ذلك الأبحاث ما يعجز الكبد عنه، يحضر فيه الطبيب أبو بكر بن القلاس... ورحل إلى حاضرة أفريقيا بطلب من أميرها المستنصر بعد أن سمع به وعرف خبره فحضر مجلسه وسأل (ابن اندراس) فأجاب ووافق طريق الصواب وانتظم في سلك أطبائه وكان من جملة جلسائه الخ...». فلا غرابة أن أمير أفريقيا هذا أسس المرستان هو بنفسه. ومما يدعم هذا الافتراض وثيقة أخرى جاءت في قول الزركشي ص 33 وهي: «وفي هذه السنة أي 648 بنيت الساقية شرقي جامع الزيتونة» فإن كانت هذه الساقية هي التي تصل إلى السبالة قرب المرستان التي أشار إليها ابن أبي الضياف وكان الغرض منها إفادة هذه المؤسسة فإن مرستاناً قد وجد قبل أبي فارس عبد العزيز بـ 150 سنة تقريباً.

الخلاصة: أنه كان لأمراء الدولة الحفصية من أول عهدهم إلى آخره اعتناء بالصحة العمومية. فأسسوا لذلك مستشفيات لمعالجة الفقراء الغرباء وإيواء العجز وتعليم الطب، وظهر في مدتهم أطباء لم تزل مؤلفاتهم تشهد بنبوغهم وعبقريتهم».

مستشفى العزافين

جاء في الحلل السندسية أن «من أثر حمودة باشا... إنشاء المرستان بسوق العزافين[1] وأعده للمرضى والغرباء وفيه عدة بيوت في أسفله وأعلاه وجعل له

(1) سمي كذلك لأنه كان محط اجتماع العزافين الذين ينقرون الدفوف وغيرها من آلات الطرب.

أوقافاً تقوم به من كساء وأدوية وطبيب يصلح شؤون المرضى وخدمة بين أيديهم».

إن بناية هذا المرستان لم تزل قائمة الذات وهي بنهج القصبة عدد 101 بين نهج العزافين وسوق النحاس وتحتوي على أربع وعشرين غرفة اثنتي عشرة منها أرضية ومثلها في الطابق الأول.

أسسه الباي محمد حمودة باشا المرادي سنة 1073 هـ/ 1662 م لإيواء وعلاج عساكر البر والبحر من المجاهدين ثم تحول بطبيعة الحال إلى علاج عامة الناس وخاصة الفقراء منهم يوم أبطلت القرصنة[1] وتمهدت سبل البلاد واستتب الأمن على يد الحسينيين، وبعد استيلاء السبنيور وإخماد الثورات والحروب الملكية، وكان يسمى غلطاً مارستان عزيزة عثمانة.

ذكره السراج[2] وابن أبي الضياف[3] ومقديش[4] وابن أبي دينار[5] وحسن حسني عبد الوهاب[6] وأطنب في التعريف به محمد بن الخوجة الذي أدلى في المجلة الزيتونية بنص كامل لوثيقة التحبيس وكانت بتوقيع العدلين أبي عبدالله

---

(1) كانت القرصنة في البحر الأبيض المتوسط حرباً خفية وغير مباشرة بين البلدان الإسلامية تركيا وتونس وطرابلس والجزائر والمغرب من جهة، وبلدان النصارى من جهة أخرى. وكان الغرض منها الغنيمة من بيع الأدباش وفداء الأسرى وهما موردان هامان لصندوق الدولة وعنصره الرئيسي سنوات الفتن والحروب الداخلية خاصة مدة علي باشا الأول.

وفي مؤتمر آكس لا شابال Conférence d'Aix la Chapelle اتفقت الدول الأوروبية على مقاومة القرصنة، وبلغ الأمر إلى الباي فنصلا إنكلترا وفرنسا ولم يقع الاتفاق بينهم إلا سنة 1239 هـ/ 1823 م، فقدمت مراكب إنكلترا لتونس وتسلمت أسرى النصارى كلها. راجع تاريخ ابن سلامة ورقة 56 (Les annales de Rousseau, Paris, 1864).

(2) الحلل السندسية، ج 2 ورقة 50 مخطوط 10642.

(3) إتحاف أهل الزمان، ج 2 ص 37 طبع 1969.

(4) مخطوط 220 ورقة 66.

(5) المونس، ص 215 طبع تونس 1350.

(6) تاريخ تونس، ص 168 طبع 1960، وأسنده غلطاً في كتابه شهيرات التونسيات ص 89 طبع 1932 إلى عزيزة عثمانة وكذلك نقل عنه السيد الصادق الزمرلي في كتابه.

محمد المحرزي وعبد الله تاجي بتاريخ أوسط ربيع الأول سنة 1073 هـ/ 1663 م جاء في هذه الوثيقة أن محمد حمودة باشا صاحب كرسي تونس أسس هذا المرستان وأشرف بنفسه على تحرير وثيقة التحبيس المشار إليها ووضع عليها ختمه[1].

وتعين الوثيقة مكان المرستان وحدوده والأوقاف التي اختصه بها المحبس وهي ستة وعشرون عقاراً منها ما هو بالعاصمة ومنها ما هو ببلدان الكاف وزغوان وبنزرت وباجة وتتمثل في حمامات وفنادق وطاحونة وحوانيت وديار وكان ذلك بحضور السيد موسى الأندلسي الذي عينه الباي ليكون ناظراً على المرستان والأوقاف معاً والتزم بذلك.

وتنص الوثيقة أيضاً على التعليمات والجزئيات الآتية:

يأوي المرستان المرضى والجرحى من المجاهدين في البر والبحر والفقراء الذين ليس لهم من يقوم بهم ولا مسكن لهم بمدينة تونس.

ومن شفي منهم وأخبر الطبيب بذلك فعلى الناظر أن يخرجه ولا فرق بين عربي أو تركي أو أعجمي. ويصرف الفاضل من دخل الريع بعد إصلاحه حتى يبقى قائماً على أصوله على القوت والدواء وأجرة الأطباء والمعاونين والخدمة والفراش والغطاء والحصر والمضارب والسفاسر والوزرات[2] شتاء والملاحف من الكتاب صيفاً.

وللطبيب حانوت بجانب المرستان يجلس فيه، وأجرته أربع خبزات وثمانية ناصرية[3] في اليوم، وللناظر أربع خبزات وستة ناصرية. وللطباخ خبزتان وخمسة ناصرية. ولوكيل النفقة خبزتان وأربعة ناصرية. والبواب يتعهد الحراسة والنظافة وغسل الثياب له ثمانية ناصرية وأربع خبزات. وكل خبزة بناصري في زمن الرخاء

---

(1) المجلة الزيتونية أكتوبر 1939، لم أقف على هذه الوثيقة بنفسي واعتمدت على تحقيق محمد بن الخوجة وقد اشتهر بالثقة لأن وثائق مصلحة الأوقاف ليست اليوم تحت الطلب.

(2) نسيج من الصوف للغطاء، مفردها وزرة.

(3) وهي أجرة المدرس في ذلك الوقت «محمد بن الخوجة».

والشدة وكل مريض توفى فإن إدارة المرستان تتولى كفنه ودفنه.

جاء في كتاب مقديش عند ذكر محاسن حسين بن علي أن من محاسنه «إحياؤه للمدرسة الطبية بالطبيين من تونس قرب جامع الزيتونة» (مخطوط عدد 220 ورقة عدد 66 المكتبة الوطنية).

يستفاد من ذلك أن مستشفى العزافين الذي هو شرقي جامع الزيتونة وبالقرب منه كان في مدة حسين بن علي باي وقبلها مدرسة لتعليم الطب.

ولما أحدثت القشل «التكنات» ـ كان ذلك سنة 1802/1217) خصصت في كل منها غرفة أو أكثر للتمريض وأخذت نفقتها من دخل المستشفيات، نستفيد ذلك من وثيقتين اثنتين:

الأولى من مجموعة شخصية من تحرير وختم (طابع) أمين الأطباء بتونس محمد بو عصيدة، هذا نصها بالحرف الواحد:

«تذكرتنا هته بيد ولدنا حمدة بالي[1] لعلمنا به يخدم بالقشل لكم سنا كغيره والسلام من محمد بو عصيدة الأمين في تاريخ في محرم سنة 1275 والسلام». وهي تدل على وجود أطباء بالقشل من جهة وعلى مدى ثقافة أمين الأطباء في اللغة العربية من جهة أخرى خصوصاً وأن محمد بوعصيدة من أصل تركي.

والوثيقة الثانية تشير إلى أن نفقة مرستانات القشل تؤخذ من دخل أوقاف مرستان الحاضرة حسب إرادة المحبس الذي أعد المستشفى لعلاج العساكر وهي: «الحمد لله تقييد حساب دراهم دفعها الموقر الوجيه الأمير الاي العربي زروق وكيل مرستان الحاضرة من دخل وقف ما ذكر لمصاريف بمرستانات القشل العسكرية لثمن مونة المرضى وثمن أدوية لهم وتجهيز الموتى منهم في المدة السابقة تحريراً في غرة قعدة سنة 32600/1286 عسكر التريس، 494 الطبجية»[2].

---

(1) حمدة بالي هو جد المنجي بالي مؤسس الكشافة الذي تمثاله أمام محطة الرتل. توفي حمدة بالي سنة 1302 هـ/ 1883 م، وكان حنفياً تركياً.

(2) Archives générales du gouvernement tunisien. Dossier 700/6- Carton 92- Armoire 6.

وهناك وثيقة أخرى بتاريخ سنة 1271 هـ/ 1859 م تنص على مرتب محتسب المرستان وهو السيد مصطفى بيرم ومقداره ألف ريال شهرياً يؤخذ من فواضل دخل الحبس وكذلك مرتب وكيل الوقف السيد علي زيد وقدره خمس مائة ريال[1].

سبقت الإشارة إلى أن العلاج كان بيد أمين الأطباء، هنالك وثيقة أخرى تشير إلى طبيب ثان مساعد.

أما مداخيل الوقف فليس لدينا اليوم ما يمكننا بالضبط من الإشارة إلى أهميتها إلا وثائق قليلة ومتقطعة فقد بلغت سنتي 1230 و 1231 هـ والثلاثة الأشهر الأولى من 1232 ما قدره (10333) ريالات.

بينما كان جزء من المخروج (18186) ريالات ذلك مما يدل على عجز مقداره (7853) ريالات[2].

وأخيراً، لما تكاثر سكان العاصمة وضاق نطاق مستشفى العزافين وقع تعويضه بالمستشفى الصادقي سنة 1296 فكانت مدته 223 سنة[3].

مستشفى القرسطون

أسسه علي باي الثاني الذي ساس البلاد من سنة 1172/ 1759 إلى 1199/ 1783 بالعاصمة بمكان يدعى في القديم (ركن قرسطون)[4] وهو بأعلى سوق

(1) رسائل ابن أبي الضياف، ط تونس، ص 42.
(2) الملف عدد 6/700 المشار إليه أعلاه.
(3) وتحول المحل بعد ذلك إلى مقر الشرطة المركزية بالحاضرة ثم إلى نزل صفاقس وهو الآن معرض لبيع الزرابي.
(4) القرسطون كلمة أعجمية لم تذكرها قواميس اللغة العربية إلا «كتاب اللغة العربية كائن حي» طبع مصر ص 35 لجرجي زيدان. جاء فيه أن كلمة القرسطون مشتقة من اليونانية على حسب الظن ولم يذكر لها معنى وتطلق كلمة قرسطون في اللغة اليونانية على الميزان الذي كان يستعمله العالم اليوناني أرخميدس (Archimède) وهو القبان عند العرب (La balance romaine) وكانت تستعمل لوزن العملة من الفضة والنحاس. (ملحق القاموس للمستشرق (Dozy) دوزي، ج 2، ص 327 بالمكتبة الوطنية). =

الوزر بنهج جامع الزيتونة ونهج القصبة. عرف بهذا الموضع الشيخ محمد ماضور الذي حقق كتاب «الباشي» لمؤلفه الحاج حمودة بن عبد العزيز عند شرح هاته الكلمة التي جاءت في قصيدة للورغي ص 319. وأثبته البحث على عين المكان الذي يوجد به نهج الزياتين. وبرقم (43) من هذا النهج مسجد يدعى «مسجد القرسطون» قد طمست معالمه الظاهرة وأصبح داراً للسكنى. وأكد لي السيد محمد القسطلي القاطن بالقرب من المسجد بأن لديه رسماً عقارياً بركن القرسطون وهو المكان نفسه ونجد وصفاً لهذا الحي وللمرسطان في كتاب «المنضد في أخبار الباشا محمد» للشيخ محمد بن سلامة (وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية عدد 18668 ورقة 30) جاءت فيه الإشارة إلى الحي والمستشفى كما يلي:

«القـــرسطـــون حـــومـــة مشهـــورة[1]، بهـــا خـــان[2] يعـــرف

= ودار السكة كانت بحومة القرسطون وتدعى أيضاً ركن القرسطون يشرف عليها السيد محمد القسطلي بمكان دار القسطلي اليوم نهج سوق الوزر عدد 45 أفادنا بذلك أحد أحفاد السيد محمد بن الشاذلي القسطلي وقد ذكر لنا أيضاً أنه شاهد يهوديين كانا يأتيان يومياً إلى الدار لعيار النقود النحاسية (الفلوس) ـ وجاء في إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي ضياف (ج 8 ص 48) أن السيد محمد القسطلي المتوفى سنة 1257/ 1841، من أشراف الأندلس وأعيان بيوتها ولبيته «ولاية دار السكة والأمانة على سك النقدين وعيارهما».

(1) حومة القرسطون لا شك أنها كانت مشهورة في القديم. هناك كلمة تصف بها العامة الرجل من أعيان البلاد وهي: «فلان ولد القبة والقرسطون» يشيرون بذلك إلى حي سيدي القبة وهي حي تربة الباي اليوم وبه كانت ولا تزال بيوتات العلماء والوزراء كالجلولي والبنا والنيفر وبيرم وغيرهم. وسيدي القبة مسجد صغير بنهج تربة الباي عدد 41 واسمه في الحقيقة مسجد القبيبة بالتصغير وهو الكتّاب الذي تعلم فيه القرآن عبد الرحمان بن خلدون وكان بالقرب من بيته (استفدنا ذلك من السيد مصطفى زبيس) وكذلك كان يسكن بحي القرسطون كثير من الوجهاء نخص بالذكر منهم حسونة بن محمود الجلولي قايد صفاقس والحاج حسن التومي من أشراف الأندلسيين ومحمود آغا شقيق الداي ومحمد القسطلي من أشراف الأندلس وكان والياً على دار السكة وسك النقود وعيارها، ومحمد بن عياد من رجال الدولة. وأحمد بن أبي الضياف وأخته يملكان عقاراً هناك ـ تحققنا كل ذلك من رسوم التملك المسجلة بحي القرسطون الموجودة بإدارة الأملاك العقارية.

(2) خان كلمة فارسية بمعنى محل متسع ينزل فيه المسافرون الكثيرون وتدل على مكان متسع =

بالمرستان[1] معد لمداواة المرضى من الفقراء وسجن المجانين، عليه أوقاف وهو رحمة للمسلمين، به المآكل الطيبة والغطاء والوطاء، وأمين الأطباء[2] منتصب به بأتباعه للمداواة مجاناً لهم، وبأجرة من ذلك الوقف، ولكل من به خبزتان في كل يوم طيبتان وأربع أواق من الأرز المطبوخ بالسمن[3]، والزيت للوقد ليلاً، ولكل من به ما يكفيه من الزيت واللحم في كل يوم اثنين وخميس مع تنظيف المحل وخدمة من به من المرضى والرفق بهم ومداواتهم وهو من أحسن أفعال الخيرات

= لإيواء المرضى، ولم يذكر المؤلف عدد غرفه وعدد المرضى الذين به أو يترددون عليه يومياً لطلب العلاج وكذلك أسماء العقار الموقف عليه ومداخيله السنوية حتى نتبين أهميتها خصوصاً وأن العلاج كان مجاناً.

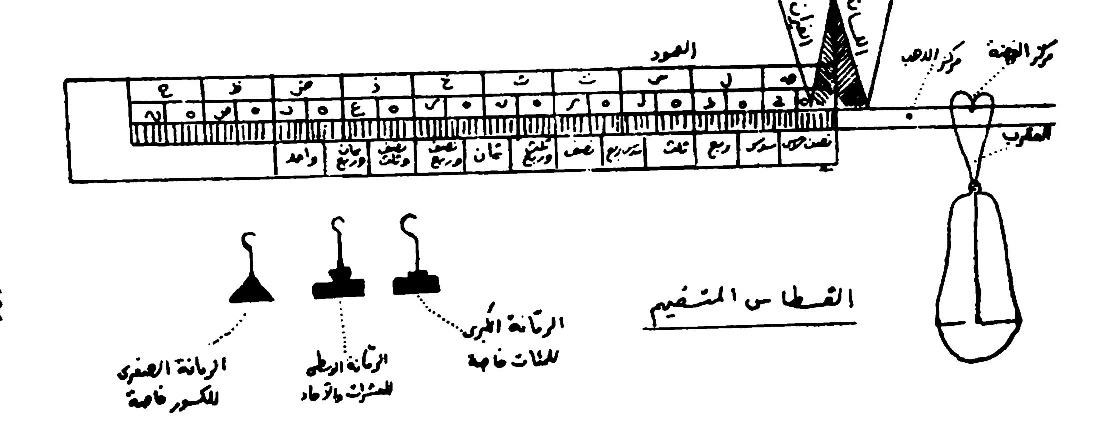
(1) المرستان مكان معد للمداواة وحفظ المجانين. يرجع تأسيس المستشفيات في الإسلام وكانت من قبل تدعى المرستانات إلى القرن الأول الهجري ببلاد الري بفارس، ثم ببغداد في خلافة المأمون وكان العلاج فيها مجاناً للفقراء وبها قسم لحفظ المجانين وكذلك بأروبا إلى القرن التاسع عشر مع الملاحظة أنها ظهرت في الإسلام كهياكل حكومية. وكانت في أول الأمر بأروبا وبفرنسا خاصة مؤسسات رهبانية خيرية لإيواء العجز والمجانين وعابري السبيل. وهكذا كان بتونس ملجأ للبعثات المسيحية تشرف عليه هيئة الكبسان تحت رعاية قنصل فرنسا يرجع إنشاؤه إلى ما قبل سنة 1219/ 1804، وهو كائن بالقرب من فندق الفرنسيس وبه كنيسة لإقامة الطقوس ويديره ستة رهبان وبلغت مشاركة فرنسا في تلك السنة تسعمائة فرنك ثم نقل إلى مكان ضخم واسع أما موقعه فلم نهتد بالضبط إليه. وكل الظن أنه حل مكان قشلة سوق الوزر التي أسسها حمودة باشا واندثرت اليوم وحل مكانها المسجد الحبيبي وروضة تلامذة مدرسة نهج سيدي صابر عدد 14 للبنات.

(2) أمين الأطباء: نجد للمرة الأولى في هذه الخطة عند الأطباء بتونس وهي موكلة في غالب الوقت بعاتق أشهر الأطباء بالعاصمة وأمهرهم صناعة كسائر أمناء الحرف الأخرى.

(3) يظهر أن غذاء المرضى اليومي من الناحيتين الكم والكيف حسن. ونطلق عليها اسم «القطعية» نجد هذه الكلمة في أغنية من أغاني السجون في العهد الحسيني وهي:

«اللي عنده مال تأتيه الرجالة من عند الدولة الطماعة، يبيعوا ويشروا بالاف واللي ما عنده مال هبط معروض في القطعية. معروض أحمر كيف شفت قلبي تقهر. حبسوني في حبس الدم. عساسه تقفل واتحل».

والمعروض هو نسخة الحكم بطابع الباي لأن الأحكام كانت تصدر باسم الباي لا باسم الشعب كما هو الآن.



عن كتاب تاريخ الطب والصيدلية عند العرب

جاءت هذه الكلمة في الباب الثاني من كتاب أبي حامد الغزالي (القسطاس المستقيم) في القول في الميزان الأكبر من موازين التعادل ومعناها ميزان الدراهم وهي كلمة يونانية.

ويه يغسل الرجال الأموات ويكفنون ويقبرون من بيت المال[1] وعلى وقفه قيم وشاهد به يختن الصبيان والغالب الفقراء، ويكون ذلك يوم عاشوراء وقد يكون في غيره، ويكسى المختون قميصاً وفرملة وشاشية ونعلاً ويعطى نصف ريال[2]. ومن محاسن هذه البلاد وأحكم أمره المقدس المولى علي باي[3] صاحب الخيرات رحمه الله تعالى كما أنه صنع من المعروف مدرسة تعرف بالتكية».

وموضع هذا المستشفى هو قشلة سوق الوزر التي كانت شاغرة حسب الظن، ولما لم نجد له آثاراً وأزيلت معالمه ومعالم القشلة سميته مستشفى القرسطون نسبة للمكان الذي كان فيه. وأخيراً، لم أتمكن من بيان مدته في أي عام فتح أبوابه وفي أي عام أغلقها. والمظنون أن مدرسة الرهبنيات سان جوزيف (Saint Joseph) بُنِيَتْ على جانب من أنقاضه وبقي جانب على حاله.

المستشفى الصادقي

ولما ضاقت رحاب مستشفى العزافين انتقل إلى محل أوسع بقلب المدينة مثله وهو قشلة البشامقية التي أسسها حمودة باشا الحسيني لإيواء عساكر الترك

(1) دفن الأموات بعهدة بيت المال، وقد جرى به العمل من بعد الاستقلال يوم وقع حل الأوقاف وهي التي ترث كل هالك من غير عقب وليست لها غاية لصرف المال الذي يتجمع بخزينتها.

(2) ختان الأطفال: لم تشر إليه المصادر من قبل إلا ما ذكره ح.ح. عبد الوهاب عند ذكر عزيزة عثمانة في كتابه شهيرات التونسيات بأن المرأة أوقفت جانباً من رزقها لختان الأطفال ولم يذكر المورد.

(3) يستفاد من هنا أن المستشفى من حسنات علي باي الثاني ويرجع تأسيسه إلى سنة 1188/ 1774، أو قبلها بقليل لأننا نعلم أن التكية المشار إليها أرخها الوزير حمودة بن عبد العزيز في آخر بيت لقصيد نقش على وجه بابها هو: 1188/ 1773. والظاهر أن نشاط هذا المستشفى تواصل إلى سنة 1266/ 1846 وهي سنة وفاة المؤلف الشيخ ابن سلامة فتكون حياته 68 عاماً على الأقل اللهم إلا إذا أغلق أبوابه قبل هذا التاريخ خصوصاً وأن المؤلف لم يشر إلى ذلك.

وأصبحت شاغرة وتشتمل على طابق سفلي وطابق علوي وغرف كثيرة وفسيحة وحمام وكان ذلك على يد الوزير المصلح خير الدين باشا وبمقتضى أمر على صدر بالرايد الرسمي يوم 20 صفر 1296 الموافق ليوم 12 فيفري 1879 ـ ودشن الصادق باي المستشفى وسمي باسمه. وكتب قوانينه الداخلية الشيخ محمد بيرم مدير الأوقاف. ويشتمل المستشفى الذي لم يزل قائم الذات أقساماً كثيرة للعلاج والاستقبال والإدارة وكان به في بداية الأمر مائة سرير وأضيف إليها مدرسة طلبة جامع يوسف داي الملاصقة له وخصصت لمأوى النساء وتشير القوانين إلى مجانية علاج الفقراء والمأكل (ثلاث خبزات ورطل من لحم للمريض في اليوم الواحد) والملبس، والطبيب ومساعده، والصيدلي والطباخ ومساعده، والعملة وعددهم أحد عشر وامرأتان وأيام العيادة ومصاريف المستشفى تؤخذ من داخل أوقاف التكية وأول طبيب احترف به أحمد قدور المتخرج من كلية الجزائر وأول وكيل محمد المبزع.

ويقع كذلك بهذا المستشفى التلقيح ضد الجدري مجاناً للفقراء وبأجر لذوي اليسر.

مستشفى صفاقس:

ذكره أحمد بن أبي الضياف وحسن عبد الوهاب.

مستشفى قفصة:

ذكره لي المؤلف أبو القاسم محمد كرو وذكر لي أن بيده رسم عقار يحدد هذا المستشفى.

مستشفى سوسة:

ذكره المقري.

التكيــة

التكية ملجأ معد للمسنين من الفقراء غير القادرين على العمل والارتزاق والعجز الذين لا مأوى لهم ولا معونة والتكايا منها ما هو وقتي وتكثر أيام المسغبة وتنتهي بانتهائها، ومنها ما هو قار لمن لا مأوى لهم ولا معين.

جاء في «الكتاب الباشي» لحموده بن عبد العزيز (ص 302 و 303): أن من أوقاف علي باشا الذي تولى الملك من سنة 1172/ 1759 إلى 1199/ 1783 أن التكية المتقنة البناء الحسنة الشكل الواسعة الفناء التي أحدثها بمكان حانة[1] بالدبدابة بعد هدمها وجعلها ذات بيوت كثيرة أعدها لسكنى الفقراء المتعففين عن السؤال، وأجرى عليهم الأرزاق، من كسوة وطعام به الأرز واللحم مرتين في الأسبوع، وأطعمهم بيده يوم افتتاحها جبراً لخاطرهم، وأضاف إليها من بعد داراً مجاورة لها جعلها قسماً للنساء. وخص بها جانباً للمساكين غير القادرين ليلاً لإطعامهم وعمم هذه الصدقات أيام المسغبة التي حطت بالبلاد سنة 1191/ 1777 وارتفع سعر القمح وغلا المعاش وكثر الفقر وعدد المتسولين النازحين من البوادي. وعين للتكية وكيلاً وأوقف عليها عقاراً كان حانة أيضاً بنهج القرامد بعد هدمه وبنائه من جديد، وكتب على بابها هذا القصيد من نظم حمّودة بن عبد العزيز:

كـل مـا فـي محلـه ذي التكيـة	هـي بحـر ومـا سـواهـا ركيـة
صنع مولى له ولا فخر تبدو	كـل يـوم علـى الملـوك مـزيـة
وسميـا لابـن الحسيـن علـي	أكـرم النـاس غيـر ذي مثنـويـة
ذو وقار كما رسا الطود لكن	للمعـالـي تهـزه أريحيـة
مـن مـزايـاه هـذه الـدار فيهـا	جنـة أثمـرت قطـوفـاً جنيـة
هـي للبـائـس الفقيـر تـراهـا	نعـم مـأوى عـدت ونعـم بنيـة

(1) تكاثر الحانات ومحلات الفساد مدة الاحتلال السبنيوري لتونس ومن حسنات البايات إغلاقها وتحويلها إلى مساجد ومدارس وهذه التكية.

حــرم آمــن وظــل ظليــل ورخــاء وعيشــة مــرضيــة

تعـدل الأهـل للغـريـب فـأرخ نعـم كهفـاً لابـن السبيـل تكيـة

وتحولت بنايتها إلى مدرسة ابتدائية بالمكان نفسه نهج الدبدابة عدد 12 ولم يزل القصيد منقوشاً على الباب.

المستشفيات الأجنبية

مستشفى الصليب المقدس

يرجع تأسيس المستشفيات الأجنبية بتونس إلى أوائل القرن الثامن عشر حين ابتدىء وجودها بأوروبا نفسها، وكان الغرض منها إسعاف أسرى المسيحيين الذين تكاثر عددهم بسبب القرصنة التونسية في البحر الأبيض المتوسط التي اتسع مداها وعظم انتشارها.

وكانت لهذه المستشفيات صبغة دينية ويشرف عليها الرهبان الذين يباشرون فيها العلاج رغم عدم كفاءتهم لذلك...

أسست لأول مرة سنة 1133/ 1720 هيئة الرهبان الثالوثيين السبنيول[1] L'ordre des Trinitaires espagnols مستشفى بالعاصمة وأطلقوا عليه اسم «مستشفى الصليب المقدس» وكان ذلك بإيعاز من حكومتهم بإسبانيا Hospital Ste Croix جاء في الجزء الثاني من كتاب الحلل السندسية للوزير السراج صحيفة 324 ما يلي: «اتصلت بقطعة معربة ممن له وثيق خبرة باللسان السبنيولي عما قيده

(1) هيئة رهبان الثالوثيين أسست سنة 1198 م لفداء الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين في الحرب أو القرصنة في البحر الأبيض المتوسط من طرف المغاربة والجزائريين والتونسيين والليبيين والأتراك، وكانت تجارة الأسرى بتونس تدر الكثير على أصحابها من أرباب السفن ورياس المراكب والدولة التونسية نفسها كان لها عشر الغنيمة وكان فداء الشخص الواحد يتراوح بين 1500 ريال و 3000 وأكثر من ذلك حسب مكانة الأسير وكانت الأشغال العامة بتونس منوطة بالأسرى.

القسيس الذي ورد لتونس وأنشأ المرستان لمرضى النصارى شرقي جامع ترشيش داخل باب البحر وكان ذلك المكان به حمام وبإزائه حانات خمر[1] هـ»، وترشيش هي تونس العاصمة وجامعها هو جامع الزيتونة والمحل المشار إليه لم يزل قائم الذات رقم 12 نهج جامع الزيتونة وبه اليوم القسم الثاني من إدارة البلدية بالعاصمة والقسيس المشار إليه هو قزمناز Ximenes الذي جاء من اسبانيا وتحصل من حسين باي الأول على اتفاق يمنح للرهبان الثالوثيين بالاستقرار بتونس وتأسيس مستشفى وكان ذلك سنة 1136/ 1720، ولما وقع إبطال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط بموجب اتفاقية (ايكس لشبال Aix la Chapelle)[2] سنة 1234/1818 من طرف الدول الأوروبية وانقطع السبي انتهت مأمورية هذا المستشفى فتحول إلى نيسة أشرفت عليها هيئة الكبسان وذلك باتفاق مع حسين باي الثاني سنة 1299/ 1883 وبكراء المحل المذكور الذي كان من أملاك الدولة مقداره ألف ريال سنوياً[3].

أنظمة المستشفى:

كان العلاج بالمستشفى مجانياً، إذ يدخله المريض وبيده ريال باعتباره

---

(1) الحلل السندسية في الأخبار التونسية تحقيق الأستاذ محمد الهيلة طبع تونس 1970، لم يكن هذا المستشفى فرنسياً حسب ما ذكره المرحوم محمد (بالفتح) بن الخوجة في المجلة الزيتونية أكتوبر 1939.

(2) اجتمع نواب الدول الأوروبية بمدينة «اكس لشبال» بألمانيا سنة 1818 وقرروا مقاومة القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط وبلغ الأمر إلى الباي قنصلا إنكلترا وفرنسا ولم يمتثل الباي لهذا القرار إلا سنة 1823.

(3) في سنة 1260/ 1845 أسقط المشير أحمد باي الأول مقدار هذا الكراء لفائدة الكنيسة وأضاف إليها فناء مجاوراً تبلغ مساحته مساحة الكنيسة نفسها. وأضيف إلى الكنيسة أيضاً قسم آخر ذو اعتبار عندما ضم لها الدار والمخزن المجاوران لها واللذان مفتحهما بنهج سيدي المرجاني وكانا على ملك الشيخ محمد معاوية شيخ الإسلام آنذاك وتصرفت الكنيسة في العقارين على وجه الإنزال وصارت الشركة الأسقفية التونسية صاحبة عقدة الإنزال تدفع المبلغ المعين بانتظام في كل عام.

مصروف دفنه إن وافاه أجله ويسترجع سيده الريال عند النقاهة وخروج الأسير. أما المال الذي ينفق منه على المستشفى فإنه يرد من طرف حكومة إسبانيا ومن هيئة الثالوثيين أيضاً. ولما انحلت المؤسسة وانقطع المدد أصبح المستشفى في حاجة إلى المال وأصبحت ميزانيته في عجز فادح بلغ 500 بصيتة إسبنيولية. فطلب الأب غبريال L'abbé Gabriel رئيس المنظمة من قنصل فرنسا المدد حتى لا يغلق المستشفى أبوابه وينقطع العمل الخيري متعللاً بعلاج الفرنسيين كغيرهم. فتوجه القنصل بدوره إلى حكومته وإلى الأوروبيين المقيمين بتونس بهذا الطلب نفسه وكان عددهم آنذاك 3370 نسمة وأكثرهم تجار. أما الأمراض التي تعالج بالمستشفى فالمظنون أنها هي التي يصاب بها التونسيون أنفسهم وأعني الحميات والأمراض الصدرية والوباء الزهري وأمراض العينين والسيلان وغيرها.

والساهرون على العلاج هم الرهبان وعددهم ثلاثة وليسوا من الأطباء، حيث وجدناهم في حيرة أمام مريض لم يهتدوا إلى معرفة إصابته أهي وباء أم شيء آخر والتجأوا إلى استشارة طبيب فرنسي حل بتونس 1783 في رحلة استطلاعية من طرف حكومته(1) ولم تشر المصادر التي بأيدينا إلى عدد أسرة المستشفى وعدد المرضى الذين يؤمونه يومياً أو سنوياً، في الوقت التي أشارت فيه إلى وجود غرفة تقام فيها الطقوس الدينية يحضرها المرضى والجالية المسيحية معاً وحتى الجالية الفرنسية لما أغلقت كنيستها بفندق الفرنسيين يوم انفصلت الكنيسة عن الدولة سنة 1795 وأعلنت الجمهورية الفرنسية المبدأ اللائكي. وبالجملة فقد كان الإسعاف بهذا المستشفى غير مرضي لعدم مقدرة الأطباء والممرضين وسوء المسكن، وكأنه ملجأ ومعزل للمصابين بالأمراض المعدية أكثر من كونه مستشفى بالمعنى الجاري وأغلق بابه سنة 1818.

---

(1) حل بتونس الطبيبان سنة 1724 وأقاما بها عامين ورجع ثانيهما إلى تونس سنة 1783 وتجول بالقطر التونسي ثلاث سنوات لفائدة حكومته.

مستشفى سان لويز :

تتمتع فرنسا بتونس في القرن الثامن عشر ومن قبله بامتيازات قنصلية[1] عديدة بموجب اتفاقيات أبرمت سنة 1535 م وتجددت سنتي 1561 ثم 1581 وبمقتضاها كان لفرنسا الحق في تمثيل وحماية الجاليات الأوروبية الأخرى المقيمة بتونس على الرغم من أن مواطنيها كانوا أقل عدداً من مواطني الدول الأخرى كإيطاليا ومالطة خاصة[2] ولم يكن لها مستشفى بتونس مثل اسبانيا.

نعم، كان للفرنسيين بتونس أطباء بالعاصمة وخارجها خصوصاً بالمصارف التجارية والبحرية لصيد المرجان بطبرقة ورأس بن نيقرو قرب بنزرت يتولون علاج كل من يلتجيء إليهم من البحارة والمدنيين كما كان للجاليات الأجنبية الأخرى أطباء مماثلون يعملون بالعاصمة وخاصة بالقصر الملكي وأخذوا في السبي ومنهم من اعتنق الإسلام[3]. مع ذلك لم يكن لفرنسا مستشفى مثل إسبانيا خصوصاً وأن الحاجة تأكدت مراراً إلى إيجاده عند انتشار الوباء وغيره من الأمراض الفتاكة الأخرى وإنما كانت لها تكية Hospice لإيواء العجز وعابري السبيل بالقرب من فندق الفرنسيين يقوم بأعبائها جماعة من هيئة الرهبان الكبوسان وهي هيئة تماثل هيئة الثالوثيين.

وتشير الوثائق أن قنصل فرنسا طلب يوم 8 نوفمبر 1727 من حكومته أن تمده بما قدره 14 ألف فرنك لإنشاء مارستان بالعاصمة يحتوي على اثني عشر سريراً ـ 12 ـ فلم يتمتع بالإجابة وكرر هذا الطلب بإلحاح دون جدوى سنة 1785 وكان الوباء منتشراً آنذاك بتونس واقترح إنشاء مرستان تتراوح ميزانيته السنوية بين 12000 و 15000 ليرة فرنسية[4].

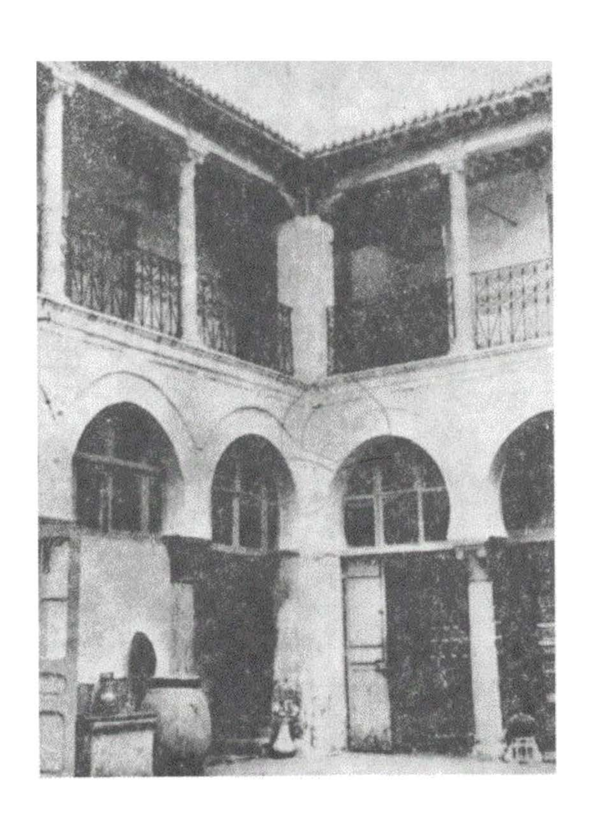
وفي سنة 1259/ 1843 حل بتونس القسيس فرنسوا بورقاد François Bourgade وأسس بنهج المونكات بركن القرصتون وبالقرب من مرستان السبنيول

(1) Les capitulations.
(2) Plantet, p 485.
(3) Annales de Rousseau, p 44.
(4) Plantet, p 485.

مرستاناً قيل في محل كان به مستوصف من إنشاء الراهبة أملي دي فيالار Emilie de Vialar من هيئة القديس يوسف التي جاءت إلى تونس سنة 1830 وكانت غنية وأنفقت على المستوصف مالاً وأطلقت عليه اسم «مستوصف الرحمة Dispensaire de la Miséricorde» وجمع من الجالية الأوروبية 2995 ريالاً تونسياً واكترى داراً بنهج المونيكات وحول المستوصف الموجود هناك إلى مكان أوسع حيث تكاثر المرضى وأطلق عليه اسم (مستشفى سان لويز St Louis) واختار له هيئة إدارية من جميع العناصر والجنسيات الأوروبية القاطنة بالعاصمة وتطوع للمداواة به مجاناً الطبيب المالطي لفرلا La Ferla بإعانة بعض الراهبات وقد بلغت مصاريف المستشفى 8480 ريالاً تونسياً منها 600 ريال لكراء المحل و 7440 ريالاً نفقة على المرضى و 440 ريالاً مصاريف مختلفة. وشاركت الحكومة التونسية في هذه المصاريف بإعانة قدرها 800 ريال وبمعلوم كراء المحل على أن يسلم ذلك في كل سنة إلى الأسقف L'Archevêque.

وأضاف القسيس سنة 1848 إلى المستشفى الذي كان يحتوي على عشرة أسرة فقط، غرفة خاصة أعدت كمستوصف ووقع الإقبال عليه ثم ازداد عدد الأسرة حتى بلغ الثلاثين 30 وقد كان العلاج به مجاناً وعندما قلت موارده تعهدت الشركات الكبرى التي كانت تعمل لإنشاء السكك الحديدية والتلغرافات بتونس، وكذلك قناصل الدول الأجنبية بإعانة المستشفى ثم تداخل الأسقف الكردينال لافيجيري Cardinal Lavigerie لدى وزارة الخارجية الفرنسية مطالباً بإنشاء مستشفى يحتوي على 200 سرير وطالب بخمسمائة ألف فرنك وتحصل على منحة سنوية مقدارها 200.000 فرنك وانتقل المستشفى إلى قشلة سيدي عامر البطاش[1]

(1) تدعى قشلة سيدي عامر البطاش لقربها من ضريح هذا الولي وتدعى أيضاً قشلة اللواء بالتركية وهي أمام هذا الأخير بنهج سيدي علي عزوز وتدعى أيضاً قشلة دار المال لأن المشير أحمد باي نصب بها البنك التونسي الذي كانت حياته قصيرة حيث آل أمره إلى الإفلاس وأغلق بابه عام 1853 بعد فرار محمود بن عياد سنة 1852. والقشلة من تأسيس حمودة باشا الحسيني سنة 1260/ 1844.



مستشفى العزافين
(طالع ص 184)

بنهج سيدي علي عزوز التي كانت شاغرة وفتح المحل الجديد بابه يوم 10 جانفي 1884 وتصدى للعلاج به أربعة أطباء أحدهم فرنسي وثلاثة من الجالية الإيطالية وكانت الممرضات راهبات من الأخوات سان جوزيف يشتغلن بأجرة معينة بإعانة ممرضين مهمتهم مقتصرة على التداوي.

وإثر الانتقادات المرة التي وجهت ضد المستشفى لسوء نظامه وعدم توفيره للقواعد الصحية والتحفظ من العدوى وعزل المختبلين في غرف ضيقة ومظلمة سحبت الحكومة الفرنسية المنحة السنوية التي خصت بها هذا المستشفى بعد ثلاث سنوات فقط من انبعاثه، وحول المحل إلى ملجأ خيري ولم يزل كذلك إلى يوم التاريخ[1].

الطب العسكري

لم تذكر الوثائق الموجودة بين يدينا أن أطباء اصطحبوا الجيوش العربية التي تعاقبت على أفريقية قصد احتلالها لعلاج المرضى والجرحى.

ربما كانت تلك مأمورية فقهاء البدن الذين وقعت الإشارة إليهم في هذا الكتاب، ولم أجد ذكراً لأطباء الجيش بالمعنى المتداول إلا في خلال القرن السابع عشر يوم أصبح للجيش نظام ومقر رسمي «القشلة» وبلغ عدد العساكر من طبجية، ورجالة، وفرسان، وبحرية 14000 أربعة عشر ألف رجل مدة أحمد باي بتاريخ 1854 أذكره على سبيل المثال. وأسس حمودة باشا المرادي سنة 1073/ 1662 مستشفى العزافين وهو يشتمل على أربع وعشرين غرفة لإيواء وعلاج عساكر البر والبحر من المجاهدين الفقراء الذين ليس لهم من يقوم بشؤونهم بمدينة تونس، وأوقف عليه أملاكاً يصرف دخلها على مقوماته المادية، وعين له وكيلاً وأطباء ومعاونين. ولما أحدث حمودة باشا الحسيني القشل وعددها خمس وهي قشلة

(1) راجع وثائق الكنيسة بتونس. ملف المستشفيات وملف الوزارة الخارجية التونسية ملف 66 شهر فيفري 82 ص 403 ـ 408، وملف 67 سبتمبر 1883.

البشامقية وقشلة العطارين وقشلة الزنايدية وقشلة سوق الوزر وقشلة سيدي عامر بتاريخ (1296/ 1878) أحدث مستشفى وقسماً للعلاج في كل واحدة منها. وتكاثرت هذه المستشفيات حسب مراكز الجيش، وكانت بإدارة أكابر الأطباء، ويقوم عليها الضباط الذين أصيبوا بجروح أو أتعاب وتعذر عليهم مباشرة الخدمة العسكرية، وأعطيت مراقبتها وتلقّي شكايات المرضى لأكابر الضباط. ومن الأطباء الذين باشروا المهنة بالقشل محمد بوعصيدة وأحمد بالي وسيأتي ذكرهما ولم تذكر المصادر أيضاً أن طبيباً كان يصاحب المحلة عند تنقلاتها صيفاً أو شتاء. ولما تكاثر بتونس الأطباء الأجانب من فرنسيين وطليان وبانت خبرتهم، أسندت إليهم المباشرة في القشل لمزيد العناية بالعساكر. فكان الدكتور كتون Catton على رأس قشلة برنجلاي بمرتب 350 ريالاً في الشهر وفنيال Vignali على قشلة الطبجية وفنازو Funazo على قشلة سوسة بمرتب 300 ريال. وظهرت أطباء من الضباط أنفسهم وأطلق عليها اسم «أفسيالي صانيتاري Officier Sanitaire» وتذكر وثيقة أن مصطفى بن خليفة التونسي تريافي بوز باشي بثاني آللاي أنه بغاية الحقيقة يستحق وظيفة أفسيالي صانيتاري وبناء على ذلك أنه مقتدر باستعمال خدمته ووظيفته بالعمالة التونسية التاريخ 1861/9/11. (هكذا جاء نص هذه الوثيقة)[1].

الصيدلية

الصيدلية في مدلولها العصري هي المحل الذي تصنع فيه الأدوية حسب إشارة الطبيب وكانت الأدوية تعرف بالعقاقير وأكثرها من العشب وكانت آمال الرجل ورغبته للتخلص من المرض ورغبته. ولم يعرف غيرها في قديم العصور. وقد يكون الدواء مفرداً من نبات واحد أو أكثر وهو المركب. وقد يكون من معدن أو طعام أو شراب. ولم تكن صناعة الصيدلية منفردة على صناعة الطب بل كان

(1) المرجع: ابن أبي الضياف ص 181 ج 3، 1955، مجلة إبلا Ibla 1957 ص 107 مخطوط المكتبة الوطنية عدد 18029و 18276 الطب بالقشل من خزينة وزارة الخارجية بالخزانة رقم 7 ملف رقم 6.6 Les Cahiers de Tunisie 1955, n.41.

الطبيب يصنع الدواء بنفسه أو يستعين بغلام يصنعها بإشارة منه. وإزاء الصيدلي يوجد العشاب وهو الذي يعرف مواطن العشب وزمن التقاطها وتجفيفها وحفظها وخواصها ويوصي باستعمالها أحياناً إذا سئل. ومن الأماكن التي يعشب منها جبل زغوان، وتباع الأعشاب بتونس العاصمة بسوق البلاط بالقرب من جامع الزيتونة وبالقرب من سوق الطبيين. وكانت سوقاً ناجعة يزودها الأعراب فلم يبق منها اليوم إلا دكان واحد لبيع العشب. وفي المكتبة الوطنية مخطوطات كثيرة في علم النبات لمؤلفين تونسيين وغيرهم تذكر الأعشاب وأوصافها الفلاحية وخواصها الطبية[1]. ولم يزل سكان الأرياف يعالجون بها. ومن الأدوية المعروفة عندنا: الخشخاش والسيكران لعلاج الآلام، والبقول والثمار والحبوب الغذائية مثل الحمص والعدس، والمعادن مثل الحديد والزرنيخ والزئبق، والزهور كالورد. ومن الأدوية التي دخلت تونس في القرن التاسع عشر السقمونية ولا فائدة لذكر جميع الأدوية وهي كثيرة جداً.

ويصنع من الأعشاب الجلاب والأقراص والأشربة والمعاجين والمغلي والمنقع والحبوب والسفوفات والمفتحات للعروق والمكففات للدم وغيرها. ومن مشاهر العشابين محمد المرادي ولد بتونس وكانت له محنة مع أمراء الدولة الحفصية فانتقل إلى قرطبة. (عن المقري ج 8 ص 345) وعلى سبيل المثال نذكر الطباشير لعلاج أمراض المعدة وهذه كيفية صنعه: «تكلس عظام الروس ثم تسحق وتخلط بشيء من الطفل الأبيض ثم تسقى بالماء وتترك حتى يكاد ينعقد وتقطع قطعاً صغيرة بسكين يجعل منه أفلاساً».

كمية الدواء اليومية:

يعطى الدواء بالكيل المائع مقدار شربة أو أكثر، وبالوزن مقدار درهم أو مثقال، وبالعدد حبة أو أكثر.

---

(1) رسالة في النبات ـ رقم 17974.

وهذه بعض الموازين في الصيدلية:

الرطل: ستّ عشرة أوقية - قرامات 500 - الأوقية قرامات 31،48 - المثقال قرامات 4،72 أو 75 حبة شعير مقصوصة الأطراف، الدرهم قرامات 1،49 أو 18 قيراطاً، القيراط ثلاث حبات شعير، الدانق ثمانية شعيرات.

الطب الشرعي

يرجع حسم النزاع بين الأشخاص في الأضرار البدنية إلى الطب الشرعي، جعله المشرع من أسس المعاملات في الفقه فاستشار ذوي الخبرة في الطب واستعان بهم على كشف الحقيقة تاركاً القصاص في الأبدان «العين بالعين والأذن بالأذن» الذي جرت به العادة في الجاهلية وكان من عوامل الفوضى والحروب القبلية ـ وهذه فتاوى متنوعة في الطب الشرعي:

فتوى 1: جاء في أجوبة عظوم ـ مخطوط رقم 18436 وطنية ج 1 ورقة 11 الفتوة ـ هل تجب الدية في القضية التالية:

إن فلاناً كدم فلاناً وطبق عليه أسنانه وأزال طرف أنفه، واعترف وادعى أنه ما كدمه حتى ضربه على رأسه وأسال دمه.

الجواب: تجب الدية ببعض الأنف المقطوع لا بجميعه بقيد أهل المعرفة. والدية عند أهل المغرب ألف دينار ذهباً على الرجل المقتول. وقول ما كدمه حتى ضربه لا تسمع الدعوى حتى يثبت الثبوت الشرعي أنه ضربه.

فتوى 2: فتوى للإمام المازري في العيوب (البرزلي مخطوط 4851 وطنية الورقة 13): سئل المازري عمن اشترى خادماً في طرف خاسرتها اليمنى دمل وغدة بجنبي عانتها وهي قديمة وقال أخبر بها النساء رأينها في الحمام فتبرأ منه البائع وأنكر ـ وقال الجراح هذا عيب قديم وكذا قال غيره... وأتي باليهودي (الطبيب) فقال هذا حادث..

الجواب: فأجاب الإمام المازري: يجب إذا تحقق العيب من المسلمين لا

يقتصر على اليهودي وإذا اجتمع الكل على أن هذه الغدة يتبع حدوثها الدوام فله الرد. وإن اختلف الأطباء في القدم والحدوث ولا مرجع حلف البائع على أنه لم يكن عنده علم حسب الواجب في اليمين ولا يمكن المشتري من القيام.

فتوى 3: وسئل أيضاً عمن اشترى خادماً ثم أتي بامرأتين تشهدان أن بها حملاً، فردت به ثم بيعت بالبراءة منه ثم ذكرت أنه ليس بحمل لكنه نفخ وظهر ذلك بها فأرادت ردها مرة أخرى.

الجواب: فأجاب: يسأل عن هذا أهل المعرفة بعد ثبوته بالخادم فإن قالوا قبل زمن التبايع فلها الرد به. . . وعن كل حال يؤخذ بقول الطبيب في العيب.

فتوى 4: وعن الإمام سحنون (من المخطوط نفسه): إذا كان الداء في أحد الفرجين لا يشهد النساء بالقدم أو الحدوث إلا إذا كنّ طبيبات.

الجواب: وفي مسائل الطلاق أجاب البرزلي ترد المرأة: إذا كانت ثيباً ووقع الادعاء حالاً، ونظر إليها النساء وقلن إن القطع قديم، واشترط في العقد أنها بكر.

فتوى 5: وأجاب القشتالي: إن المرأة لا ترد إلا في أربعة عيوب: الجنون والجذام والبرص وداء الفرج.

فتوى 6: فتوى للمازري ـ (معيار طبع حجرية ج 3، ص 236 ـ 235 رقم 950 وطنية).

سئل المازري عمن زوج ابنته البكر فطلب الزوج الدخول بها فزعم أبوها أن بجسمه برصاً وتحاكما إلى القاضي، فأرسل القاضي طبيبين أحدهما ذمي شهدا أن بجسمه برصاً لا يشكان فيه. السؤال: هل للزوجة خيار أم لا؟ هل يقبل قول غير المسلم أم لا؟.

الجواب: يختبر أولاً جسم الرجل من طرف العدول لأن هذا المرض يغلط فيه قصير الباع.

أولاً: هل فيه رائحة توذي مع المجالسة والمضاجعة؟ فإن قيل لا، يمتحنون

موضع البرص برأس إبرة فإن تغير واحمر لونه ودميَ مكانه فليس برصاً، ولا مقال للمرأة.

ثانياً: تعرض هذه الأسئلة على الذمي، فإن قال لا دليل غير ما ذكر تقبل شهادته فإن أتى بغيرها ينظر فيها من يوثق به (أي طبيب آخر).

الخلاصة: 1 ـ نستخلص من هذه الفتوى أن الإمام المازري له باع في الطب.

2 ـ وأن المطلوب من الطبيب المعرفة لا غير.

فتوى 7: وأجاب أبو جعفر بن زياد بالدية لامرأة ضربها زوجها وفقدت حسن جمالها (المدارك 8 وطنية 04877 ج 3، ورقة 73).

وأخيراً حكاية للبرزلي عن ابن علوان مفتي بتونس:

فتوى 8: حكى البرزلي أن ابن علوان يرى أن الحيل في الانقاض عند الظلم جائز. قال: أتته امرأة بزوجها قد أساء عشرتها تريد الطلاق. قال لها: ادعي عليه أن داخل دبره برصاً ينظر في ذلك المحل ـ فلما رأى ذلك الرجل طلقها.

التشريح

موقف الشرع الإسلامي من التشريح:

يرتكز الطب وترتكز الجراحة على علمين أساسيين علم التشريح وعلم الغريزة ـ يبحث الأول في طبيعة الأعضاء والثاني في وظائفها وقد جهل الأقدمون واليونان خاصة علم الغريزة الذي يرتكز على التجارب الدقيقة ولم يستفيدوا من تشريح بعض الحيوانات دون البشر إلا بمعلومات بسيطة ضئيلة ومألوفة، فكان الطب اليوناني جملة من الوصفيات في الأمراض وحكماً وجيزة في حفظ الصحة Aphorisme، ولم يأخذ العرب عنهم غير ذلك من مفيد ونافع في علم التشريح، ومن الأسف أن العرب غفلوا عن أهمية التشريح وأعرضوا عنه لسبب تافه: ألا وهو

احترام الميت اعتقاداً منهم أن ممارسة جثة الموتى حكمها التحريم. وذهب بعضهم إلى احترام القبور وعدم إزالتها حتى للمصلحة العامة ذات الصبغة الاجتماعية. وفي اعتقادهم أن القبر حبس على صاحبه لا يباع ولا يزال.

لم أر مبرراً لهذا الاعتقاد الشعبي الذي لا يتماشى مع أصول الدين الإسلامي وناموس الحياة الاجتماعية والرقي البشري، الشريعة مبنية على مصلحة العباد. ومن الغريب أن هذه العقيدة التي تدعو إلى احترام الميت والقبور لم تزل راسخة في العقول إلى يومنا هذا. إن التلقيح بالدم الذي لم ينكر أحد مزاياه قد استوجب فتوى في العمل به سنة 1952 من طرف شيخ الإسلام عبد العزيز جعيط. أما التشريح فلم يزل موكولاً إلى موافقة أولياء الميت. وأحياناً يمكث المريض بالمستشفى أياماً وشهوراً وتنفق عليه أموال ويتعب من أجله رجال من غير جدوى في اكتشاف مرضه ويودع في القبر هدية للحشرات والخنفوس من غير أن يعرف العلماء سبب مرضه ـ ولم تنتج الخسارة والأتعاب منفعة للأحياء وهي غير الغاية المطلوبة من التشريح.

هذا سبب من الأسباب التي لم يفلح من أجلها العرب في الطب إلا نسبياً، وكذلك شأنهم في الجراحة.

وإن قدر لابن نفيس اكتشاف الدورة الدموية الصغرى[1] فذلك بفضل تشريح الموتى وإن لم يعلن عنه. وربما استفاد محمد الصقلي من تشريح المرضى بالسل ولم يعلن عنه أيضاً خشية غضب الناس واستيائهم. وفي سنة 1904 شرح طبيب بمستشفى صفاقس ميتاً لاكتشاف مرضه فحدث غضب أهالي البلد، ولما تقدم وفد من المواطنين برئاسة محمد السنوسي إلى الوزير الأكبر العزيز بوعتور للحصول على رغبات شعبية أثاروا مشكلة التشريح فأجابهم الوزير على رغبتهم بالإلغاء[2]. ولم يؤذن فيه اليوم إلا باستشارة أولياء الميت ورضاهم أما القانون الجنائي التونسي

(1) ابن نفيس: رسالة في علم التشريح برقم 17930 وطنية.
(2) النازلة التونسية، تأليف محمد السنوسي، تحقيق الصادق بسيس، تونس 1976.

فإنه يأمر بالتشريح كلما اقتضت الحاجة إليه لإنارة القاضي والاصداع بالحق والعدل ولا نزاع ولا غضب لأحد.

ومن الملاحظ أن الطب لم يخط خطواته العملاقة عند الإفرنج إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر، يوم فتحت لهم الكنيسة باب التشريح. ويومها أخذت نظريات اليونان القائلة بالطبائع والأخلاط في الذبول وهي النظريات التي اعتنقها العرب ولم يجدوا لها تبديلاً.

فتوى في التشريح:

وفي مسألة نقل الأعضاء، ينص الأمر العلي المؤرخ في 19 جويلية 1951 بإمكان نقل عضو أو جزء من الميت إذا اقتضت المصلحة لفائدة العلم أو العلاج ويجب أن يتولى تحقيق الوفاة طبيبان من أطباء المستشفى فيوقعان معاً على محضر الوفاة ويسجلان تاريخ النقل وساعته.

نص الأسئلة التي أُلقيت على جناب العالم الجليل الفقيه العمدة فضيلة الشيخ الحطاب بوشناق:

سيدي:

«إني أشتغل بكتابة الطب العربي التونسي، وقد لاحظت أن هذا العلم الذي ازدهر في القرنين الرابع والخامس في القيروان وفي القرنين السابع والثامن بتونس العاصمة وخطا خطوات حسنة، توقف رقيه تماماً، بينما انطلق انطلاقة جديدة في أوروبا بسبب تشريح الموتى لاكتشاف أسباب الأمراض وأسرار الطبيعة ووقف الأطباء المسلمون مكتوفي الأيادي أمام هذا المنهاج الجديد. والحال أن الواجب يفرض علينا أن نستمر في البحث العلمي لفائدة أمتنا والبشرية جمعاء مع اعتقادنا الراسخ أن الدين الإسلامي أساسه مصلحة العباد والمحافظة على البشرية، وأن الواجب الصناعي أوجب علينا أن نزود المريض دماً من دم رجل آخر لإنقاذه من

المرض والدم المزاد عضو حي ومادة حية وأنه في الإمكان تعويض كلية رجل عقيمة بكلية تأخذ من رجل آخر، أو بكلية ميت. وقد وجدنا الرغبة الملحة في ذلك من المريض ومن أوليائه فلهذه الأسباب نريد أن نعرف موقف الشرع العزيز إزاء: التشريح ونقل الأعضاء».

1 ـ السؤال الأول: هل يجوز تشريح الموتى لتعليم الطب والجراحة؟.

2 ـ السؤال الثاني: هل يجوز تشريح ميت لاكتشاف مرضه إذا لم نتوصل إليه بالتحليل الكيماوي والكهربائي وغيرهما؟.

3 ـ السؤال الثالث: هل يجوز شرعاً تعويض عضو مريض عند رجل بعضو ميت؟

وتقبلوا سيدي وافر الشكر والاحترام

الحكيم أحمد بن ميلاد

يوم 24 محرم 1399 الموافق لـ 24 ديسمبر ١٩٧٨

الجـواب:

الحمد لله،

وبعد الاطلاع على الأسئلة المذكورة أقول ما يلي:

«للشارع عنايته بصالح البشر وعناية بالمحافظة على النفس حتى أحل أكل الميتة للمضطر المتوقع للخطر ومن المحافظة على النفس معالجة ما يعتريها من الأعراض والأمراض. ومن لوازم ذلك معرفة الطب المقتضي للمعالجة وقد عني به السلف من الأمة وتوغلوا فيه وألفوا فيه التآليف المفيدة، ثم وقف من بعدهم بسبب توالي الفتن والحروب كزحف الهلاليين على القيروان وزحف التتار على الشرق وتوالي الحروب في الأندلس مما قعد بهم عن التوغل في العلوم والفنون ولكن الأوروبيين لم يألوا جهداً في التوسع في البحوث في هذا الفن حتى وصلوا إلى

تشريح الموتى للاطلاع على أسرار البدن وأخذ بعض الأعضاء منهم ونقلها إلى الأحياء لدفع ما عرض لهم من الخطر كما نقلوا الدماء من الأحياء إلى الأصحاء، كل ذلك للمحافظة على الصحة التي أوجبها الشارع وبالجملة فإن ذلك لا يتعارض مع مبادىء الدين والله ولي المتقين والحمد لله رب العالمين».

فتوى في نقل الدم:

فتوى صاحب السماحة شيخ الإسلام محمد العزيز جعيط في معالجة المرضى بنقل الدم ـ صدرت في المجلة الزيتونية بتونس المجلد الثامن، مارس 1952:

«الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد، فقد سئلت من قبل وزارة الصحة عن حكم المداواة بتلقيح المريض بالدم سواء أكان دم المريض نفسه أو دم غيره وسواء أنقل الدم للمريض مباشرة من شخص وهو باق على حالته الطبيعية أو نقل له بعد تجفيفه وتصبيره ومزجه بعد ذلك بما يصلح معه للمداواة بالتلقيح. والجواب والله الموفق للصواب، أن الدم محرم أكله وشربه بنص القرآن وهو نجس فالمداواة به من وادي المداواة بالمحرم النجس والمداواة بذلك غير مباحة في حالة الاختيار ويتحقق الاختيار إذا وجد في الأدوية الطاهرة ما يغني عنه ويقوم مقامه، أما في حالة الاضطرار كخوف الهلاك وانعدام الأدوية الطاهرة التي تغني عن المداواة بالنجس فالجواز هو الأقوى من حيث القواعد وظواهر الآيات ويكفي في حصول النفع بنقل الدم في خوف الهلاك بتركه غلبة الظن وقد اختلفت المذاهب في التداوي بالمحرم فالراجح في المذهب المالكي المنع وللإمام مالك قول بالجواز على ما نقله أبو الوليد الباجي في المنتقى والمذهب الحنفي على الإباحة إذا علم الشفاء به ولم يقم غيره مقامه كما في حاشية ابن عابدين صفحة 216 من الجزء الأول طبع بولاق، والمذهب الشافعي على جواز التداوي بجميع النجاسات للضرورة إلا الخمر».

السـم

السم آلة من آلات القهر والاستبداد، ووسيلة من وسائل الإجرام التي يأمر بها الملوك وأصحاب النفوذ المطلق للقضاء على المزاحمين لملكهم ولإرضاء شهواتهم وأغراضهم. يذكر المقري ص 171 أن معاوية بن أبي سفيان لما طعن في السن أراد أن يستخلف ابنه سفيان فأشار عليه أهل الشام بعبيد الله بن الوليد فدس إليه سماً فمات وكذا فعل بمنافسه الحسن بن علي بن أبي طالب (ذكره الطبري في تاريخه).

وفي كثير من كتب الطب العربي يوجد فصل في علاج السم والأدوية الصالحة لذلك وكيفية استعمالها مع الملاحظة والتوكيد أني لم أجد البتة صناعة السم وموادها في هذه الكتب. وكل الظن أنها كانت بأيدي باعة العقاقير، وما وجدته هو علاج السم وخاصة لسع الأفاعي والعقارب ولدغ الزمبور.

ـ العلاج: إذا سقي إنسان سماً وأغمي عليه فيؤخذ وزن درهم تنكار مسحوقاً ناعماً يضاف إليها ماء ويسقى إياه، فمتى أن وصل إلى جوفه يفيق ويتقيأ من ساعته ويبرأ. وكان التنكار موجوداً في سوق القرانة.

محاولة يونس تسميم أبيه الباشا علي

حاول يونس تسميم أبيه الباشا علي باي الذي تولى الحكم سنة 1147/ 1734 فوضع سماً في فنجان قهوة وأعطاه للساقي ليعطيه إلى الباشا عند الطلب، وكان الأمر كذلك لكن لما أعطى الساقي الفنجان للباشا ارتعشت يده فسُئِل لماذا؟ ففاه الساقي بما وقع. فأعطى الكأس لرجل فمات فقتل الباشا ابنه يونس (مخطوط رقم 18688 وطنية).

مقتل سليمان باي

مات سليمان باي بسم وضع له في القهوة. أخبر به الطبيب المغربي أمين الأطباء ويوسف القير طبيب القصر (كتاب الباشي ص 255).

مقتل الشيخ البارودي

مات العالم الشيخ البارودي بالسم بإيعاز من الأمير صالح للطبيب محمد المملوك الذي أمر بمسهل أسقط به أمعاء الشيخ البارودي والد امرأة حمودة باشا (تاريخ ابن سلامة). المظنون أن السم المستعمل إذاك هو: المصدد السلماني.

تحنيط الأموات

مما لا تشير إليه كتب الطب الموجودة لدينا تحنيط الموتى لنقلها من قطر إلى آخر. والمواد من العقاقير والنبات التي تستعمل لهذا الغرض يرجح أنها ليست من صنع الأطباء بل هي من صنع ومشمولات غسلة الموتى وأظنّ أنها الكافور.

رعاية الحي خير من رعاية الميت

يذكر الطبيب أبو العباس أحمد وهو من المعتقدين في الولي أحمد بن عروس أن أحد السادات من عرب أفريقية لامه على زيارته لضريح هذا الولي قائلاً: الحي أولى بالزيارة من الميت (مناقب ابن عروس مخطوط رقم 2543).

الأطباء الهواة

حسين بن سليمان خوجة

ولد بتونس سنة 1077/ 1666 وتوفي سنة 1145/ 1732 وتعلم على علماء جامع الزيتونة وأحسن العربية والفارسية والتركية واليونانية وتولى رئاسة ديوان الإنشاء بالحاضرة التونسية وترجمان الدولة الحسينية. ترجم كتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان لمؤلف تركي وذيله بكتاب آخر خصه لفتح تونس من طرف الأتراك ولعلمائها وزهادها ودولة مخدومه الباي حسين بن علي. لم يكن المؤلف طبيباً مباشراً أو مؤلفاً في الطب، ولكنه أصيب بمرض سنة 1101/1689 فذهب إلى إيطاليا قصد العلاج، فاجتمع بالأطباء واغتنم من رحلته هذه بفائدة دواء يزيل الحمى وهو قشر شجرة الكينة. وكانت تسمى «الكينة كينة» ولما راجت بتونس حمى المستنقعات سنة 1139/1726 جلب من إيطاليا مسحوقاً من هذه القشور وفرقه على أصدقائه فحصلت منه الفائدة وكانت مصحوبة برسالة توضح استعمالها فترجمها من اللغة اللاتينية واستعان على حل العويص من ألفاظها الصناعية بالصيدلي هارون أبي العيون وكتب رسالة بالعربية في متناول الجمهور التونسي عرف فيها بهذا الدواء الذي لم يسبق له العمل بتونس وسماها «الأسرار الكمينة بأحوال الكينة كينة Quinquina» وكان ذلك سنة 1139 هـ/ 1726 م. احتوت على مقدمة واثنتي عشرة مقالة وخاتمة أتى فيها على البلاد التي وجدت فيها شجرة الكينة ومتى دخلت إلى أروبا وأوصافها وخصائصها والرد على من ادعى أنها تجمد الأمور الناشئة للحمى ومفعولها وقتي لا يمنع الحمى من الرجوع ثانية ثم أتى

على أنواع الحميات وظهورها والحث على المبادرة لعلاجها وختم الرسالة ناصحاً قائلاً: «ينبغي أن يتأمل الطبيب في حال المريض سناً وقوة وضعفاً وأخلاطاً وغذاء».

محمد بن حسن بيرم الثاني

من علماء جامع الزيتونة، تولى خطة القضاء مرتين للمذهب الحنفي واستقال منها بمكتوب ولم يقله صاحب البلاد حمودة باشا وقلده الفتوى سنة 1215 هـ وابتلي بموت امرأته وأولاده الخمسة في الطاعون الجارف سنة 1192/ 1784 وله رسالة على هذه الكارثة وأشعار. ولد سنة 1162 وتوفي سنة 1247 هـ. توجد الرسالة بعنوان «حسن البنا في جواز التحفظ من الوبا»[1] حلب (سوريا) تحت رقم 1723 الأوراق: 26، اسم الناسخ زاهد الشافعي سنة 1321.

كتبها سنة 1202 ورتبها على مقدمة وثلاثة فصول تناول في المقدمة الوقاية الفعلية من المرض التي حققتها التجارب، وفي الفصل الأول يؤكد على أن الطاعون مرض معد وعلى وجوب الفرار من مدينة مصابة أو الخروج منها وعدم زيارة المريض واستعمال ثيابه، وفي الثالث ما يجب استعماله للتحفظ من المرض. وجاء في الخاتمة: حكم الدعاء برفع الطاعون.

الرسالة:

توجد منها مخطوطات كثيرة في خزائن الخواص وبالمكتبة الوطنية:

- رقم 4865 محموع من ورقة 44 إلى 49.
- رقم 510 مجموع من ورقة 89 إلى 96 تاريخ الكتاب 1241 هـ.
- رقم 14117 ـ رقم 15847.

---

(1) راجع كذلك كنشة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 18257 وقسماً منها أوردناه في هذا الكتاب.

ـ راجع ترجمة ح. خوجة في كتاب «الذيل» طبع تونس 1975 تحقيق الطاهر المعموري.

- رقم 13947 من ورقة 100 إلى 109.
- رقم 1238 مجموع من ورقة 40 إلى 48.
- رقم 1365 وبه بطر - رقم 552.
- ونسخة بخزانتي من مجموع، خط جميل، ملون ومن غير تاريخ.

فكان لهذه الرسالة صدى عظيم وقد تواتر على صاحبها الشكر والثناء من أصدقائه. نخص بالذكر محمد السراج وشمس الدين أفندي البغدادي (راجع المجموع 552)، ومدحها محمد الخضراوي في قصيدة منها هذه الأبيات:

للّــه حســن رســالــة	هــام الفــؤاد بصنعهــا
سحــرت عقــول النــاظــريــ	ــن بفــرط رقــة طبعهــا
ما قالت الألسن في مدحها	رسـالـة مـا إن لهـا مـن نـاظـر

الباجي المسعودي

ولد ونشأ بتونس. طلب العلم بجامع الزيتونة. كان شاعراً وكاتباً بليغاً. أجله الأمراء الحسينيون محلة سامية وكتب لهم. كان من ندمائهم وممن يهوى المجالس والفكاهة له كتاب «الخلاصة النقية في أمراء أفريقية» ورسالة في الحب الإفرنجي. توفي سنة 1207/ 1879 أصيب بالحب الإفرنجي فأشار عليه طبيبه بالتداوي بالمياه المعدنية وتشوق أيام إقامته بقربص إلى أصدقائه بالعاصمة فبعث إليهم بقصيد يفوح بصدق اللهجة ورقة الإحساس، طالعه: غريب ولا مونس، عليل يحن لرؤياك تونس، أوردناه في باب الأدب في الطب التونسي[1].

الرسالة: عنوانها «التدبير المنجي من الحب الإفرنجي» رقم 17950 مخطوط بالمكتبة الوطنية، أوراق 13 بها أربع مقالات ومقدمة وخاتمة. بحث فيها المؤلف عن مرض الزهري من حيث وجوده بتونس سنة 1260/ 1844 وأوصاف المرض وتطوره وعلاجه عند الخاصة والعامة وأقوال الأطباء فيه. استخلص كل

(1) ص 244 الآتية.

ذلك من كتب هبة الله والحجيج، وأضاف مرضه فكانت الرسالة حوصلة شاملة في الزهري. وقد وقعت الإشارة إليها.

رواج الطب التونسي

كان لرواج الطب التونسي في الشرق والغرب حظ عظيم. فقد انتشر من أول نشأته بالقيروان ودخل الأندلس وإيطاليا. تشهد بذلك نسخة «زاد المسافر» لابن الجزار التي حملها تلميذه ابن بريق إلى قرطبة مدة حياة شيخه في القرن التاسع ميلادي، وترجمة الكتاب نفسه إلى اليونانية الموجودة بمكتبة الفاتكان. واحتلت من بعد ترجمة الكتاب إلى اللاتينية من طرف قسطنطين الأفريقي مكاناً ممتازاً في المكتبات الدولية الأروبية والمكتبات الخاصة ووقع التدريس فيه طيلة ستمائة سنة على الأقل وهو ما تبرهن عليه المخطوطات والوثائق الكبيرة التي وقعت الإشارة إليها من قبل وبفضل قسطنطين أيضاً دخلت كتب ابن عمران وإسحاق بن سليمان وابن الجزار إلى أروبا منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي وانتشرت ووقع التدريس بها والعمل بها وزادتها الترجمة العربية رواجاً واعتناء واهتماماً. وقد قصدت المكتبات العامة التي توجد فيها اليوم هذه الكتب واطلعت عليها مباشرة أو وصلت إلى معرفتي.

أما المخطوطات العربية فكان رواجها أكثر وأعم لأنها شملت كتب أطباء المدرسة الطبية القيروانية والمدرسة التونسية التي ازدهرت مدة الدولة الحفصية، نجدها اليوم في المغرب وإسبانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا وتركيا وسوريا والعراق ولبنان ومصر وربما في أقطار أخرى. ورواج هذه الكتب يدل على قيمتها العلمية ومكانة أصحابها وتضلعهم في الطب في عصور مختلفة.

جولان المخطوطات

يتضح مما تقدم أن الكتب كانت تجول الأقطار والبلدان وتنتقل من يد إلى أخرى وتباع بأغلى الأثمان لقلتها كما يعتريها التحريف والنقصان والتصرف من

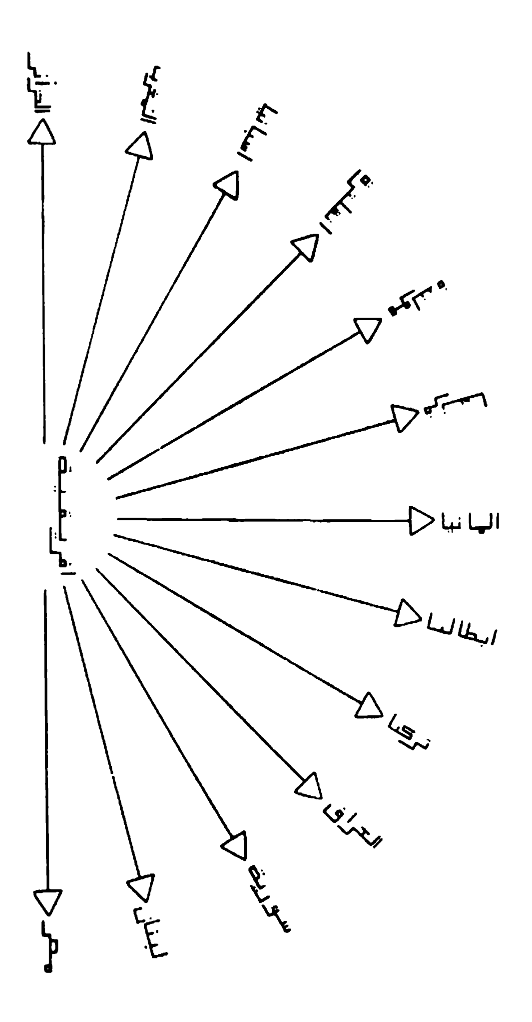
طرف الخطاط أو تنسب إلى غير مؤلفها عن غفلة أو عن قصد، ويعتريها الضياع والتلف وهو أعظم الخطر عليها وأشده. وللحج فضل على ترويجها وتعميم الإفادة بها، ومما يلفت النظر النسخة من كتاب إسحاق بن سليمان الموجودة بالمكتبة السليمانية باسطنبول تحت رقم 962 والتي جاء في ورقتها الأولى أسماء كل من كانت في حوزهم من أطباء أو هواة، وعددهم عشرة ومن بينهم يهودي كتب بالحروف العبرانية، وتدل أصناف الحروف العربية على بلدان أصحابها وأسمائهم وتاريخ اقتنائهم الكتاب. وتاريخ المخطوطة من آخر القرن الرابع الهجري.

إلى أين وصلت صناعة الطب في عصر الانحطاط؟

في أواخر الدولة الحسينية وإمارة الصادق باي الذي باشر الحكم من سنة 1276/ 1859 إلى 1881/1298 أعطيت الشهادات لمباشرة التطبيب لمن شاء بأجرة أو بطلب من أفراد من سكان البلد أو القبيلة، وهذا أنموذج من هذه الشهادات ننقلها من أرشيف الدولة: الخزانة رقم 7 ملف عدد 79. ففي ذي الحجة 1255 أمر أحمد باشا بتسمية محمد بن الحاج فرج بن طالب الهواري طبيباً شهد فيه أهل الهوارية بأنه يداوي المرضى وجربوا معرفته.

وبالملف نفسه وثيقة بإمضاء عدلين بتاريخ 1253 جاء فيها: إن خمسين نفراً من سكان نفطة يزكون محمد الجريدي ويطلبون من الباي تعيينه طبيباً ببلدهـم.

وتوجد بالملف أيضاً شهادات كثيرة سلمها طبيب (الصادق باي) أبرمينو لمبروزو Abramino Lombrozo مقابل أجرة، محررة باللسان العربي أو الطلياني، وهذه واحدة منها يذكر الطبيب أنه «امتحن الحاج علي في أمور طبية عرفية ورآه عالماً بها ويقر بأنه خالص معه بالأجر المرتب على الامتحان المذكور وأعطاه هذه الشهادة».



مراكز المخطوطات الطبية التونسية

وتنحدر صناعة الطب إلى أكثر من ذلك فتصير آلة بين أيادي السفهاء للنيل من مكاسب الشعب تشهد به الوثيقة التالية: يطلب طبيب الأسنان بتونس لويدجي أدو Luigi Oddo من الوزير الأكبر سي مصطفى (بن إسماعيل) بتاريخ 18 مارس 1872 أن يعطيه قطعات من غابة طبرقة لاستغلال الخفاف والدباغ والخشب لمدة ست سنوات في مقابل تنظيف أسنان جناب الوزير وأهله (الملف رقم 797، الخزانة 8).

Reggenza
di
TUNISI

SERVIZIO SANITARIO

Tunisi 7 Marzo 1862

Io sottoscritto Medico in Capo di S. A. il Bey, attesto d'avere esaminato nella sua Medico-Empirica conoscenze, e i suoi attestati il nominato Mohammed ben Tchiki il Nafti della Provincia del Jerid, e di averlo riscontrato sufficientemente esperto per potere esercitare l'arte sua liberamente nei limiti prescritti dalla Legge

Ed in fede

Dr. A. Lumbroso

يشرع محمد بن الطبيب النفطي الجريدي للاحتراف صنعة الطب بإذن الدوتور ابراهيم لمبروزو رئيس اطبا الحضرة العليه وقد امتحنه ووجده عارفا بهذه الصناعة

شهادة لممارسة الطب منحها الباي، وهو إيطالي الجنسية، في عصر الإنحطاط

أبحاث مختلفة

بيت الحكمة :

جاء في نفح الطيب للمقري، الجزء الأول صفحة 115 طبع القاهرة وفي الجزء الأول صفحة 153 من البيان لابن عذارى طبع بيروت، أن «أبا اليسر الشيباني ويعرف بالرياضي كان في مدة زيادة الله آخر ملوك بني الأغلب في بيت الحكمة». يستفاد من هذه الجملة أن مدرسة عليا وجدت بالقيروان في أواخر القرن الثالث الهجري لدراسة العلوم غير الدينية على غرار بيت الحكمة ببغداد وهي المدرسة المثالية التي أسسها المأمون الخليفة العباسي. أجل إن إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب الذي ساس أفريقية من سنة 242 هـ إلى سنة 249 أسس بالقرب من القيروان داراً للإمارة «رقادة» ونظم بها مكتبة عظيمة دارت فيها مناظرات وقعت أحياناً تحت رئاسة الملك نفسه الذي يشارك فيها برأيه. وما نعلمه من هذه الدراسات أنها كانت دينية بحتة. ومن المواضيع التي طرحت على بساط النقاش مسألة خلق القرآن، والقدر والوعد والوعيد، والجدل المستمر بين المالكية والحنفية وبين مذهب أهل القيروان ومذهب بغداد، وبصفة أعم بين الراعي والرعية. ولم تسجل الوثائق التي بأيدينا من أقلام الكتاب والمؤرخين والشعراء (وهي جرائد العصر) أن أبحاثاً في العلوم الرياضية دارت ببيت الحكمة وخاصة في الطب. بل يذهب الأستاذ عبد العزيز المجدوب في كتابه «الصراع المذهبي» طبع

تونس 1975: أن المناظرات تقع بين العلماء وأحياناً تحت رئاسة الوالي الذي يشارك فيها برأيه. وتشير الكتب إلى هذه المناظرات... ولم تشر أي كتابة إلى هيئة تحت اسم بيت الحكمة.

وأبو اليسر المسمى بالرياضي مشكوك في صدقه. فلا توجد من بين مؤلفاته كتب في العلوم العقلية بل كانت كلّها في الشريعة والأدب. قد طاف في بلاد الشرق وانتقل من دمشق إلى الأندلس وحل بقرطبة وسلم كتاباً إلى الإمام محمد بن عبد الرحمان عن أهل دمشق وتبين للإمام[1] الذي اقتبله وأكرمه أن الكتاب كان مدلساً مصنوعاً. فصرف الإمام أبا اليسر وسلم له بدوره كتاباً مختوماً جواباً عن كتاب أهل دمشق. ولما جاوز أبو اليسر البحر فك الختم فوجد الكتاب بياضاً ليس به إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» فعلم أن تمويهه لم يجز والمظنون أن البسملة في هذا المقام مفادها أنه: رجل بسيط، مبتدىء لا ضلع له في العلوم. فلم يرجع أبو اليسر إلى دمشق وحل بالقيروان وتقرب لبني الأغلب وتولى الكتابة لهم في آخر أيامهم ثم لعبيد الله المهدي وتوفي بالقيروان في مدته سنة 298/911.

هذا ما يمكن إثباته عن بيت الحكمة بالقيروان وما أورده حسن حسني عبد الوهاب في كتابه (ورقات ج 1 ص 192 وما بعدها) يجب التأمل فيه والتحفظ في شأنه.

---

(1) هو محمد بن عبد الرحمان، ثامن أمراء الأمويين الذي حكم الأندلس من سنة 206 إلى 238. 822/852.

ـ راجع: ابن عذاري ج 1 ص 159، 162، ج 4 ص 1300 ط. بيروت، طبع القاهرة ج 2 ص 130.

ـ عبد العزيز المجدوب الصراع المذهبي، ط. تونس 1975 ص 135 وما بعدها.

ـ محمد الطالبي: تراجم أغلبية ص 170 وما بعدها، ط. تونس 1967.

فضل الحج على انتشار الطب بتونس

بحث قدم في مؤتمر الطب العربي بميلانو - إيطاليا في 27 سبتمبر 1972 :

يوجد بالمكتبة الوطنية بتونس مخطوط رقم 2869 تحت عنوان «منهاج الدكان» به 162 ورقة من الحجم الكبير، كتب سنة 1162 هـ/ 1786 م كتابة مغربية من غير اسم المؤلف في طالعة الكتاب ولا اسم الناسخ في آخره. ويقرأ على الصفحة الأولى بأحرف غليظة: هذا كتاب «منهاج الدكان «تأليف الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عثمان الشريف الحسيني نسباً، التونسي مولداً، الصقلي شهرة نفعنا الله به ورضي عنه آمين.

إن محمد الصقلي هذا من مشاهير أطباء تونس في القرن الرابع عشر ميلادي[1] له كتاب «المختصر الفارسي» في مجلدين أهداهما للسلطان أبي فارس عبد العزيز الذي ترأس الملك من سنة 1394 إلى 1433 م. ومن مآثره تأسيس مستشفى بتونس. وتوجد من الكتاب نسخ عديدة بالمكتبات بتونس وبمدينة الرباط وعند الخاصة، وللمؤلف رسالة في «الوبا» كتبها بطلب من الملك برقوق أول السلاطين المماليك بمصر الذي ترأس من سنة 1382 إلى 1389 م. يوم كان الطبيب ماراً بمصر والوباء متفش بها.

وكتابة أخرى بالصفحة الأولى بقلم الشيخ بيرم الرابع مفادها أن الكتاب كان بحوزه. وتوثيق آخر من توقيع عدلين يثبت أن الكتاب حبسه الوزير خير الدين باشا على مكتبة جامع الزيتونة سنة 1292 هـ/ 1875 م.

هكذا ذكره حسن حسني عبد الوهاب في كتاب «التأبين المئوي» لميشال أماري[2] ص 480 ط 1910 وكذلك ذكره الطبيب سليّم عمار في كتابه «ذكريات في الطب العربي» ص 34 ـ ط 1965 تونس. إن لهذا الكتاب سلسلة من النسب

(1) أشرنا إليه في باب أطباء تونس في هذا الكتاب.

(2) ميشال أماري Michel Amari مستشرق طلياني كتب تاريخ صقلية.

كما يظهر وكل ما ينتسب إلى الأشراف لا يخلو من الخطأ. إن هذا الكتاب لم يؤلفه الشريف محمد الصقلي ولكن أبو المنى داود الإسرائيلي شهر كوهن العطار صيدلي بالقاهرة في منتصف القرن الثالث عشر، كتبه لابنه. وهو يحتوي على خمسة عشر فصلاً استوحاها من كتب المتطبّبين والعشابين في زمانه وذكر فيه المعاملات وتحضير المشروبات والربوبات والأقراص والمسحوقات والأدهان والسنونات وأدوية الفم والضمائد والجباير والمتبادل من الأدوية وكيفية الاطلاع على قوة الأدوية المفردة والمركبة. وهو كتاب ثمين لصناعة الصيدلة. يوجد منه بالمكتبة الوطنية مخطوط آخر رقم 1872 تحت عنوان «كتاب كوهن العطار» من ممتلكات حسن حسني عبد الوهاب نفسه خططه حسن اللماني بمكة سنة 1292 هـ/ 1875 م. وبالمكتبة الوطنية بباريس بقسم المخطوطات رقم 2965 كتب سنة 932/ 1526.

كيف يجب فهم هذه الغلطة التي نسبت كتاباً لغير صاحبه وما هو تعليلها؟.

- الأمر سهل، اشترى هذا الكتاب محمد الصقلي من مكة وبيع بعد وفاته ونسب له عن حسن نية، أو اشتراه تاجر وكتب عليه اسم محمد الشريف الصقلي لما لهذا الطبيب من الخبرة والسمعة الطبية لبيعه بأغلى ثمن.

- وحج أحمد الصقلي. وله بالمكتبة الوطنية كتاب في حفظ الصحة رقم 16443 وآخر رقم 1987 وكتاب في شرح أرجوزة علي بن سينا.

- وحج أحمد بن الحشا، وخلف معجماً في المفردات الطبية لم يكتب مثله من قبل (القرن الرابع عشر ميلادي) منه نسخة خطية رقم 331 بمكتبة «ليدن» ونسخ أخرى منها رقم 955 بمدينة الرباط وأخذ منه المستشرق دوزي كلمات أدخلها في «ملحق القاموس» الذي ألفه.

- ومكث محمد الحجيج المولود بتونس سنة 1050/ 1640 سبع سنوات بالقاهرة ومكة والمدينة وأخذ عن علمائها شتى العلوم. ومن الكتب التي خلفها كتاب في الطب بالمكتبة الوطنية رقم 17249.

وحج طبيب آخر: أحمد الدهماني ومكث بمصر والحجاز وشهد مرض

الزهري في تلك الربوع. وأخبرنا عن مختلف أسمائه بها في كتابه «نفائس الدرر الحسان فيما يزيل الأمراض ويحفظ صحة الإنسان».

يطول ذكر أسماء الأطباء التونسيين الذين ذهبوا إلى الحج، والملاحظ أنه لم يكن من بينهم من ذهب إلى المشرق لتعلم الطب فقط مثل من ذهب من العلماء إلى الحجاز ومصر لنقل الفقه والحديث عن الإمام مالك أو عن تلاميذه في القرن الثالث الهجري. ومن ناحية أخرى أن تونس التي تتمتع بفضل موقعها الجغرافي في وسط البحر المتوسط كانت همزة الوصل في نقل العلوم من الشرق إلى الغرب بواسطة الحجيج الجزائريين والمغاربة والأندلسيين الذين مكثوا بتونس في طريقهم إلى مكة أو عند رجوعهم.

وقد كانت تونس محط القوافل من البر والبحر حيث يستريح المسافر من أتعاب ركوب جمله أو جواده، أو في انتظار تكوين القافلة أو إصلاح السفينة أو هدوء البحر. وأن المسافرين من ذوي المكانة العلمية من أطباء وفقهاء وفلاسفة كانوا محل الرعاية والإكرام من قبل الملوك بعاصمة تونس وبالقيروان ومن يمثلهم من العمال في البلدان الأخرى وأعيانها. وكلهم يتنافسون في ضيافتهم وإكرامهم وهناك أوقاف تنفق لفائدة المسافرين.

ولا شك أن وجود علماء من بينهم يدعون من طرف علماء البلد إلى إفادتهم والاستفادة منهم، ومن بينهم أبو مروان بن زهر الأندلسي: ذهب إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمناً طويلاً (ابن أبي أصيبعة، ص 517).

وإتماماً للفائدة نذكر الطريق التي يسلكها الحجيج لعلاقتها بالموضوع، تسلك القوافل الصادرة من تونس أو القيروان طريق ساحل البحر لكثرة القرى والمحطات التي توجد فيها المياه الصالحة للشراب وهناك طريق آخر من القيروان إلى ليبيا يمر بواحات الجريد وهو الذي يسلكه من أراد اجتناب بلد المهدية وأميرها عبيد الله المهدي الشيعي الذي تولى الملك من سنة 296 إلى 322 هـ. وفرض على الحجيج أداء خاصاً (لمنعهم الحج) ولبعض الفقهاء نظرية تدعو إلى إكراه

الحج إذ وظف عليه أداء يدفع إلى مسلم ومسموح فيه إذا كان الأداء لمسيحي لكمده، مما يؤيد قولاً قديماً:

إذا أردت الحج فمر على بندون، وبندون هذه قرية في طريق جمة على طريق الجريد على ما نظن (ذكره ابن عذارى ج 1 ص 186). أما الحجيج الوافدون من الغرب فإنهم يسلكون غالباً الطريق الأول لأن تونس والقيروان بلدتا علم وتعليم ولهما جاذبية على العلماء الجزائريين والمغاربة والأندلسيين.

يذكر العبدري أصيل بلنسية في الرحلة التي قام بها سنة 1289 م أنه قضى شهراً كاملاً من يوم خروجه من بلنسية إلى الإسكندرية على طريق البحر.

والأندلسيون الذين يسلكون طريق البر ينزلون ببلدة «سبتة» المغربية ويعرجون على قسنطينة، وكانت هذه بلد علم، ثم يأخذون الطريق الرومانية العتيقة التي تمر بالأربص إلى القيروان أو طريق الجنوب متجهين إلى جبال نفوسة وليبيا أو طريق الشمال فيمرون بباجة وكانت بلد علم أيضاً. مع الملاحظة أن الطرقات البرية لم تخل من الخطر إذا سادت قلة الأمن وكثرة قطاع الطريق. ومن الصعوبات التي يتعرض لها الحجاج، الجوع والعطش وغلاء المعاش وقلته. ذكر البرزلي المفتي التونسي عند رجوعه من الحج سنة 798/ 1376:

«قال: مرض كثير من الرجال وانقطع عن الركب آخرون ولم نظفر بخبرهم ومات رجال ببرقة من غلو المعاش والجوع وكثير منهم من أكل الحشيش وشرب الدم... وكنا في إعانتهم (مخطوط 18577 ـ 114 ورقة ـ المكتبة الوطنية).

وهناك طريقان في البحر:

الأولى طريق التوابل تحاذي شواطىء شمال أفريقيا إلى الإسكندرية تسلكها المراكب الأغلبية والإسبانية والجنوية خاصة في القرن العاشر والحادي عشر وقلت أهميتها لفائدة الطريق الثانية التي تمر بجنوب أوروبا متجهة إلى حيفا من يوم وقعت المعاهدة بين ملك فرنسا فرنسوا الأول وسليمان الثاني سلطان تركيا ضد جمهورية البندقية وأيدتها القرصنة الأفريقية (انظر «التاريخ الكوني» تأليف Jacques Pirenne

تريستة
بيروت
برت ماهون
بلنسية
اصطنبول
ازمير
اسكندرية

أمر الباي علي بإجبار البواخر القادمة من البلدان «الملوثة» على المكوث في الكرنتينة
(أنظر ص 165)

جاك بيران ـ المجلد 2 ص 359 وما بعدها طبع باريس 1945).

يذكر ابن جبير المتوفى سنة 1217 م في رحلته: أنه سلك الطريق البحرية الأولى ذاهباً إلى الحج، ورجع بالطريق الثانية ودامت رحلته عامين وثلاثة أشهر.

ولنذكر أن الإقامة بالإسكندرية وجيزة لأن مرض الوباء سائد بها طول السنة حتى قال الحجيج:

ربي احفظنا من الحجاز وغلاها ومصـــــر ووبـــــاهـــــا

الخاتمة: إن الحج الذي هو فرض على كل مسلم كان وسيلة للتبادل العلمي بين الأمم بالاتصال الشخصي بين العلماء واشتراء الكتب كل ذلك بالرغم مما يترتب عليه من المشاق والأتعاب والخطر.

الإمام المازري
فقيه وطبيب[1]

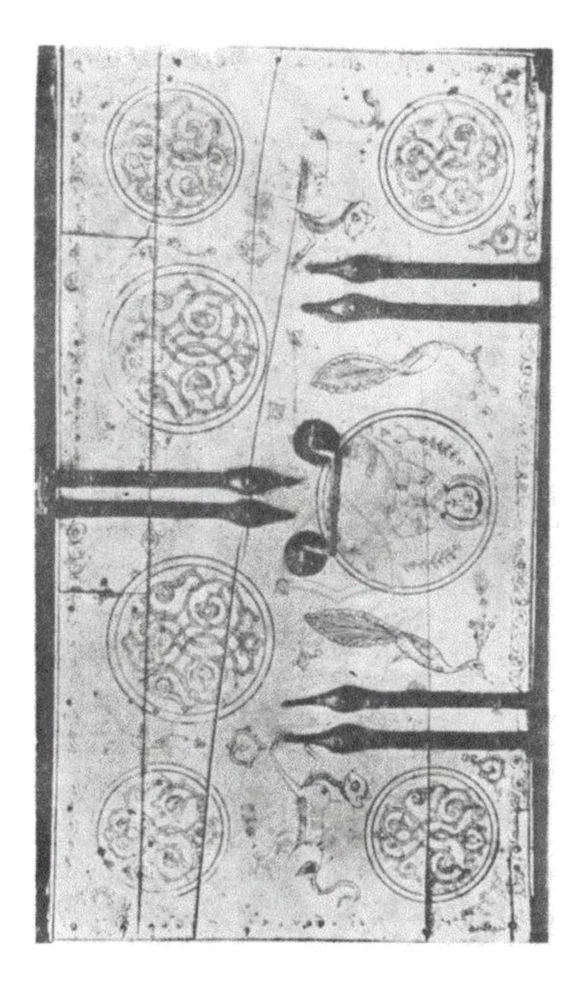
هو عبد الله محمد بن علي المازري، اسمه محمد وعبد الله كنيته، التميمي نسبته ومازره منشؤه. وتقع بلدة مازره Mazara del Vallo على الشاطىء الغربي من جزيرة صقلية تفصلها تسعون ميلاً بحرياً من بلدة قليبية الكائنة على الضفة الشرقية للبلاد التونسية، وهي أقرب مسافة بين القطرين تقطعها سفينة ـ قلاع ـ في ظرف عشر ساعات إذا كانت الرياح من جانبها. وفي مازره نزل العرب سنة 823 م للاستيلاء على صقلية.

كلمة موجزة عن فتح صقلية:

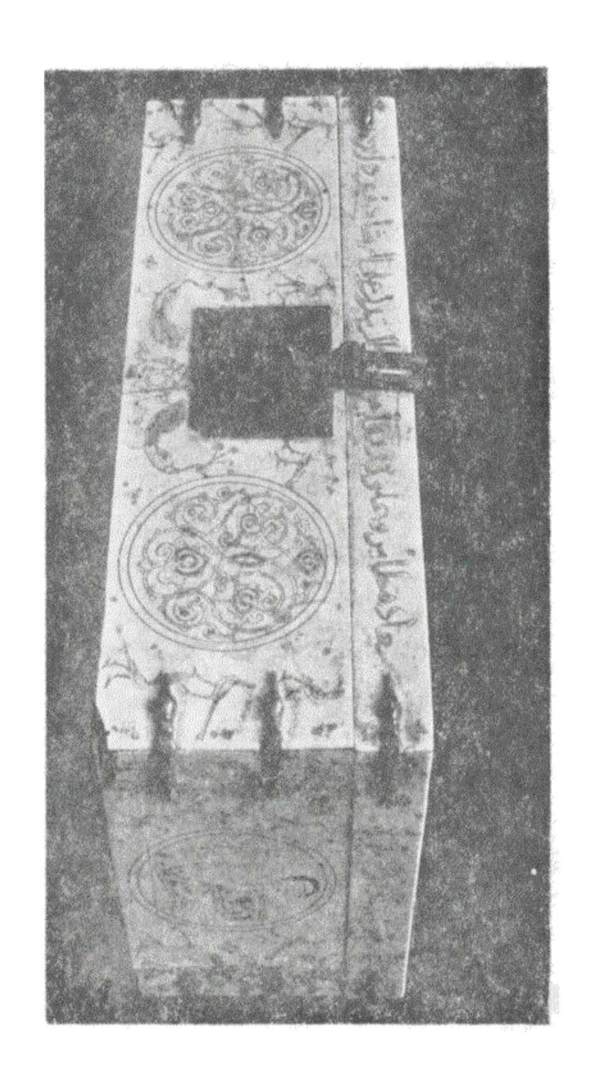
لم يفكر العرب في فتح صقلية لغرض مذهبي (ديني) حسب الظن، بل اندفاعاً لأغراض سياسية واقتصادية واستراتيجية حتمية استوجبتها الحالة الاجتماعية بالجزيرة.

(1) مقالة أصدرتها في مجلة الطب لجامعة روما ـ أفريل سنة 1973.

كانت صقلية مثل تونس تحت الحكم البيزنطي، ولما استقلت تونس لم تنج سواحلها من مناوشات الأسطول البيزنطي وخشي العرب نزولهم بها من جديد. فاستجلب الوالي حسان بن النعمان من الإسكندرية (مصر) ألف عائلة قبطية سنة 698 م مختصة في صناعة السفن وكون أسطولاً لرد الغارات واكتساب السيطرة في البحر المتوسط لفائدة التجارة. تثبت الوثائق أن إفريقية بفضل موقعها في وسط البحر المتوسط كانت الصلة بين الإسكندرية التي تأتيها البضاعة من الشرق الأدنى وبلدان المحيط الهندي، وبلدان غربي البحر المتوسط: فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وأن الحرير والتوابل من جهة والذهب (التبر السوداني) والفضة والنحاس الأندلسي من جهة أخرى تمر بتونس. وأن القلاع التجاري العربي مهدد من طرف القرصنة اليونانية التي كانت صقلية محطتها ومرساها. ولم يقف العرب مكتوفي الأيادي أمامهم ووقع التفاوض لإيجاد حل للأزمة يخدم مصلحة الجانبين وتجارتهما ووقع الصلح فعلاً سنة 812 م واتفق الجانبان على حرية التجارة وإرجاع الأسرى المسلمين إلى بلاد الإسلام والعكس. وخان اليونان الصلح واستمروا على أخذ المراكب العربية بضاعة ورجالاً ولم يخطر ببال القيروان الاستيلاء على الجزيرة. وفي سنة 827 م أتى النداء من صقلية نفسها لفتحها من طرف العرب. كانت في تلك السنة الحالة السياسية والاجتماعية مضطربة بصقلية. كانت الكنيسة تملك الأراضي الشاسعة وكاهل الفلاح مثقل بالضرائب، وقامت ثورات عديدة. وممن شق عصا الطاعة المسمى «فيموس» رايس القلاع الصقلي وكان انتصاره وقتياً فخاف على نفسه وعلى رجاله وتوجه إلى إفريقية يطلب جيشاً من المرتزقة لإرجاع نفوذه، وحل بالقيروان. فجمع أميرها إبراهيم بن الأغلب الثاني العلماء والشخصيات وشاورهم في الأمر فكانوا شقين: واحد يشير بالغزو والاستيلاء على الجزيرة لنقضها معاهدة الصلح ويمثله أسد بن الفرات، والآخر يؤيد معاهدة الصلح التي وقع إبرامها سابقاً ولم يعلن على إبطالها. وانتصر في النهاية الشق الأول وخاب فيموس في رغبته وآماله وهو ما يقع في مثل هذه الظروف، وكان فتح صقلية لفائدة الإسلام.



صورتان لصندوق من القرن الحادي عشر ميلادي اكتشف بصقلية.
يلاحظ أن صاحبه اعتنق المسيحية ولا زالت كتابته عربية (من متحف لايدن ـ هولندا)



دام فتح صقلية عشرات السنين ولم يكن بالأمر الهين، ومع ذلك فإن العرب أدخلوا من يومهم الأول لغتهم ودينهم ومدنيتهم ومكثوا بها طيلة قرنين ونصف قرن وتكونت أجيال من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء من الصقليين أنفسهم. ولما حل النرماند بالجزيرة أظهروا التسامح نحو المسلمين من الأصل العربي أو الصقلي ومنهم من وصل إلى درجة عليا في الحكومة، وهاجر كثير منهم إلى بلاد الإسلام وإلى تونس خاصة لقربها من صقلية وعددهم مائتا ألف تقريباً، ربما كانت عائلة الإمام المازري من بينهم. وكذلك الأطباء الصقليون الذين اشتهروا بتونس في القرنين السابع والثامن للهجرة.

نجهل إن كان الإمام المازري ولد بصقلية أو بالقيروان أو بالمهدية. والذي نعلمه أنه تتلمذ على علي اللخمي وعبد الحميد الصائغ وهما من أجلة علماء القيروان. واستقر بالمهدية وكانت إذاك عاصمة إفريقية وتصدى للتعليم، وصار من علماء الشريعة يستشيره قاضي المهدية في الصعوبات. وألف كثيراً وتعلم الطب وألف كتاباً مفقوداً حالياً، وكان يشد إليه الرحال في الإفتاء والطب حسب ما ذكره عياض في كتابه.

يذكر أنه مرض ذات يوم وكان يطببه يهودي، فقال له عند زيارة له: «سيدي أي حسنة أتقرب بها إلى ربي لما أعالج رجلاً دينياً مثلكم» فلم يجبه المازري وصرفه ولما برأ تعلم الطب. ولنا منه فتوى في هذا الفن تثبت مكانته. وتوفي (536/ 1141) ودفن بالمنستير حيث يوجد ضريحه.

عزيزة عثمانة لم تؤسس مستشفى

هي حفيدة عثمان داي، عرف بها للمرة الأولى أحمد بن أبي الضياف في كتابه «إتحاف أهل الزمان» ج 2 ص 31 بقوله: «وترك عثمان داي ذرية تفيئوا ظل الوجاهة والثروة بالحاضرة. وأحباس حفيدته عزيزة عثمانة لم تزل للضعفاء بالمرستان ينتفعون بها الآن». وأطنب القول بالتعريف بها حسن حسني عبد

الوهاب فسماها المحسنة الكبيرة ووصفها في كتابه شهيرات التونسيات ص 89 ط. 1934 بما يلي: «ومن أطيبهن (التونسيات) نشراً وأجلهن قدراً الأميرة الجليلة عزيزة عثمانة بنت أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان داي صاحبة المبرّات ومسدية البركات ومفيضة الخيرات... نشأت في الإمارة واليسار والكرم... فبرزت مثالاً للطهر... وزوجها أبوها قيل من حمودة باشا فكانت رمزاً للتقوى والصلاح... فحجت وحج معها خدمها وعبيدها... أما الأعمال الخيرية التي أجرتها فكثيرة منها مستشفى داخل الحاضرة بحومة العزافين...».

وفي خلاصة تاريخ تونس للمؤلف نفسه يذكر «زوجها أبوها بمن يلائم مقامها الرفيع قيل يوسف داي» وخص محمد بن الخوجة مقالاً ضافياً لمستشفى العزافين سنة 1939 مستنداً على وثيقة بإمضاء عدلين بين فيها أن هذا المستشفى أسسه حمودة باشا المرادي سنة 1073/ 1662 وتزوجت عزيزة عثمانة حمودة باشا. أما ابن أبي دينار الذي عاصر الدايات وأرّخ عصرهم فلم يذكر عزيزة عثمانة ولو بكلمة واحدة والمعلوم أنها نشأت بتونس في النصف الأول من القرن الحادي عشر هجري والسابع عشر ميلادي وسميت عثمانة نسبة إلى جدها عثمان داي وماتت من غير عقب سنة 1080/ 1660. وقبرها بتربة أبيها نهج البلاغجية زنقة الشماعي عدد 13.

ثروة عزيزة عثمانة:

ثروة عزيزة عثمانة أتتها من جدها عثمان داي وهو ثالث الدايات الذين حكموا تونس في العهد التركي من سنة 1007/ 1598 إلى 1019/ 1610 وكلمة الداي معناها الخال في اللغة التركية وتدل على علو القدر في الجيش. ولما أوقع سنان باشا بالجيش السبنيوري وهزمه رجع إلى اسطنبول وأبقى إدارة البلاد بيد الضباط الأتراك الذين يجتمعون للمشاورة في مجلس سمي «الديوان» وكان عددهم يفوق المائة وكانوا على جانب من الفوضى لكثرتهم وتعدد آرائهم. وفي سنة 1009/ 1590 وقع غضب من طرف العساكر (الإنكشارية) على الضباط فحكموا

فيهم السيف وكانوا فرقاً متعددة، وعينوا زعماء آخرين فاجتمعوا وكان عددهم ثلاثمائة وعينوا شخصاً يرأسهم يكون «داياً». فكان عثمان ثالث الدايات الذين تقلدوا الحكم بتونس. وسير عثمان أعماله وخطاه بمشاركة الديوان على جانب من الجاه والقوة، فواجه الفوضى التي سادت البلاد من يوم دخل الخلل والهرم في الدولة الحفصية، وامتد واستحكم خلال الاستيلاء السبنيوري، وانفكت وحدة البلاد باستقلال العروش، واختل الأمن، وهجر الفلاحون المزارع، وقل الإنتاج، وغلا المعاش، واشتد الفقر، وانحطت قيمة العملة، وكانت المسغبة وظهور الوباء (وباء بلغيث سنة 1013 هـ) فواجه عثمان داي الأزمة بشجاعة وعزم لا ينفكان ولا ينقطعان فاضهد القبائل المتمردة وانتزع أراضيها وأضافها إلى ممتلكاته الخاصة وتجمعت لديه ثروة هائلة ونمت هذه الثروة من مورد آخر وهي القرصنة وتعزز جانبه وقوي.

فقد كانت للدايات والبايات من بعدهم وللأثرياء مراكب تغزو شواطىء صقلية وإيطاليا وسردينيا وكرسكا وتسطو على مراكبها إذا ظفرت بها وتفتكها وتستولي على بضاعتها وتأسر رجالها. يذكر توفيق بشروش[1] مستنداً على مصادر ثابتة أن حوالي 1610 م كان لتونس أربعة مراكب للحرب لكل واحدة منها 24 و 25 و 28 مدفعاً وأربعة أو خمسة مراكب لكل واحد 25 و 16 و 19 بنكاً لجلوس القذافة. ولعثمان داي وحده ستة مراكب كبرى وأربعة صغرى وسبع مائة (700) عبد من أسرى القراصنة. واشتهر ابناه محمد وسليمان بتجهيز المراكب على نفقتهم الخاصة للقرصنة. ولا شك أن أحمد بن محمد أبا عزيزة عثمانة سلك مسلك أبيه وترك لها ثروة هائلة. وتوجد بخزانة الدولة عدد 6 ملف 700 وملف 62 وثائق وجدول تثبت الأملاك التي ورثتها عزيزة عثمانة من جدها عثمان داي بتوقيع حمودة باشا المرادي ولا توجد عقود ورسوم لهذه الممتلكات لأنها اغتصبت من أصحابها ولم تشتر، ووثيقة أخرى تنص على تحبيس ثلث ممتلكاتها على

(1) Taoufik BACHROUCH: Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIè Siècle- Edition 1977.

ورثتها ولا تبين نوعها وعددها، ووثيقة ثالثة تنص على قسمة عقارات بينها وبين ابنتي عمها فاطمة وقمر، ووثيقة رابعة تسند إلى عزيزة عثمانة نصف هنشير يمسح 8000 هكتار في ناحية صفاقس يقطنه اليوم عرش المثاليث وقد أجلى عثمان داي أصحابه إلى ليبيا وامتلكه. وهناك وثيقة أخرى جديرة بالاهتمام صادرة من قبل رئيس المحكمة العقارية بتونس بتاريخ 1930 جاءت في قالب اختبار في نزاع وقع بين إدارة الأوقاف العامة والقاطنين بالهنشير المذكور في شأن مغارسات أشجار زيتون ولا يخفى على أحد ما لهذه الوثيقة من الدقة، ولا تذكر واحدة من هذه الوثائق أن عزيزة عثمانة حبست عقاراً على مستشفى أو مشروع عام. والمظنون أنّه بعد وفاتها وقد ماتت عن غير عقب أسندت ممتلكاتها إلى إدارة الأوقاف العامة وهي الوارثة الشرعية وخصص دخلها للمشاريع العامة مثل المستشفى وترميم أسوار البلاد وفداء الأسرى وإعانة العجز، ومنها وقع تعبيد الطريق الفاصلة بين باب المدينة الجديد وباب الجزيرة. هذا ما وجدنا في أرشيف رئاسة الدولة ولم نتمكن من مطالعة وثائق إدارة الأوقاف العامة لأنها ليست تحت الطلب في هذه الظروف.

هذا وقد وقع فحص جميع هذه الوثائق من طرف المحقق محمد بن الخوجة يوم ترأس هذه الإدارة ولم ينشر شيئاً يثبت إسناد تأسيس مستشفى العزافين لغير حمودة باشا المرادي وهو الكائن بنهج القصبة عدد 101 ونقل إلى قشلة البشامقية سنة 1292/ 1875 وسمي المستشفى الصادقي نسبة إلى الصادق باي الذي دشنه ثم سمي باسم عزيزة عثمانة في السنوات الأخيرة.

بقي لنا أن نبحث كيف نشأت الملابسة التي أسندت تأسيس المستشفى إلى عزيزة عثمانة؟ يحتمل أن الصدقات وختان أطفال من الفقراء وقعت بالمستشفى بإشارتها وانتشر الخبر بين الخاصة والعامة وتضخم الحدث بمرور الأيام والأعوام وأصبح اعتقاداً راسخاً في العقول وأطلق الناس كلمة مرستان عزيزة عثمانة على كل مرستان. يذكر محمد بن الخوجة الذي تولى قيادة (ولاية) منطقة بنزرت في عدد [من] المجلة الزيتونية القصة التالية: جاء ذات يوم شيخ (عمدة) قرية مجاورة لبلد

بنزرت في شهر أكتوبر 1939 وأعلمه أن أحد الرعايا أُصيب برصاصة فحمله إلى مستشفى عزيزة عثمانة يشير بذلك إلى المستشفى العسكري الفرنساوي بقرية سيدي أحمد بالقرب من منزل بورقيبة اليوم.

إن حسن حسني عبد الوهاب أخذ الأسطورة كحدث تاريخي من غير تثبت وترو، وكون من شخصية عزيزة عثمانة «المحسنة الكبيرة وكوكبة المساكين» إلى آخره من الإطناب في الإطراء والمبالغة في الأوصاف الحميدة حتى دخلنا الشك في قوله خصوصاً وكلنا يعلم ما عاناه الشعب التونسي من كل مستعمر ومن ويلات الأتراك أنفسهم ولم يكونوا أحسن من سواهم بل كانوا على جانب من الغلظة ومن القساوة إلا ما قل. ومن استظهر منهم بحسنة فذلك لابتغاء مرضاة الله ليكفر عن خطاياه ويغفر له سيئاته ولا نظن أن عزيزة عثمانة اتصفت بما شاء مؤرخها أن يصفها به، بل هناك عبارة رددتها الألسن بالعكس من ذلك جاء فيها: «عزيزة عثمانة يعطيها دمالة قد الدعلالة» وهي تشير إلى القساوة التي كان يعانيها عبيدها.

الخلاصة:

إن عزيزة عثمانة لم تتزوج يوسف داي وهو أمر محقق. ولم يجزم أحد أنها تزوجت حمودة باشا. وماتت عن غير عقب ولم توجد وثيقة تثبت أنها أوقفت عقاراً على مصلحة عامة أو مشروع خيري وأظن أن ما كتب عنها من مبالغة في أوصافها وشيمها يعتبر من باب الأسطورة إلا إذا ظهرت وثائق جديدة لا ريب في صحتها.

التنظيم العائلي وتحديد النسل

ألقى المعز لدين الله رابع سلاطين الدولة العبيدية بالمهدية الذي ترأس من سنة 345 إلى 362 هـ خطاباً يأمر فيه رؤساء القبائل باجتناب التظاهر والتكبر والتجبر وعدم التكثير من النساء والتزام الواحدة منهن حتى لا ينقص عيشهم وتعود المضرة عليهم وتنهك أبدانهم وتذهب قواتهم وقال: حسب الرجل الواحد الواحدة...

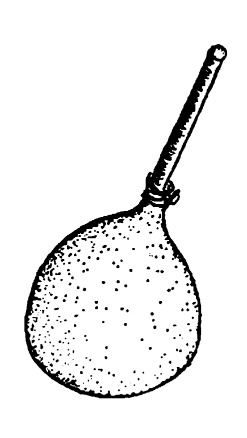
وفي ذلك العصر وتلك المدة نفسها يذكر الطبيب أحمد بن الجزار في زاد المسافر في المقالة السادسة والباب الرابع عشر، ثمانية عشر دواء مفرداً أو مركباً لإفساد النطفة أو إسقاط الحمل وإخراج الجنين حياً أو ميتاً، وقد ذكرها بصفة غير مباشرة ناصحاً عدم استعمالها، نذكر منها القطران يدهن به الإحليل قبل الجماع أو في خليط بدواء آخر تغمس فيه صوفة وتوضع في الفرج لإسقاط الحمل.

إن التنظيم العائلي ابتدأ بتونس منذ تسعمائة سنة على الأقل قبل عهدنا هذا ولا شيء جديد تحت الشمس.

البـــاءة

يعتبر الأطباء أن كثرة الحرارة الغريزية تكثر شهوة الجماع، وكثرة الرطوبة على الأنثيين تكثر المني والريح النافخ في عروق الإحليل المتصلة بالقلب تدفعه إلى الإنعاض. وكثير الشعر من الناس يكثر جماعه.

ولم تخل كتب الطب المطولة من مقالة في ضعف الباءة وعلاجها، الأمر الذي يدل على اهتمام الناس بالنكاح وقد كان لذوي اليسار إمكانية التمتع بأكثر من امرأة فأصبحت قلة الشهوة عندهم وعند غيرهم من الشيوخ محل الاهتمام من طرف الأطباء. والملاحظ أننا لم نجد في كتبهم إلا علاج الضعف والأدوية لا غير. منها: تناول أكباب القرفة، والفستق وخصية الديك، ومعجون القرنفل، أما الرسائل التي تدعو إلى إثارة الحواس بوصف المرأة ورشاقتها وزينتها وإلى الشوق والحب ولذة اللمس والبصر ووصف الفرج والوقاع فإنها لا تمت إلى الطب في شيء مثل «رسالة الروض العاطر في نزهة الخاطر»، مخطوط رقم 8665 بالوطنية للكاتب محمد النفزاوي التونسي. وقد طبعت هذه الرسالة وترجمت إلى اللغة الفرنسية وطبعت بها أيضاً. ومن هذا الكتاب نسخة أخرى رقم 1366 وطنية.



الحقنة أنبولة خروف يوضع فيها الدواء وقصبة أو ما يشبهها من الفضة المصنوعة تشد بها شداً محكماً.

الطب في الأدب التونسي

بحث قدم للمؤتمر الطبي العربي الذي انعقد بالخرطوم سنة 1976 :

يحتل الشعر في الأدب التونسي مكاناً عظيماً، سجل أخبار الملوك والرجال والدول والحوادث، وتغنى الشعراء بالطبيعة والمحاسن والخيال والعشق والفلسفة والوطنية. هابتهم الملوك ونالوا الوجاهة وجزيل العطايا وكان هجاؤهم المخلص موعظة وثناؤهم المتكلف نقيصة.

وممن أثنى على طبيب وهو طبيب مثله: كجاشم الشامي مدح أبا جعفر أحمد بن الجزار القيرواني وكان معاصراً، قال:

أبـا جعفـر أبقيـتَ حيـاً وميتـاً مفاخر في ظهر الزمان عظاما

رأيت على زاد المسافر عندنا من الناظرين العارفين زحاما

فأيقنت أن لو كان حياً لوقته يحنـا لمـا سمـى التمـام تمـامـا

سأحمد أفعالاً لأحمد لم تزل مـواقعهـا عنـد الكـرام كـرامـا

ألف أحمد بن الجزار كتباً كثيرة أحسنها «زاد المسافر» الذي دخل الأندلس والشام في حياته أثناء القرن الرابع الهجري وأُوروبّا في القرن الخامس وترجم إلى اللاتينية والإغريقية والعبرانية ووقع التدريس به من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع عشر مسيحي وكل هاته النصوص موجودة إلى يومنا هذا في المكتبات الدولية بإيطاليا وإنكلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا وغيرها. وأحمد بن الجزار هذا وإن اشتهر بالطب فقد كتب في التاريخ ونظم الشعر وأصاب. يذكر له المقري في

نفح الطيب الأبيات التالية:

وما زلت أجني منك والدهر ممحل ... وما ثمر يجنى ولا زرع يحصد
ثمار أياد دانيات قطوفها ... لأزراقها ظل عليّ ممدَّد
[يُرَى] جارياً ماءُ المكارم تحتها ... وأطيار شكري فوقهن تغرد

وهي أبيات تمتاز برقة اللفظ والمعنى جاءت في شكر الأمير عبيد الله المهدي أو أحد أبنائه وقد أجزل إليه العطاء.

وما دمنا في القيروان نذكّر بعلي بن إبراهيم الأربصي من القرن الرابع. وكان طبيباً وأديباً يرتجل الشعر بسهولة ذكره معاصره ابن رشيق قال: مليح الكلام حسن النظم لألفاظه حلاوة يذهب إلى الفلسفة في شعره.

أسمع ابن رشيق أول مرة اجتمع به الأبيات التالية:

إذا الشمس حواها جسم لؤلؤة ... يغيب من لطفهِ فيها ولم تغب
صفراء مثل النُضَارِ السكب لابسة ... درعاً مكللة دراً من الحبب
لم يترك الدهر منها غير رائحة ... تضوَّعت وسناً ينساح كاللهب
إذا النديم تلقاها ليشربها ... صاغت له الراح أطواقاً من الذهب

فرماه ابن رشيق بالتكلف وكان شاباً، والطبيب شيخاً مسناً، ودار بينهما جدال حول السرقات في الشعر، وذكر كثيراً من الشعراء، ومن المعلوم أن القيروان كانت تُؤوِي في ذلك العصر أكثر من مائة شاعر.

ومن القيروان ينتقل إلى المهدية عاصمة الأمراء العبيديين قبل انتقالهم إلى القاهرة ثم عاصمة الصنهاجيين وقد استقر فيها الملك وساد الأمن وكثرت الموارد من أفريقية وصقلية ونضجت العلوم ودونت، وتكاثر الأدباء والأطباء واشتهر منهم ابن أبي الصلت أمية الذي حاز مكاناً ممتازاً في الشعر والسياسة، وأصيب بمحنة في مصر واعتقل في سجن المعونة ثلاث سنوات وشهراً تعلم أثناءها الطب وكانت له نكت طريفة. قال في طبيب اسمه شعبان:

يـــا طبيبـــاً ضجـــر العـــا ... لـــم منـــه وتبـــرّم

فيـــك شهـــران مـــن العـــا ... م إذا العـــام تصـــرّم

أنـــت شعبـــان ولكـــن ... قتلـــك النـــاس محـــرّمْ

ومن الشعراء الذين لهم أثر في الطب ولم يكونوا من المتطببين، الباجي المسعودي أهل النصف الأخير من القرن الثالث عشر هجري. كان كاتباً ومؤرخاً عشق البذاخة، واللهو، والمجون، وأصيب بالحب الإفرنجي فوصف مرضه وصفاً كاد أن يكون كاملاً. وذكر الدمل وسقوط الشعر، وضرب المفاصل، والانهيار.

* * *

هذه أبيات من الصيدلي صديقي الحبيب جاء وحده المتوفى سنة 1967 أنشدها يوم العيد أيام الاستعمار الفرنسي:

أتـى العيـد كـالأعيـاد محتفـلاً بـه ... ولا عيد لي ما دام شعبي مرهقا

فعيـديَ أن تغـدو بـلادي حـرة ... وأبهج يوم أن أرى الشعب مطلقا

وأخرى في السخرية من وعود المقيم الفرنسي الخلابة:

وعـــد المقيـــم عنـــده ... وعـــد كـــرام بـــررة

كـــم مـــن مقيـــم قبلـــه ... مـــن الكـــرام العشـــرة

بشـــرنـــا بقمـــر ... ولـــم نشـــاهـــد قمـــرة

قـــال لـــدى تجنيـــدنـــا ... كغنـــم مسخـــرة

ســـوف تصيـــر تـــونـــس ... رشيـــدة محـــررة

يـــا رب فـــاجعـــل وعـــده ... مثـــل البـــروق الممطـــرة

لا تجعلنـــه خلبـــاً ... كـــالفيـــه الفجـــرة

وأخيراً هذه النكتة من نكته وهي كثيرة:

طلب من خاله واسمه الجودي كتاب «العمدة» للشاعر والناقد ابن رشيق القيرواني فلم يستجب لطلبه فأنشد على البديهة قائلاً في هجاء خاله:

فجد لي به طوعاً وإلا فإنني | أناديك منذ اليوم يا خالي الجود

ونكتة أخرى:

أحب المريض وأدعو له | بطول الشفاء وتأجيله
وإن مات أحزن حزناً كثيراً | وأبكيه أكثر من أهله

* * *

أصيب الشاعر الباجي المسعودي بمرض الزهري، فأشار عليه أحد الأطباء بالاستحمام بمياه جبل قربص المعدنية ذات المفعول المجرب في أمراض البشرة لوجود الكبريت فيها، وقربص هذه تبعد عن العاصمة التونسية أربعين كيلومتراً ولا يوجد فيها آنذاك مرستان ولا فندق إلا أكواخ وقليل من الدور المبنية بالحجارة وفقد الشاعر هناك رفاقه وأصحاب الأنس، فرق قلبه وأنشد:

عليل غريب ولا مؤنس | يحنّ لرؤياك يا تونس
يموت إذا ما يجن الدجى | ويحيا إذا نصل الحندس
وما مال من نزحت داره | وقربه للعناء قرب يؤنس
فلات اقتدار ولات اصطبار | ولات افترار ومن ينبس
ومن دون هذا تطيش الحلوم | وتدمى الكلوم ولا تحبس
وما تقع العين إلا على | مريض ثياب الضنى يلبس
ضنرى كل ذي علة خافتا | يئن إذا ضمه المغمس
يبيد الجليد ويشوي الجلود | كذات الوقود إذا يلمس
وحيناً تراهم كأهل اللكام | تجوب الجبال وما تجلس
وما نزهة غير عين التيوس | وعين السلاحف لا قدسوا
فكان سحيق وحزن وضيق | وفقر يسوق العنا بسبس
فقل للأحبة لا مسهم | هوان إذا انتظم المجلس
وباح العبير ولاح السرور | وحياهمُ الورد والنرجس
إذا ما شجاكمُ ذكر الحبيب | وعلق مودته أنفس
فقولوا بما تعلموا من أخ | محاسنه بينكم تدرس

وامتحن الكاتب والمؤرخ حسين خوجة[1] بحمى عالجها بإيطاليا بالكينة Quinine وكانت تدعى «الكينة كينة» فبرأ وجلب منها كمية وزعها على أصدقائه، وصادف أن كانت حمى الملاريا منتشرة بتونس وشهد الناس من اقتناء الكينة الفائدة والعافية. كان ذلك حوالي سنة 1138/ 1726 والمعلوم أن الكينة قشور شجرة جلبها لأول مرة قسيس من بلاد البيرو Pérou إلى إيطاليا قبل ذلك العهد بسنين قليلة وكان لمعرفتها وقع كبير، وألف حسين خوجة هذا رسالة في علاج الحمى كان لها الصدى الحسن وتواردت عليه عبارات الشكر والثناء الجميل من علماء تونس وكبارها.

* * *

أما نصيب الطبيب في الأدب الشعبي فهو يمتاز بالشكر والتمجيد والتعظيم. هناك أسرة نزحت من جزيرة صقلية إلى تونس في القرن السابع الهجري على سبيل التقريب واشتهر أفراد منها بصناعة الطب وأجادوا وألفوا الكتب القيمة التي تشهد بمكانتهم وعلمهم وذيوع صيتهم ومؤلفاتهم بمدن بأفريقيا الشمالية ودمشق والقاهرة وبغداد واسطنبول، ومن هؤلاء الأطباء محمد الصقلّي الذي استضافه الملك برقوق بالقاهرة وهو في طريقه إلى الحج وطلب منه أن يكتب له رسالة في الوقاية من الوباء، وأحمد الصقلي وغيرهما. ولما كانوا من أسرة واحدة ويحملون لقباً واحداً فقد أصبح الشعب التونسي لا يفرق بين هذا وذاك كما أصبح لقبهم «الصقلي» الذي يدل في الحقيقة على نسبتهم إلى صقلية بلدهم الأصلي علماً على الطبيب العظيم الذي لا يماثله أحد بل صاحب المقدرة الربانية.

ويذهب غيره إلى تأويل آخر ويقول: كان الصقلي يفهم لغة النبات، إذا خرج للبادية لالتقاط الأعشاب تناديه الأعشاب «يا صقلي» وكل واحدة تذكر بمفردها خاصيتها، وفاعليتها فتقع غوغاء، ولا يفهم شيئاً فيقف ويقول لها جميعاً «أس» فتسكت ثم يشير إلى الواحدة بعد الأخرى ويقول لها «قل لي» فتذكر أهميتها ونفعها ومن هاتين الكلمتين «أس» و «قلي» سمي الصقلي.

---

(1) سبق الحديث عنه ص 215.

الشاعر المريض

جاء جعفر المستشفى
ملجأ الفقراء
البؤساء
يشكي كبده
طال انتظاره
لم يحظ بالأسبقية
ضاقت نفسه
غضب
انصرف
فاضت مرته السوداء
غمس قلمه وهجا
لو كان سحنون قاضي القيروان
حياً
لأدبه بالعصا
لبخله
وجهله المساواة
وشتمه للأطباء ظلماً

أحمد بن ميلاد

دار ابن الجزار

أنشأ صاحب هذا الكتاب، بالحي الشعبي ببطحاء الحلفاويين سنة 1935 مستوصفاً من مجهوده الخاص، وكان أول عمل من هذا الصنف أسس بتونس مبادرة من التونسيين أنفسهم وهم الدكاترة الأخصائيون:

الراضي فرحات: طب العينين.

محمد حجوج: طب النساء.

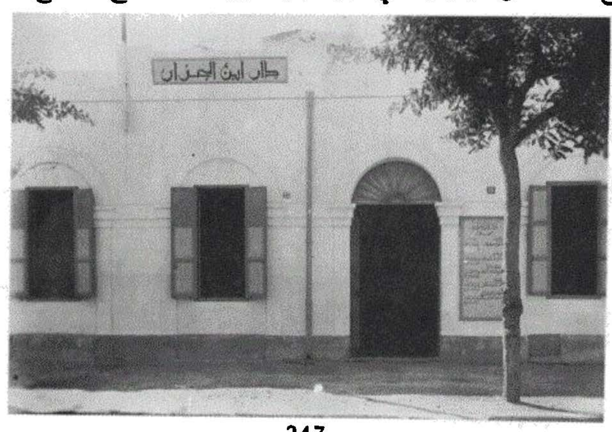
الطاهر الزاوش: طب الأنف والحلق.

بدره بن مصطفى: قابلة.

صالح عويج: طب الأسنان.

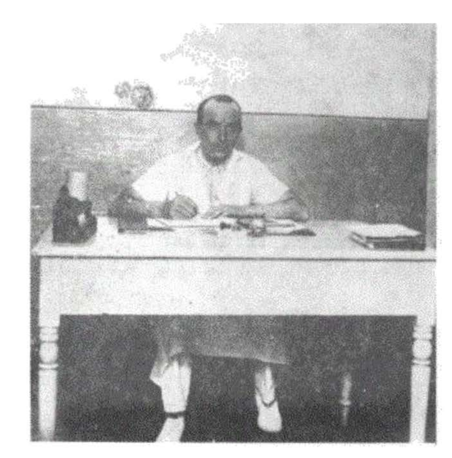
أحمد بن ميلاد: أمراض الصدر.

ويوم اشتعلت الحرب العالمية الثانية اتجه عمل المستوصف إلى الدفاع المدني لإغاثة من أصابهم القذف الجوي، بحزم كتلة من الممرضين وناقلي الجرحى، وتوقفت أعمالهم يوم أصيبت أحياء العاصمة التالية: نهج ابن ضياف، وربض الجيارة، وربض سيدي البشير، وحي البساج. ثم أصبح المستوصف مقراً للتلقيح ضد الحمى التيفوسية التي ظهرت إثر الحرب وكان العلاج والتلقيح مجاناً.





الحكيم الراضي فرحات



الحكيم الطاهر الزاوش في دار ابن الجزار (1936)



القابلة بدرة الورتاتي بي مصطفى



الحكيم صالح عويج



الحكيم محمد حجوج

الخاتمـة

هذا ما أمكنني إنجازه من تاريخ الطب العربي التونسي وهو قابل لزيادة البحث والتوسع فيه يوم يعثر على مخطوطات أخرى في الخزائن العامة والخاصة، لم أتمكن من الاطلاع عليها وفحصها، وهنا قسم آخر من هذا التاريخ لم أستوفه بالبحث وهو ما بقي من مواد العلاج النباتية الصالحة ليومنا هذا، يوم استحكمت فيه المواد الكيماوية التي لم تخل من الخطر على الصحة. وقد حاولت تحقيق ما جاء من الغلط أو المجازفة في حياة بعض الأطباء ولم يخطر ببالي عرض جميع الوثائق التي توفرت لديَّ. فقد رتبت منها ما استطعت وبوبتها حسب الزمان والمكان وأبرزت إنتاج كل عصر وخصائصه وتوليت نقد ما وجب نقده. وأشرت إلى ما أخذه العرب عن غيرهم: اليونان والإفرنج، مما كان في معلومي وأثبت حياة المؤلفين وبيئتهم وما لهذه البيئة من تأثير على إنتاجهم العلمي. وأشرت إلى طابع هذا الإنتاج ووحدة اللغة التي ألفت بين الأطباء جميعاً وجعلت منهم عنصراً متكاملاً. وكذلك التسامح الذي ساد بينهم ولم تنفك عراه، وكان عاملاً آخر في رقي الطب في القيروان وتونس العاصمة. ولم أنس العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وما كان لها من تأثير على رقي الطب أو ركوده. وهو الجانب الإنساني من التاريخ وسجلت المخطوطات الطبية التي أمكنني العثور عليها في بعض المكتبات الأجنبية شرقاً وغرباً وهي تدل على انتشار الطب التونسي والحظوة التي حظي بها في القرون الوسطى في أوروبا وفي الشرق، ولم أهمل المعالم الصحية من مستشفيات وتكايا التي لم يتعرض لها الإخباريون إلا قليلاً. ومن يتأمل

في تطور الطب التونسي عبر المراحل التي مر بها يتبين له أنه كان متقدماً على ما كان عليه في أوروبا في أول الأمر ثم صار في مستواه ثم تأثر به وسلك طريق نموه. وإذا تركت جانباً فترات الركود التي تعتري كل حضارة وكل مجتمع وجدت أن صفحة الطب العربي التونسي حافلة بجملة من أعلام الأطباء وهي عبرة. ولاستخلاص العبرة يكتب التاريخ.

مساهمة في دراسة الطب العربي
في الجزائر والمغرب

مساهمة الطب العربي في الجزائر

مساهمة متواضعة في الطب العربي، قدمتها في مؤتمر الأطباء المغاربة بالجزائر سنة 1972.

كان للجزائر علماء كثيرون، منهم الفقهاء والأدباء والأطباء. ومن الأسف أن كتب التاريخ تفوح بأسماء الفقهاء وتغفل عن أسماء الأطباء. ربما كان ذلك بسبب الحروب المتوالية طيلة القرون التي تلفت فيها كثير من الكتب. وربما كان ذلك تقصيراً في البحث عن هذا التراث العلمي. وعلى كل، لا بد من توجيه الجهود لتلافي هذا السهو أو التقصير.

ألم تكن تلمسان عاصمة بني عبد الواد محط القوافل وسوق الذهب الذي يأتيها من السودان؟.

ألم تكن بجاية أحد مراكز الحكم للحفصيين وبني حماد والموحدين؟ قد كانت سوقاً عامرة حافلة لفحص فلاحي غني بموارده، ومرسى تجاري ومحطة القوافل التي تأتي من الصحراء ومرسى السفن التي تجول البحر الأبيض المتوسط آتية من أروبا متوجهة إلى الإسكندرية وحيفا أو راجعة إليها مشحونة بالحرير والتوابل. وكانت أيضاً طريق الحجيج الأندلسيين والمغاربة واحتضنت كثيراً من مهاجري الأندلس الذين حلوا بأموالهم وصنائعهم. كانت تلمسان، وبجاية، وقلعة

بني حماد، من عواصم النهضة والمدنية الجزائرية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي)، وكثير من المدن الأخرى التي اشتهرت بعمرانها وإنتاجها الزراعي والصناعي والتجارة الزاهرة، إن هذه العواصم لم تخل من الأطباء والصيادلة، لذلك يجب البحث الحثيث المتواصل عن طبقات الأطباء الجزائريين، وأشخاصهم، وإنتاجهم، وكتبهم، ولعل الكثير منها في الخزائن الخاصة ومجهولة من أصحابها أنفسهم.

وهذه باقة من أسماء الأطباء الجزائريين التقطتها أثناء البحث عن الطب العربي بتونس، تاركاً الطبيبين **عبد الرزاق الجزائري ومحمد السنوسي** اللذين أطنب في البحث عنهما لسيان لكلار Lucien Leclerc وشربنو Cherbonneau وتاركاً كذلك البحث عن تاريخ الأوبئة بالجزائر التي يجب تحقيقها بتثبت وترو.

1 ـ علي بن محمد: من بلد عنابه كان فقيه البدن ووليا صالحاً، يملك كتباً كثيرة ويحسن الخط. توفي سنة 957 م، وكلمة فقيه البدن يعنى بها: متضلع في أجزاء البدن وأمراضه. وكان من هذا الصنف من المتطببين بإفريقية والقيروان عدد كثير.

2 ـ عبد الله بن يوسف الوهراني: من بلد وهران كان متضلعاً في الطب والحساب، تتلمذ على علماء القيروان، كان ثقة برز سنة 1037 م.

3 ـ عمران بن علي بن بذوخ: من قلعة بني حماد. كان طبيباً متضلعاً، خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، بحاثاً في الكتب والاطلاع عليها. محققاً للأدوية التي أشار إليها القدماء. له دكان يجلس فيه، توفي سنة 1179 م/ 1764 عن سن عالية، وله من الكتب:

- شرح كتاب القانون لعلي بن سينا.
- شرح كتاب أبقراط Les Aphorismes.
- كتاب الزهور الصالحة للطب.
- كتاب في الباه.

4 ـ علي بن ثابت التلمساني: عالم بالطب والتاريخ كتب كتباً كثيرة. ولد سنة 1370 م وتوفي سنة 1416 م.

5 ـ الخطيب بن عبد السلام التلمساني: تعلم الطب بالقيروان والقاهرة ومهر فيه. يسكن بقرية «العباد». ذكره ابن خلدون وكان معاصراً له ولد سنة 1310 م.

6 ـ أحمد بن بلقاسم التميمي البوني: نشأ ببونة (عنابة) ذهب إلى المشرق، كتب كتاباً اسمه: الأدوية المفردة الثابتة للأذكياء. توفي سنة 1726 م.

7 ـ محمد بن مرزوق التلمساني: لم أعلم عن تاريخ ولادته ووفاته وحياته شيئاً، وما أعلمه أنه كتب رسالة في قصر الباه مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 17970.

8 ـ سحنون بن عثمان المتطبب: برز في القرن العاشر الميلادي وضريحه بالورشنيس، له كتاب في علم الفلك.

9 ـ أبو العباس الجد: حل بأفريقية تونس في خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر ميلادي مدة الأمير الحفصي المستنصر، ورحل واستقر ببجاية وأصله من أصفهان (إيران).

10 ـ أبو القاسم الأموي: ويكنى ابن اندراس، أندلسي، أصيل مدينة مرسية Murcie حل ببجاية سنة 1361 م وعلم بها الطب وكان الأطباء يحضرون دروسه ويجيب عن أسئلتهم على البديهة للاستظهار بغزير علمه. دعاه الأمير المستنصر بالله الحفصي إلى تونس، فرحل إليها، فعقد له الأمير على اجتماع برئاسته حضره نخبة من أطباء تونس، فاستجوبوه عن مكانة علمه، فأحسن الجواب، فاستدناه الأمير وصار من أطبائه. وكتب كتباً أعانه عليها تلميذه ومؤرخه أحمد الغبريني.

11 ـ يضاف إليهم: محمد بن علي مشوش يطبب ويجلس للتعليم بتلمسان.

12 ـ محمد بن يوسف السنوسي التلمساني: له كتاب «المعدة بيت الداء وأصل الداء البرده».

13 ـ أبو العباس أحمد بن خالد: من أهل مالقة، قرأ بالأندلس وبمراكش له مشاركة في الطب والحكمة والطبيعيات. جلس ببجاية وأقرأ بمنزله وتوفي ببجاية حوالي 600 هـ.

14 ـ موشى بن سموأل: الأندلسي المالقي: حل بتلسمان علم الطبيب عبد الباسط وأجازه. ومن كتاب الفارسية ص 163 ثلاثة أطباء في مجلس الليحاني بقسنطينة:

15ـ الطبيب أبو علي حسن المراكشي.

16 ـ أبو يعقوب بن انداس.

17 ـ حمزة والد القائد أبي عبد الله بن الحكيم.

18 ـ محمد الشقوري هو أبو عبد الله الشقوري:

من أطباء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) كان حياً سنة 749 هـ/ 1348 م. له مقالة في الطب وشرح على التلمسانية.

هذه الرسالة ألخصها من نسخة خطية من مكتبتي وعنوانها «مقالة في الطب من رأس الإنسان إلى قدميه»، تأليف الشيخ الرئيس أبو عبد الله الشقوري رحمه الله بمنه وكرمه.

قال رحمه الله: سألتني أمدك الله بأنوار العلم والحكمة كما أمدك بأنوار العلم وجعلك القدح المعلى والتاج المحلى في سابقي الفهم... أنت عين الزمان ومعدن الإحسان... وها أنا أجيب على السؤال بحسب الاستعجال وأبذل في ذلك جهدي حسب الإمكان.

يظهر من المقدمة أن الكتاب رسالة استعجالية كتبها للملك.

الرسالة: جاءت في تسع عشرة صحيفة بكل منها خمسة وعشرون سطراً. كتابة مغربية وجميلة وملونة، من غير تاريخ ولا اسم الناقل وبدون تبويب.

- تبتدأ بأمراض الرأس ومنها أمراض الشعر والصداع والشقيقة والطنين والعين ومنها أمراض الجفنين والجرب وأنواعه الغليظ والمتوسط والرقيق والضبب والشعر المنقلب والرمد.

- والأذن وأمراضها: الأوجاع والصمم والمدة والدود والصدمة.

- والأنف: وفيه الزكام والنتن والرعاف وبشرة الوجه وما يحسنها ويجملها ويصقلها.

- والحلق: مما يعرض فيه من ورم وعسر في إخراج البلغم.

- والصدر وأمراضه: السعال وورم الحجاب وذات الجنب وذات الرئة ونفث الدم ونفث المادة والأخلاط.

- وأمراض البطن: منها الوجع وسوء الهضم وضعف الشهوة والرياح المتولدة للحشا والقيء والتهوع والغثيان.

- والكبد: فيه الضعف والوجع والإسهال وللإسهال أعراض كثيرة منها القروح في الأمعاء والإبراز الأسود وهو رديء وأوجاع الورك والنقرص وأوجاعه العظيمة المزمنة كان العظم يضرب فيه بالمطارق.

- خاتمة الكتاب: كمل الكتاب والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

19 - أحمد الحسن القسنطيني: منظومة في الأغذية بها 252 بيتاً كتبها لـ أبي العباس بن أبي يحيى أمير المؤمنين، نسخة عدد 2776 مكتبة شاهد علي، استنبول.

20 - علي بن ثابت التلمسانيّ القرشي الأمويّ: مفيد مالكيّ له مشاركة في علوم الدين والحديث والتاريخ والطبّ، وله في ذلك نحو ثمانية وعشرين تأليفاً. أخذ عن الإمام ابن مرزوق.

مراجع البحث:

(1) راجع تاريخ الطب العربي تأليف لسيان لكلار Lucien Leclerc ج 2 ص 310 طبع باريس 1881.

(2) راجع المقري: ج 3 ص 165 ـ طبع بولاق.

(3) تاريخ الجزائر: ج 1 ص 360.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون ج 1، ص 1552، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ص 220 طبع بيروت.

(5) نيل الابتهاج، ص 207.

(6) الحفناوي ج 1 ص 132.

(7) عنوان الدراية طبع الجزائر.

(8) عبد الباسط بن خليل، ط باريز 1936 Brunschvig ص 107.

(9) مخطوط وطنية رقم 16310، ونسخة بمكتبتي.

(10) عبد الباسط.

(11) عبد الباسط.

(12) تلقيت هذه الترجمة من الأستاذ محمد العربي الخطابي حافظ المكتبة الملكية بالرباط (المغرب) مشكوراً.

أطباء من المغرب

أحمد بن يوسف السنوسي:

هو أحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الحسني السنوسي ويكنى أبو يعقوب. والسنوسي نسبة إلى قبيلته بالمغرب. له كتاب يوجد بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 17966، به أوراق 5 من مجموع من ص 69 إلى 74. خط مغربي جميل وملون. وبمكتبتي نسخة أخرى خط ملون بها أوراق 4 من غير اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ وكلا النسختين متشابهتين.

الرسالة: يشرح فيها المؤلف حديثاً نبوياً وهو: المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء وأصل كل داء البردة.

ـ الشرح: إن المعدة رئيسة آلات الغذاء، يجتمع فيها كل ما يأكل ويشرب، ومنها تستمد جميع الأعضاء قوتها فيها تتولد الأخلاط وقد تكون رديئة لذلك كانت المعدة بيت الداء، وحفظ المعدة يكون بحسب ما يدخل إليها من مأكل ومشرب ودواء وما يخرج منها ليناً أكثر من عادته أو صلباً يجب تعديله، ولصلوحية المعدة يكون الغذاء معتدلاً حسب الشهوة على الطلب. وقوله الحمية رأس الدواء لأن غلبة الصفراء وغلبة السوداء وغلبة البلغم وغلبة الدم ولكل منها علاقات خاصة يجب تداركها بما يجب صلاحيته بالأغذية والدواء.

وقوله: أصل كل داء البرده، فقد حاول المؤلف تفسيره كما يلي: إن المرض

ينتج بحسب ما يتكون في الغذاء من رداءة في الكيموس أي ما ينتج من تحويل الأطعمة في المعدة.

وكانت وفاة أحمد السنوسي سنة 895/ 1490 م.

عبد القادر بن شقرون المكناسي:

إني لا أعرف شيئاً عن الرجل سوى أنه ألف أرجوزة في الطب طبعت بالمطبعة الرسمية العربية التونسية سنة 1323، وهذا نص طالعها:

«أرجوزة فصيحة المباني كثيرة الفوائد والمعاني، في بيان طبائع بعض الحبوب واللحوم والفواكه والخضر والبقول والألبان والمياه وكيفية تجهيز الأطعمة على طريقة المغاربة وما يصلحها من التوابل وما ينشأ عنها من المنافع ومن المضار... على قواعد من علم حفظ الصحة وتدبير المناخ والمسكن والملبس وغيره.

- الأرجوزة: جاءت في 88 صفحة و 700 بيت.

أولها:

الحمد لله الحكيم المرشد   اللهم المرشد لكل مهتدي

وآخرها:

ومن سما فوق السماوات العلا   وجاز فرداً لابساً أسنى الحلى

إذ قدمته الرسل الكرام   عليهم الصلاة والسلام

صححها محمد النخلي بعد أن لبثت أحقاباً في زوايا التحريف وأخرجها في حلة من الحسن إحياء لدراسة العلوم القديمة.

محمد بن إبراهيم الغساني الفاسي:

له كتاب بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 18395 عنوانه: «مفردات ابن الوزير» جاء في حجم كبير، خط مغربي ملون به أوراق 138 مبتور الآخر غلافه من

الجلد الفلالي، هداه المؤلف للسلطان السعدي العباسي الذهبي. يبحث الكتاب في الأعشاب والأزهار يذكر أسماءها على حروف الهجاء ويذكر خواصها ومنافعها وأبدالها عند الحاجة وليست الأسماء المذكورة كلها عربية بل منها ما هي أعجمية.

أحمد بن صالح الدرعي وكنيته أبو العباس:

من عائلة الدرعي المغربية، وتنسب إلى طريقة صوفية. منها شيخ السنة وشيخ الطريقة الشهيرة الناصر بن الحسين وابنه الناصر المتوفى سنة 1129 هـ[1].

ازدهر أحمد الدرعي في القرن الحادي عشر في السابع عشر ميلادي حسب ما جاء في تاريخ الأرجوزة التي ألفها وهو موضوع كتابه في الطب. قال:

هــذه الهــديــة المقبــولــة | جاءت بحمد ربنا موصولة
أتــى بهــا لــربــه العلــي | أحمد نجل صالح الدرعي
مستقبــلاً بهــا ربيــع الأول | رحماك يا رب في محو زللي
عام ثلاث بعدها رسم المائة | وألف بالحدى أتى عن المئة

ـ الكتاب: من مجموعة بمكتبتي، خط مغربي جميل، ملون بالأحمر، حجم 24،5 × 14،5. م 24، أوراق 270. يشتمل على مقدمة نثر وأرجوزة بها 316 بيتاً تناولت الطب من الرأس إلى القدم والموازين وخاتمة ولم يعط المؤلف اسماً لكتابه. يبتدىء الكتاب بالبسملة وبكتابة غليظة بالحبر الأحمر.

قال الشيخ اللغوي الأديب أبو العباس سيدي أحمد بن صالح الدرعي رحمه الله ورضي عنه:

ـ المدخل: أعلم أن الطب علم شريف، وفن حسن ظريف، ومن شرفه أن لا يستغني عنه عند الحاجة قوي أو ضعيف...

---

(1) كتاب الاستسقاء في أخبار المغرب الأقصى، في ج 4 ص 50 و 53.

الخاتمة:

اعلـــم أن حكمـــة الميـــزان	الجــاري فــي أدويــة الإنســان
حـــرق الـــزيـــادة والنقصـــان	علــى الــذي ينبغــي لــلأبــدان
ربمـــا تكـــون فـــي الـــزيـــاد	مضــرة أخــرى علــى المعتــاد
والنقــص فيــه عــدم الــوصــول	إلى الذي في القصد والأصول
فقف على الحد الذي أمرت	بـــه ولا تـــزد إذا غيـــرت
هنـــا انتهـــت هـــديـــة المقـــال	فـــي الطـــب للنســاء والــرجــال

وهي لعمري هدية ثمينة بأسلوبها وحسن ألفاظها وتنسيقها وحكمها.

* * *

يونس الفاسي:

من أصل مغربي، حل بسلرنة والتحق بدير كسنو واعتنق الدين المسيحي، وتتلمذ على قسطنطين الأفريقي، وتولى ترجمة آخر كتاب المختصر المنصوري من العربية إلى اللاتينية لعلي بن العباس. ولد سنة 1040 م وتوفي سنة 1103 م حسب الظن.

من كتاب العلم العربي ـ الدومیالي[1] ـ ص 222 ط. 1966.

الحكيم أبو جعفر عمر بن عامر القلعي المغربي:

مات بدمشق سنة 516 هـ/ 1280 م، عالم بالأدوية المركبة والمفردة وله معرفة بالطب. له حواشي على تقليد ابن سينا وشرح فصول فقراتها.

---

(1) رئيس المؤتمر العالمي للعلوم ـ كتب ما يزيد عن 250 مقالة في تاريخ العلوم العربية وغيرها.

عبد الرحمان ابن الهيثم:

من أعيان أطباء الأندلس وفضلائها. ومن أهل قرطبة له كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في 493 صفحة، كتاب الاعتماد (عن ابن أصيبعة).

الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية
دراسة وتراجم ونصوص تأليف وتحقيق:
محمد العربي الخطابي
الجزئين طبعا بدار الغرب الإسلامي

المراجـع

أولاً المراجع العربية:

- إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف، تونس 1965.
- الأباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى لصالح باجية، تونس 1976.
- أدباء المغرب العربي، الورغي، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس 1961.
- بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1970.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، دار الثقافة، بيروت.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، المكتبة العتيقة تونس 1966.
- تراجم أغلبية، تحقيق محمد الطالبي نشر الجامعة التونسية.
- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لعبد الرحمان بروى، دار النهضة العربية، القاهرة 1965.
- تلقيح الجدري، مخ وطنية 1365.
- تاريخ الطب العربي لأحمد الشريف، بردو 1908.
- حسن البيان لمحمد النيفر، تونس 1353 هـ.
- رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1378/ 1958.
- الرحلة المغربية، العبدري.

- الروض المعطار، النفزاوي مخ 1366 وطنية.
- رحلة ابن جبير.
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تأليف محمد بن محمد الأندلسي، الجزء الأول، القسم الأول، الدار التونسية للنشر 1970.
- أحكام السوق، يحيى بن عمرو، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1975.
- حياة القيروان ومواقف ابن رشيق، عبد الرحمان باغي، بيروت 1961.
- خلاصة النازلة التونسية، محمد بن عثمان السنوسي، تونس 1976.
- خلاصة تاريخ تونس، ح.ح. عبد الوهاب، تونس 1968.
- دليل بشائر أهل الإيمان بفتحات آل عثمان، حسين خوجة، تحقيق الظاهر المعموري، تونس 1975.
- الصراع المذهبي، عبد العزيز المجدوب، تونس 1975.
- طبقات علماء أفريقية وتونس، أبو العرب، الدار التونسية للنشر.
- الطب النبوي، جامعة حلب، لمحمد الجوزية. سورية 1927
- سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس 1968.
- شهيرات التونسيات، حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1934 ـ 1935.
- شجرة النور، علي مخلوف 1349 هـ.
- شرح كتاب هبة الله 9508 وطنية.
- فهرست الرصاع لأبي عبد الله محمد الأنصاري، المكتبة العتيقة بتونس 1967.
- الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن القنفذ، الدار التونسية للنشر 1968.
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تقديم محمد العنابي، تونس المكتبة العتيقة.
- عنوان الدراية، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر 1970.
- تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمان الجلالي، الجزائر 1954.
- الكتاب الباشي حموده بن محمد بن عبد العزيز، الدار التونسية للنشر 1970.
- كتاب رياض النفوس، تأليف أبي بكر المالكي، مكتبة النهضة المصرية 1951.
- الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، لمحمد الحاج قاسم

محمد، مطبعة الإرشاد، بغداد 1974.
- المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، لابن أبي دينار، المكتبة العتيقة تونس 1967.
- مجلة الفكر، العدد 3 ديسمبر 1972 تونس.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري، القاهرة 1972.
- نوابغ المغرب العربي الإمام المازري، ح.ح. عبد الوهاب، تونس 1348 هـ.
- معجم الأطباء من سنة 650 هـ إلى يومنا هذا، تأليف الدكتور أحمد عيسى بك عام 1361 هـ/ 1942 م، مصر.
- مجلة تاريخ العلوم العربية، معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب، سورية.
- المشرع المالكي مخ 2153 وطنية، باريس.
- الهيضة، مخ 495. 18 وطنية.
- النقود العربية في تونس، تونس 1968.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الكتاب العربي، بيروت 1949.
- الورقات، ح.ح. عبد الوهاب، تونس 1965.
- البرزلي مخ 18577 وطنية.
- جرجي زيدان، اللغة العربية كائن حي، مصر.
- أبو الحسن الحصري القيرواني، مكتبة المنار، تونس 1963.
- داود الأنطاكي، مصر 1923.
- الرسالة الالواحية، للشيخ ابن سينا، تحقيق محمد السويسي، تونس 1975.
- علي بن سينا، طبع بيروت.
- الطواحني مخ 18763 وطنية.
- محمود مقديش، مخ 18.531 وطنية.
- فيليب حتي، تاريخ العرب، بيروت 1953.
- فرحات الدشراوي، افتتاح الدعوة، تونس 1975.

- القزاز القيرواني، أبو عبيد الله محمد بن جعفر التميمي، تونس 1968.
- عنوان الأريب، محمد النيفر، تونس 1351 هـ.
- محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار، بيروت 1303 هـ.
- موسى بن ميمون، القاهرة 1936.
- المقريزي، القاهرة 1948.
- المجلة الزيتونية، تونس.
- مجلة المغرب.
- الونشريسي، معيار.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger par René Desfontaines.
- Banquet de Médecins Arabes.
- Georges Marçais. La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age.
- La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVème siècle par Robert Brunschvig.
- La Berbérie Orientale sous les Zirides Xème XIIème siècle par Hady Roger Idris.
- La Civilisation des Arabes par le Dr. Gustave Le Bon Imprimé par IMAG Syracuse Italie. (Sté. Algérienne de Diffusion).
- La Civilisation Tunisienne par B. Lapie.
- Comme vous de la IIIè «AUGUSTA». Capitaine Brencté Rocolle.
- Les colonies juives dans l'Afrique Romaine par Paul Monceaux, 1971.
- Correspondance des Beys de Tunis et des Consuls de France avec la Cour 1577-1830.
- Des Godens de Souhesmes (Gaston).
- Description de l'Afrique par Jean Leon l'Africain.
- Discours sur l'Histoire Universelle... (Al-Muquaddima) Ibn-Khaldûn.

- Documents Marocains pour servir à l'Histoire du «Mal franc», par H.P.J. Renaud et G. S. Colin.
- Document Relatifs à la Révolution de 1864 en Tunisie.
- I. Goldziher-Etudes sur la Tradition Islamique extraits du Tome II.
- L'Ecole de Salerne par Meaux Saint-Marc Charles Daremberg Baillière 1830.
- L'Espagne Musulmane au Xème siècle. E. Lévi-Provençal.
- Etudes sur les Moriscos Anddalous en Tunisie. M. de Epalza R. Petit.
- L'Emirat Aghlabide 184-296-800-909, par Mohamed Talbi.
- Histore de la Medecine. Par le Dr. Lucien Leclerc. edite par le Ministere des Habous- Rabat.
- Histoire de la Médecine dans l'Antiquité par Jurgen Thorwald.
- Histoire du Diagnostic médical par R. Villey.
- Histoire de la Médecine par Charles Lichtenthaeler.
- Les Historiens Tunisiens des XVIIe et XVIIIe et XIX siècles par Ahmed Abdesselem.
- Histoire des rois obéidides par M. Vonderheyden.
- Les Historiens des Chorfa E. Levi - Provençal.
- Histoire du Judaïsme par André Chouraqui 1954.
- Histoire de la Tunisie. L'Antiquité - Société Tunisienne de Diffusion.
- I CODICI DI MEDICINA DEL PERIODO PRESALERNITANO (Se coli IX, X E X I) par Auguto Beccaria.
- Les juifs et le Talmud par Flavien Brenier.
- Les idées religieuses et philosophiques de l'Ismaélisme Fatimide par Habib Feki.
- La Médecine Arabe Dr. H. - P; -J; Renaud.
- La Médecine à Kairouan au Xème siècle Ahmed Ben Milad.
- Mémoire pour servir à l'Histoire de la Mission des Capucins de la Régence de Tunis.
- Notices sur la Régence du Tunis 1867.
- Les origines du Protectorat français en Tunisie (1861 - 1881) par Jean Ganiage.
- Une page de l'Histoire de l'Ancienne Eglise d'Afrique par J. Mesnage.

- Le peuplement italien en Tunisie par Gaston Loth.
- La Politique française en Tunisie. Le Protectorat et ses origines 1845-1891. (Destournelle de Constant).
- Relation Médicale Docteur Faraj.
- La Revue Tunisienne (1894 - 1949).
- Nissen: Relation sur Tunis. Paris 1929.
- Robert Brunschvig. Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au IVème siècle. Abdelbasit B. Halil et Adorne.
- Tabakât Al-Umam. Traduit par Blachère.
- La Science Arabe et son rôle dans l'Evolution Scientifique Mondiale par Aldo Mieli. Leyden 1966.
- Saint Cyprien. Evêque de Carthage, par Charles Saumagne.
- Tunis et la Régence sous Sadok Bey par François Albert.
- La Vie Littéraine en Ifriqiya aous les Zirides par Chedly Bouyahia.

الأطباء الأجانب المذكورون في الكتاب
(والذين نقل عليهم ابن الجزار وذكرهم في زاد المسافر)

- ديسقوريدوس: طبيب من القرون الأولى المسيحية وطبيب الجيش.
- جالينوس: طبيب يوناني.
- أريسطوط: طبيب روماني أخذ عن بيكراط وله كتب في الطب والتشريح وكتب في الفلسفة والعلوم.
- أيبكراط: أفلاطون الحكيم فيلسوف وطبيب يوناني.
- فرفوريوس: الفيلسوف: يوناني الأصل.
- قسطا ابن لوقا.
- بول ديجيس: طبيب روماني من القرن السابع له كتب كثيرة في الطب وله علم بمدرسة الإسكندرية.
- أندرماخوس: طبيب روماني من القرن الخامس.
- ديوفانطس: طبيب يوناني.
- ابن ماسويه.

إن قسطنطين الأفريقي كان على الدين اسلامي حقاً لما بارح تونس في القرن الحادي عشر وتعلم لغتي الكنيسة بتونس اللاطينية واليونانية وكان طبيباً حقاً وسافر إلى إيطاليا (وكان ذلك يسيراً) لعلاج المسلمين التونسين القاطنين بها لما تكن جزيرة صقيلية بيد التونسين أنذاك ولما نجح اتضح أن ما لديه من المعلومات والكتب يفوق معلوماً أهل البلاد مما لديهم من الطب فاجتمع نحوه أطباء البلاد

وتكونت مدرسة في الطب العربي واشتهرت بمدرسة سلرنو في الطب واتسعت شهرتها خلال القرون الوسطى.

وَيَتَّضح مِن كل ذلك أن أول طبيب دخل أفريقية هو يوحنا بن ماسويه وليس إسحاق بن عمران حسب ما جاء في كتاب ابن أبي أصيبعة وغيره من المؤلفين وإن ابن الجزار نفسه لم يذكر في كتابه إسحاق بن عمران البتّة ويذكر يوحنا بن ماسويه وأبَاه وعَمّه.

كتبت في شأن قسطنطين الأفريقي ما جاء بعلمي قبل نشر الكتاب سنة 1980 فقد قمت بتحقيق حول هذا الرجل العبقري الفذ فتحولت ربيع 1980 إلى إيطاليا مصحوباً بزوجتي السيدة نبيهة التي تحسن جانباً من اللغة اللاتينية فطفنا بالمكتبات باحثين عن كتاب (زاد المسافر) فلم نحضَ بجواب لأنه كان معروفاً باسم صاحب مترجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية وهو قسطنطين الأفريقي ونسبه لنفسه عبثاً.

وفي مكتبة المدرسة الطبية ببولونيا صندوق يحتوي على ما يقرب من خمسين مخطوطاً من زاد المسافر مكتوبة على الرق مما يثبت أنه كان يعار إلى التلاميذ يدرسونه ويرجعونه في آخر السنة وكذلك لما طلبته من مكتبة ملك إيطاليا بنابولي وهناك يعرف أيضاً باسم قسطنطين الأفريقي صاحب الترجمة.

وذهبنا إلى بلدة ساليونو أين حل قسطنطين الأفريقي وبيده الكتب الطبية العربية وبحثنا على هذا الشخص فوجدنا له أثراً بمكتبة القرية العتيقة وهي على شاطىء البحر المتوسط مقابل مدينة قليبية بتونس ووجدنا أن هذه القرية وغيرها على الساحل الغربي كان يحل بها التونسيون مثلما يحولن بصقيلية لطلب العمل اليوم وأثبت التاريخ أنه كان بها مركز تجاري يشرف عليه أفريقي. كل ذلك يدل على أن القرى الموجودة على الساحل الغربي لإيطاليا كانت بها جالية تونسية يوم لا يوجد بها أطباء عبقريون، فبدأ قسطنطين عمله بالطب وكون مدرسة توافده عليها التلاميذ من أوروبا وفرنسا مما ألفت نظر البابا إليه فأخذه وأقره بدير كسينو للتفرغ لترجمة ونشر العلم، وتذكر المصادر أن اثنين من تلامذته من الفرنسيين هما اللذان قد أسسا

مدرسة الطب بمُنْبِلْيِي Montepellier وهي أول مدرسة فتحت أبوابها بفرنسا.

وأثرت روما على البربر بتونس بلغَتِها اللاتينية وأبقت بين أياديهم الأرض والثروة وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية في المكاتابات والمعاملات والتعليم تُنشر بين الأهالي ولم تعاكس الدولة فتح المدارس في المدن والأرياف وتعلم بذلك التلاميذ اللغة والنحو والفلسفة والفصاحة والرياضيات والآداب وإذا لم يذكر تعليم الطب فلا بد أن هذه المادة كان لها حظ في التعليم العام عند الرهبان فقد كان للجيوش الرومانية أطباء فلا شك أن تعليم الطب كان موجوداً بقرطاج خاصة كان التعليم العالي الذي يقصده التلاميذ إثر خروجهم من مدارس القرى والبلديات فَتَطْلُبْهم المناصب العليا في الإدارة والمحاكم والطب وإن لم تذكر المصادر التي هي بين أيدينا لكن الأسماء الكثيرة الأجنبية الموجودة في الكتابات دليل على ذلك كتاب زاد المسافر الذي يذكره ابن أبي أصيبعة أن أحمد ابن الجزار أخذ الطب عن أبيه وعمه فلا شك أنهما كانا يحذقان الطب باللغة اللاتينية وذكر ابن الجزار يوحنا اين ماسوية الذي سبقَهُما قادما من بغداد والأكيد لم تقع ترجمة الطب اليوناني واللاتيني إلى اللغة العربية في القيروان بل وقع ذلم بتونس العاصمة، فقد ترجم الشيخ بيرم الثاني كتابي الطبيب الإيطالي من الإيطالية إلى العربية كتاب في المياه المعدنية لحمام الأنف موجود بين أيدينا وكتاب في الطب العام وكانت الترجمة على الطريقة الآتية: يترجم المؤلف يوسق القير باللغة الدارجة ويكتبها الشيخ باللغة العربية الفصحى كان ذلك سنة 1162 هـ على سبيل التقريب وملاحظة أن اللغة اللاتينية بقيت يتكلم بها في أفريقيا إلى موفى القرن 13.

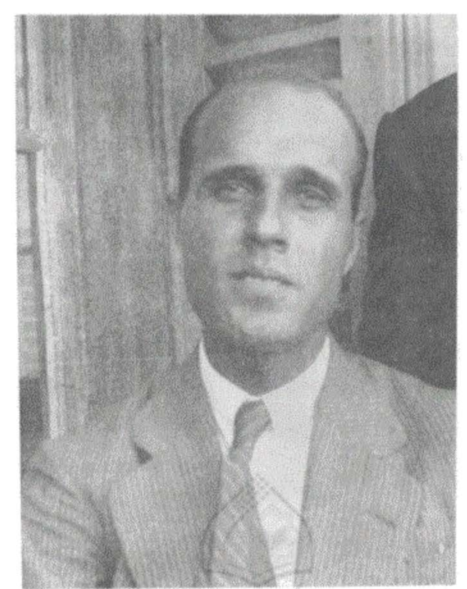
أما ما يخص حياة قسطنطين الأفريقي التي أوردتها في الكتاب وقلت أنها من سبيل الأسطورة فقد ذهبت إلى إيطاليا واستقريت بسالرنو أياماً واطلعت على وثائق باللاتينية مترجمة إلى الفرنسية وكذلك على كتابين بتاريخ الطب بإيطاليا مدة القرون الوسطى ومكثت بدير كسينو بتوصية من الفاتيكان واتضح من كل ذلك ما يلي:

إن قسطنطين الأفريقي كان على الدين الإسلامي حقاً لما بارح تونس في

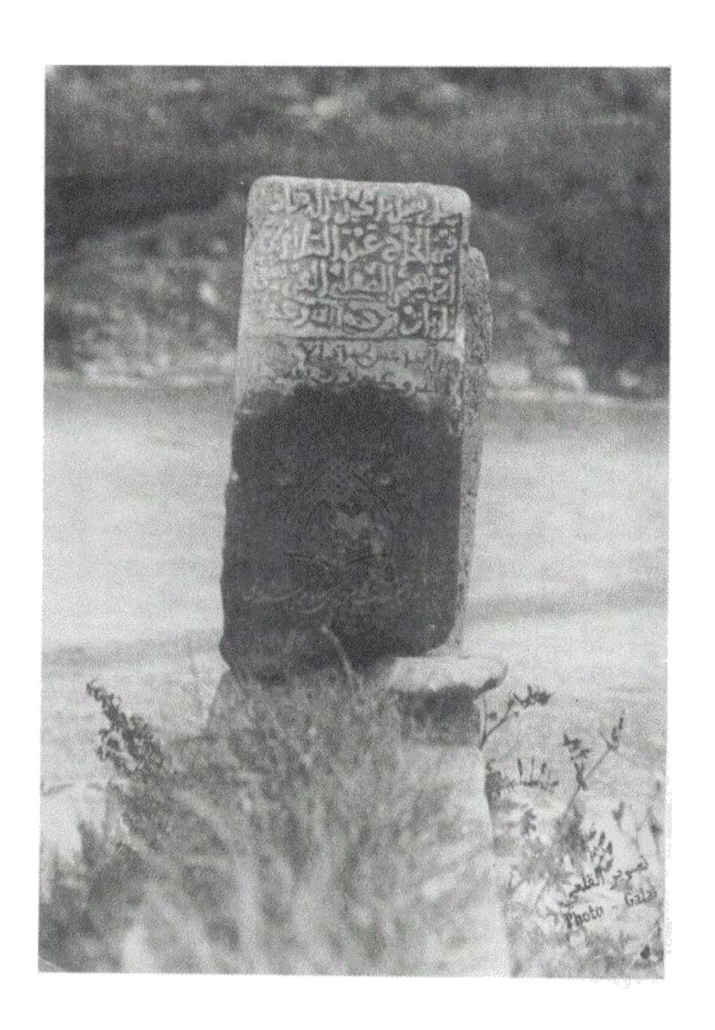
القرن الحادي عشر وتعلم لغتي الكنيسة بتونس «اللاتينية واليونانية» وكان طبيباً حقاً وسافر إلى إيطاليا (وكان ذلك يسيراً) لعلاج المسلمين التونسين القاطنين بها وبصقلّية. ولما نجح اتضح أن ما لديه من علم الطب يفوق علم أهل البلاد مما لديهم من علم الطب فاجتمع نحوه أطباء البلاد وتكونت مدرسة الطب العربي واشتهرت بمدرسة سليونو واتسعت شهرتها خلال القرون الوسطى.

ويتضح من كل ذلك أن أول طبيب دخل أفريقية هو يوحنا ابن ماسوية وليس إسحاق ابن عمران حسب ما جاء في كتاب ابن أبي أصيبعة وغيره من المؤلفين وأن ابن الجزار نفيه لم يذكر في كتابه إسحاق ابن عمران البت ويذكر يوحنا ابن ماسوية وأباه وعمه.


دار ابن الجزار






Photo - Galal

l'époque thérapeutique leur permettait de faire le diagnostic différentiel entre Syphilis et Blennorragie. J'adhère entièrement à vos conclusions sur le niveau général de ces médecins et on peut avancer, sans risque de se tromper qu'il ne leur manquait que les données bactériologiques et sérologiques et les nouveautés thérapeutiques. Les nuances cliniques sont parfaitement rapportées par ces médecins d'une époque considérée comme obscure.

De même, j'ai beaucoup apprécié votre présentation, votre objectivité et vos qualités d'historien qui viennent s'ajouter à celles du médecin humaniste que vous êtes. Votre intervention au dernier Congrès des Médecins Arabes qui s'est déroulé en octobre dernier à Tunis témoigne parfaitement dans ce sens. Je vous en félicite bien vivement et vous remercie de m'en avoir tenu informé.

Je vous souhaite une excellente santé afin de poursuivre cette oeuvre si utile pour favoriser "le passage de la pensée Médicale dans les deux sens".

Veuillez agréer, Mon cher et estimé confrère, l'expression de mes sentiments respectueux et dévoués.

Amor CHADLI

Lettre autographe du Dr Amor Chedli, ancien directeur de l'Institut Pasteur à Tunis et ancien doyen de la Faculté de Médecine de Tunis à l'auteur:

Tunis le 27 février 1992

Monsieur le Docteur Ahmed Ben Milad
3 Impasse "Les Pins" Le Bardo.

Cher Si Ahmed,

Notre confrère, le Docteur Saïd Mestiri m'a remis la brochure sur la "Syphilis dans l'oeuvre des Médecins Tunisiens du XVIII et XIXèmes siècles" que vous avez bien voulu lui remettre à mon intention.

Mon plaisir a été d'autant plus grand que depuis ma retraite, je m'intéresse beaucoup à l'histoire de la Médecine.

J'ai lu et relu votre travail qui m'a beaucoup appris.

Si je savais parfaitement que la Syphilis est passée du Mexique à la Côte d'Espagne et que l'armée de Cordoue l'a transportée à Naples où les Français la contractèrent et que la première description en France remonte à Jacques Bethencourt en 1527 puis à Jean Astruc de Montpellier au XVIIIème siècle, j'avoue que j'ignorais entièrement le rôle des Médecins Tunisiens, dans la description et l'étude clinique et thérapeutique de cette maladie.

Comme vous, j'ai été frappé par la rigueur de la pensée médicale des Médecins Tunisiens que vous citez et de leur sens clinique.



Le Viatique en grec
"Biblioteca Mediceo" Firenze

Pellegrin, Lapeyre et Idriss.

Enfin une légende: Dans son introduction des œuvres complètes d'Ambroise Paré voici ce qu'écrit le docteur Malgaine: «Constantin né à Carthage et épris d'un ardent désir de s'instruire dans toutes les sciences il s'en alla en Babylonie, apprit la grammaire, la dialectique, la physique (médecine), la géométrie, l'arithmétiques, les mathématiques, l'astronomie, la nécromacie et la musique. Après avoir épuisé toutes les sciences des Chaldéens, des Arabes et des Persans il alla aux Indes, interrogea les savants de ce pays, revint par l'Egypte où il termina ses longues études; et après quarante années de voyages et de travaux, il revint dans sa ville natale. Mais, des connaissances si rares et si nombreuses durent effrayer ses compatriotes, ils le prirent pour un sorcier et résolurent de s'en défaire.

Cette légende reproduite depuis Diacre, dans tous les livres sur Constantin, avec ou sans réserve, doit être abandonée à jamais. C'est un conte des mille et une nuits.

CONCLUSION

Voici un résumé de mes recherches sur ce personnage: nombre de livres qu'il aurait écrits ont été imprimés aux XVe et XVIe siècles à Lyon et Turin et adoptés par les universités d'Europ.

Comme Derembourg, nous pouvons le concidérer comme l'un des précurseurs de la Renaissance en Europe; comme lui, nous souhaitons qu'un Congrès de Savants et d'erudits décide un jour d'élever une statue à Constantin à Salerne ou sur le Mont-Cassin au sur le littoral est de la péninsule où existaient de nombreux comptoirs musulmans.

ressort: «que Constantin, originaire de Carthage s'est rendu à Salerne comme commerçant (mercator). il y tomba malade; on fit appel à Abbas de Curia, lui-même médecin. Au cours de cette consultation Constantin a assisté à l'examen de ses urines et il a demandé si on possédait à Salerne suffisamment de littérature médicale. La réponse a été négative. On utilisait simplement des connaissances acquises par la pratique. C'est alors que ce grand voyageur, cet homme qui jouit d'une vaste culture aurait eu l'idée de sa mission civilisatrice. Il revint à Carthage. Il était encore Sarrasin même de religion. Là, il se serait remis à s'occuper de médecine pendant trois ans. Il aurait réuni de nombreux traités de médecine arabe, il se serait embarqué avec ce trésor vers l'Italie méridionale vraisemblablement vers Salerne même. Avec ces manuscrits il serait heureusement arrivé à Salerne[1].

Nous pouvons formuler quelques remarques:

1) des marchands africains étaient installés en Sicile chrétienne et en Italie méridionale à Bari, à Tarente, à Agripoli, à Gagliano dans des comptoirs fortifiés où ils se livraient au commerce. Même pendant la guerre, les commerçants ne chômaient pas.

2) On aborde à Mazzari en Sicile avec un voilier, en moins de douze heures par vent favorable. La Sicile a été de tout temps le trait d'union entre l'Afrique et l'Europe[2].

3) Constantin était médecin; l'enseignement était gratuit et ouvert à tous.

4) Les traités de médecine emportés par Constantin étaient des œuvres de médecins kairouanais ou de Baghdad. Toutes ces œuvres étaient connues et utilisées à Kairouan.

Enfin, Constantin s'était converti au christianisme. Il n'y a rien d'étonnant non plus. Les conversions à la religion des vainqueurs, musulmans ou chrétiens étaient très fréquentes à l'époque et même plus tard. Les occupations de la Sicile et de l'Andalousie offrent un exemple éclatant. Hassen al Ouazzani capturé par les corsaires italiens vers 1518, offert au Pape Léon X, a été baptisé en 1520. Il était devenu Léon l'Africain, le célèbre auteur du livre «La Description de l'Afrique».

Ainsi la conclusion qu'on peut déduire de recherches de Karl Sudhof est plus près de la réalité que l'hypothèse gratuite de Hassen Hosni Abdelwahab et les affirmations non appuyées par des références bibliographiques de

(1) Karl Sudhof: Constantin. «Revue Archéon», vol. XIV, n. 3, 1932.

(2) Mohamed Talbi: L'émirat Aghlabide. Paris, 1966, p. 513 et suivantes.

Tunis, versé dans la langue arabe, Constantin était-il chrétien ou musulman? Ici les opinions sont partagées et il importe de rechercher la vérité. Pour Hassen Hosni Abdelwahab, historien tunisien éminent, mort en 1968, Constantin était chrétien. Il fonde son opinion sur l'existence de colonies chrétiennes à Carthage et Kairouan et qui s'étaient maintennues jusqu'au XIIe siècle(1).

Il est exact que l'existence de plusieurs colonies chrétiennes sur le sol tunisien est attestée par des documents historiques irréfutables. La tolérance des conquérants arabes aurait laissé subsister dans toutes l'Afrique depuis l'isthme de Suez jusqu'au détroit de Gibraltar 145 évêchés dont quarante suffrageants de Carthage. Chose à noter, Carthage y figure parmi les dix métropoles dépendant du siège patriarcal d'Alexandrie(2). L'explication de cette dépendance serait qu'au début de l'occupation arabe les gouverneurs de l'Ifriqiya étaient sous l'autorité directe du gouverneur d'Egypte et l'Eglise de Tunisie avait probablement à son corps défendant suivi l'exemple du pouvoir local. Les collectivités chrétiennes avaient vécu en paix à l'ombre des trois premiers gouvernements islamiques. c'est-à-dire jusqu'à la fin du XIIe siècle.

Monsieur Hassen Hosni Abdelwaheb a énis, ici, une hypothèse et rien de plus.

Deux historiens français Lapeyre et Pellegrin qui ont vécu longtemps en Tunisie sont de son avis, ainsi que monsieur André Idriss, ancien professeur au Lycée de Tunis et l'auteur d'un livre sur l'histoire de la Tunisie(3).

Les auteurs ne mentionnent pas leurs références bibliographiques.

En somme tout ce groupe d'historiens, ne nous livre sur la biographie de Constantin que des renseignements imprécis et contradictoires.

Voyons maintenant les partisans de Constantin musulman. Le premier biographe de Constantin est le moine Pierre Diacre (Petrus Diaconus), auprès duquel se sont renseignés tous les modernes: De Renzi, Derembourg, Wüstenfeld, Leclerc, etc..., nous le donne comme mahométan. Dans un travail sérieux, Karl Sudhof un éminent orientaliste Allemand et on sait combien les allemands sont spécialistes dans l'histoire de la médecine, a jeté une lumière nouvelle sur Constantin. Utilisant des archives trouvées à la Trinità Della Cava, où Constantin était nommé Constantinus Sicilus il

(1) Hassen Hosni Abdelwahab: Les feuillets. Tunis, 1965, Tome I, p. 29. Lettre manuscritte.
(2) I. Mange: Une page d'histoire de l'Eglise d'Afrique. Alger, 1903.
(3) Idriss: La Berbèrie Orientale sous les Zirides. Tome 2, Paris, 1966.

propos de M. Boubaker ben Yahia qui a entrepris des recherches minutieuses à ce sujet[1].

Voici en partie ce qu'il a écrit:

«Divers travaux ont permis de constater que la presque totalité de l'œuvre d'abord attribuée à Constantin, n'est pas son œuvre personnelle. Mais a-t-il été un traducteur? Voici résumées les conclusions auxquelles je suis arrivé en étudiant le «Livre de la Mélancolie» de Ishaq Ibn Imrane et la traduction latine qu'en a faite Constantin.

«Une étude sommaire permet de constater que les deux ouvrages en arabe et en latin suivent le même plan, développent les mêmes idées et définissent d'une manière identique les mêmes concepts. Mais Constantin s'est-il contenté d'être un traducteur fidèle? Une étude plus approfondie des deux ouvrages permet de dire non. Constantin a tout simplement supprimé toutes les parties du texte qui pouvaient faire soupçonner l'origine arabe de l'ouvrage. Chaque fois que les médecins arabes font état de leurs travaux, du résultat de leur expérience personnelle Constantin a employé dans sa traduction la forme impersonnelle.

«Constantin... a-t-il composé personnellement quelque-unes de ces œuvres? Je crois qu'on n'est pas loin du jour où l'on pourra affirmer que Constantin n'a écrit aucune œuvre personnelle. A-t-il cherché sciemment à taire le nom des auteurs arabes qu'il a traduits? Je répondrai par l'affirmative... Il a supprimé toute référence se rapportant à un auteur arabe, et même, comme s'il voulait donner le change, il a mis en avant des noms de médecins grecs (l'auteur en donne plusieurs exemples)».

Ce travail n'est pas définitif, car il ne concerne pas toute l'œuvre de Constantin et mérite d'être poursuivi. il n'a intéressé que les livres: le «viatique», la «mélancolie» et le «kamel», Reste à élucider la biographie de Constantin, elle aussi très controversée.

Constantin avait passé la première partie de sa vie à Carthage, plutôt à Tunis car à cette époque la ville romaine était en ruines et vidée. de ses habitants. Elle avait été remplacée par Tunis devenue un centre commercial et intellectuel à l'exemple de Kairouan. Il est à remarquer qu'aucun livre arabe ancien ne mentionne Constantin. Tout ce que nous savons sur lui provient des archives italiennes, Il est complètement ignoré des historiens, des chroniqueurs et des biographes arabes. Tout d'abord originaire de

(1) Ben Yahia (Chef de Recherches au Centre National de Recherche Scientifique à Tunis): Les origines arabes de «mélancholia» de Constantin. «Revue des Sciences», 1953. Constantin l'Africain et l'Ecole de Salerne, «Les cahiers Tunisie», 1935.

ETAT DES RECHERCHES SUR CONSTANTIN L'AFRICAIN

Constantin l'Afircain, médecin tunisien du XIe siècle. La première partie de sa vie s'est déroulée en Tunisie et l'autre en Italie où il a écrit son œuvre. Celle-ci est vaste. Il a traduit en latin les livres des grands maîtres de la médecine arabe de l'époque: Razès, Ali Ibn Massouia de Baghdad, Ibn Imran, Ibn Souleiman, et Ibn al Jazzar de Kairouan, etc... Ces traductions existent de nos jours dans les grandes bibliothèques européennes: en Italie, en Allemagne, en France, en Belgique, en Angleterre, etc... Elles ont servi comme manuels scolaires au Moyen-Age et jusqu'au XVIIe siècle.

Constantin avait, paraît-il, rédigé de son cru des livres. Il en a plagié d'autres et brouillé les sources.

Les traductions de la science arabe faites par Gérard de Crémone ne datent que du XIIème siècle.

Le nombre de lïvres que Constantin aurait écrits, traduits, plagiés ou qu'on lui aurait attribué alors qu'il n'avait ni écrit ni traduit, atteint le chiffre de trente six (36).

On l'avait accusé de plagiat. Il n'avait pas plagié simplement des phrases ou des passages de livres, mais il s'était attribué la paternité de livres entiers. Tenez, voici ce qu'il avait écrit dans l'introduction du «viatique», pour éloigner le doute dans l'esprit du lecteur: «Que si d'aucuns portent sur mon ouvrage leurs dents canines, je les enverrais sommeiller au milieu de leurs niaiseries. J'ai cru devoir signer cet écrit, parce que les hommes jaloux du travail d'autrui, quand un ouvrage étranger leur tombe entre les mains, se l'approprient frauduleusement. Je l'ai appelé Viatique parce que son petit volume fait qu'il n'est pas embarrassant ni gênant pour un voyageur».

Ils avaient conquis la Sicile, Les Arabes et l'avaient islamisée.

Les accurations porteés contre lui ne sont pas valables: examinons les

que dans la vallée de la Medjerda, qui, comme bassin de mer primitif, possède un sol alluvial extraordinairement fécond, les villes sont rapprochées entre elles et qu'on y cultive des céréales et du vin, le sud, pauvre en eau, est propice à la culture de l'olivier. Dans la région des oliviers, les établissements sont moins nombreux, car l'olivier a besoin de beaucoup d'espace et exige, vu que son rendement est plus tardif, un certain capital, ce qui rend sa culture propre à la grande exploitation.

L'AFRIQUE ROMAINE

TRADUCTION DU LIVRE DE.M. SCHULTEN (1899)

SUITE ET FIN

Les «latifundia». - Sous Néron, la moitié de la Province Proconsulaire appartenait à six propriétaires fonciers; ils furent mis à mort, et leurs biens tombèrent dans le domaine public[1]. Ce renseignement d'une écrivain digne de foi est confirmé par les inscriptions précédemment citées, car elles prouvent que toute la partie moyenne du Bagradas était domaine impérial[2] et que l'Afrique avait une administration domaniale extraordinairement détaillée: il y avait précisément beaucoup à administrer[3]. Dans le sud principalement, où la fertilité plus faible du sol ne permettait qu'une culture extensive, c'est le territoire seigneurial; au lieu des villes, on rencontre ici des fermes et des villages. (V. ci-dessus-, p. 461. 1903). On a trouvé dans cette région l'épitaphe d'un homme qui, chaque année, avec des moissonneurs organisés en «bandes» (Turmae des Romains), allait en Numidie pour moissonner[4]. Il y avait donc aussi dans l'Afrique romaine des ouvriers ambulants qui cherchaient leur subsistance à l'étranger, évidemment parce que le sol natal ne les nourrissait point. Si l'on veut donc bien mettre sur la même ligne ce fait intéressant et les latifundia de cette contrée, on devra admettre que les grands propriétaires fonciers dépossédaient les paysans.

Cultures variées suivant la richesse du sol. - A la diversité des centres d'habitation correspondait celle de la culture du sol, car les deux reposent sur la même cause sur la fécondité plus grande ou plus faible du sol. Tandis

(1) Plinn: Nat. hist., 18, 6, 34: Sex domini semissem Africae possidebant cum interfecit eos Nero princeps. Ce passage fait suite à la fameuse déclaration: «latifundia perdidere Italiam...».

(2) Voyez ma lex Manciana, p. 4.

(3) Die röm. Grundherrschaften, p. 70.

(4) Inscription du moissonneur. - Bücheler: Carmina epigraphica, n° 1238. L'inscription vient de l'ancien Mactaris, aujourd'hui Mactar, dans la Byzacène (Sud est de la Tunisie).

«Cette préparation est sure, éprouvée plus d'une fois. Essaye et tu réussiras.

«Voici la formule de liquide avec lequel tu dois arroser le mélange dont il a été parlé: Prends deux parties de cendres de térébinthe et une partie de chaux vive; mélange-les ensemble et divise-les ensuite en trois parties. Cela fait, distille une de ces parties et, avec le produit que tu obtiendras, distille la deuxième partie, dont le résultat te servira à distiller la dernière partie; le résultat de cette troisième distillation est le liquide en question».

EMILE AMAR

nébli; quatre onces de soufre rouge; quatre onces de minium; quatre onces d'arsenic rouge; une once de safran; six onces de sel ammoniac, de l'espèce dite masri (d'Egypte). Ensuite, pulvérise chacun de ces ingrédients séparément, sur un marbre, après quoi tu les réuniras tous ensemble en les pulvérisant autant que possible. Mets - les ensuite, dans une casserole émaillée, sur un feu d'une chaleur semblable à celle d'un soleil intense. Préalablement, tu prépareras un liquide, dont la formule est ci-après, et que tu verseras (par petites portions) sur les ingrédients qui se trouvent dans la casserole, en les pulvérisant après les avoir chauffés et en continnuant la même opération jusqu'à vingt-cinq fois.

«Lorsque le mélange aura été pulvérisé, mouillé et chauffé le nombre de fois nécessaire, il devient rouge comme une braise. Alors, chauffe une plaque de fer et jette dessus une partie du mélange; s'il devient liquide, l'effet est obtenu, sinon, traite-le de nouveau comme dessus jusqu'à ce que, placé sur la plaque en question, tu obtiennes le résultat voulu. Cela fait, mets ce mélange dans un flacon de verre et enterre-le dans du fumier frais de cheval, pendant une durée qui ne peut être inférieure à cinq jours. Enlève-le ensuite, tu le trouveras changé en un liquide rouge semblable à du sang. Prends garde alors d'y toucher: c'est un poison mortel. S'il n'est pas liquéfié par son séjour dans le fumier, fais-le passer à cet état dans la mer agitée[1] (البحر الخضخاض) : il s'y liquéfie forcément.

«Une fois arrivé là, prends telle quantité de mercure que tu voudras et mets-la dans un creuset de fer que tu placeras sur le feu; verse en même temps sur ce mercure, alors qu'il est sur le feu, une quantité du liquide du flacon suffisante pour le couvrir, et continue cette opération au fur et à mesure que le mercure se l'assimile, jusqu'à ce que le tout se transforme en une poudre jaune. Enlève-le alors du feu et garde-le chez toi.

«Lorsque tu voudras t'en servir, prends du plomb, fais-le fondre et trempe-le six fois dans du sang de chèvre. De ce plomp, tu prendras six onces, tu les feras fondre de nouveau et tu jetteras dessus le poids de quatre drachmes de la poudre jaune: aussitôt le mélange se transforme en or pur. Pareillement, prends le poids de six drachmes de la poudre jaune en question et jette-les sur dix onces d'argent pur, tu obtiendras également de l'or pur, sans mélange.

(1) Ce terme, certainement conventionnel et incompréhensible aux profanes, désigne probablement un de ces liquides composés que les alchimistes arabes classent sous le nom générique de dissolvants.

bout du traité, on s'aperçoit qu'on n'a rien appris de nouveau.

Ce qui est encore plus curieux dans ces sortes d'ouvrages, c'est que l'auteur commence toujours par promettre et jurer qu'il renonce au style énigmatique et conventionnel cher aux adeptes de l'œuvre, et qu'il va nous donner en peu de mots, sans recourir à aucun terme de convention, la règle simple et claire pour opérer la transmutation. Mais aussitôt, il entre dans un exposé confus de soi- disant principes et, arrivé au bout, déclare qu'il vient de révéler tout le secret.

Tel est à peu près le fond de tous ces ouvrages, connus d'ailleurs, en Europe, par leur traduction.

Toutefois il en existe bien d'autres, beaucoup plus récents, que les Marocains, chercheurs obstinés de la pierre philosophale, feuillettent journellement, le plus souvent pour faire des dupes. A l'heure même où nous écrivons ces lignes, bon nombre de ces chercheurs usent leur vie à mettre à l'essai des formules innombrables pour arriver à une apparence de résultat. Ces ouvrages d'ailleurs n'ont rien de scientifique et sont écrits dans un style concret et vulgaire ne demandant pas pour être compris des connaissances spéciales et scientifiques. Malgré cela, ainsi que le relève précisément M. Berthelot, «Les personnes qui possèdent des ouvrages de cette nature les tiennent secrets et refusent ordinairement d'en donner communication à qui que ce soit, de crainte d'en laisser prendre copie, croyant en réalité posséder la véritable clé du mystère de la transmutation: les rèves du moyen âge durent encore dans les pays musulmans».

Le hasard m'a mis entre les mains quelques feillets d'un manuscrit appartenant à cette dernière catégorie de travaux, d'une date indécise et qui ne semble pas remonter à une époque contemporaine aux écrits de Djaber et des autres alchimistes célèbres. Ici, l'auteur rompt entièrement avec la tradition et semble ne viser que le côté pratique de l'œuvre, puisqu'il laisse la théorie complètement de côté, pour nous indiquer, dans un langage *simple* et clair, les diverses manipulations qui conduisent à la fabrication de la poudre mystérieuse, cette poudre jaune qui, jetée sur un métal en fusion, le transmue complètement en or pur.

Voici la traduction, aussi exacte que possible, d'une page de ce manuscrit, la plus curieuse entre toutes, la plus intéressante aussi, puisqu'elle résume les formules à adopter pour la préparation de cette poudre mystérieuse, et conséquemment de celle de l'or.

L'auteur a dit: «Prends quatre onces de sulfate de fer, de l'espèce dite

CONTRIBUTION A L'ÉTUDE DES SCIENCES CHIMIQUES

CHEZ LES ARABES[1]

L'ALCHIMIE

Les Arabes, comme on le sait, ont de bonne heure cultivé l'alchimie. Dès le VII^e siècle de l'ère chrétienne, leurs ouvrages sur cette matière étaient déjà nombreux. Quelques-uns ne sont que des traductions, plus ou moins altérées, des alchimistes grecs, qui sont les ainés des Arabes en matière d'alchimie; d'autres sont les œuvres de célébres alchimistes arabes parmi lesquels se distingue notamment Djaber Ibnou Hyyane, plus connu chez nous sous le nom de Géber.

Ce qui caractérise les uns et les autres, c'est un style vague, énigmatique[2], plein d'allusions à la pierre philosophale, sur laquelle pivote le grand mystère de l'"œuvre et dont les moyens de fabrication font l'objet de la plupart de ces traités.

L'illustre chimiste M. Berthelot, dans son savant ouvrage sur la chimie au moyen âge (tome III), a donné en quelque sorte un magnifique tableau de l'alchimie arabe, à cette époque. Dans ce travail, il a réuni avec leur traduction ceux de ces traités qui jouissent de plus d'autorité, soit par la célébrité de leur auteur, soit par l'abondance des renseignements qu'ils fournissent aux chercheurs avides du secret de la transmutation des métaux. Cependant, malgré l'excellente traduction de M. Houdas, revisée d'ailleurs par M. Berthelot lui-même, malgré les notes au moyen desquelles l'illustre savant a tâché d'éclaircir cet océan de mots et de principes qui, au fond, ne disent rien du tout, c'est le vague qui domine encore et qui fait que, arrivé au

(1) Revue Tunisienne 1904.

(2) Ainsi le mot عقرب (scorpion) est employé, chez les adeptes de l'"œuvre, pour désigner le soufre; le mot عقاب (aigle, orfraie) pour le salpêtre; le mot عبد (esclave) pour le mercure; le mot أسد (lion) pour l'arsenic, etc.

la voie du Maroc, de l'Espagne et de la France est postérieure de cent ans au moins à celle qui eut lieu vers l'Europe Centrale par le chemin de l'Italie.

Fruits des Contacts

Une probité intellectuelle élémentaire nous invite donc à nous interroger sur ce que l'Ifriquiya a reçu en raison de ces contacts avec le monde italien. Plusieurs monarques aghlabides, et singulièrement les trois derniers, Ibrahim II, son fils Abdallah et Ziadat Allah III, dernier de la dynastie, ayant gouverné la Sicile durant leur jeunesse, se sont trouvés en contact direct et permanent avec la population chrétienne de l'ile. De ce fait, ils se sont vus dans la nécessité de se familiariser avec la langue latine ou, pour mieux dire avec le bas-latin ou langue franque. A nous baser sur les affirmations réitirées des vieilles chroniques tunisiennes. ils étaient même arrivés à la manier avec une correction louable et s'en servaient constamment dans leurs rapports avec leurs pages siciliens.

En fondant dans sa nouvelle résidence de Raqqada, la célèbre «Maison de la sagesse» (Bait al Hikma), il obéit croit-on, à une conception des plus originales, compte tenu de l'époque: celle de s'assurer la collaboration de moines chrétiens de Sicile qui avaient la réputation d'être des détenteurs des scineces antiques. Il avait l'intention de leur confier la traduction du latin à l'arabe d'un certain nombre d'ouvrages traitant des sciences naturelles (géographie, astronomie, botanique...) D'après le témoignage de certaines sources non dénuées de valeur, on peut croire que le projet fut mit réellement en œuvre. Installés à Raqqada même, les moines, grâce à la collaboration de savants linguistes arabes, ébauchèrent la difficile entreprise de la traduction. Il semble bien qu'un certain nombre d'ouvrages latins furent effectivement traduits en arabe. Entre autres ouvrages, le traité de Pline le Jeune sur la botanique. Cette hypothèse trouve un appui dans le témoignage suivant: le géographe Léon l'Africain (Hassan al Wazzan) nous apprend avoir vu la traduction de cet ouvrage, lors de son voyage en Tunisie au XVème siècle. La difficulté est que les données dont nous disposons concernant la «Maison de la Sagesse» de Raqqada, cette sœur jumelle de celle de Bagdad abbasside, sont des plus fragmentaires, encore que les quelques informations en dépit de leur laconisme, permettent de se faire une idée de la première Université Tunisienne, de ses réalisations et très spécialement de son rayonnement ultérieur.

M. Hassan Husni Abdelwahab nous parle des relations entre la Tunisie et l'Italie au Moyen-Age

II. Trois monarques aghlabides parlaient en latin à leurs pages siciliens

Au VIIème siècle, les Abbassides avaient emprunté aux Chinois les méthodes de l'industrie du papier, précise M. Hassan Husni Abdelwahab avec qui nous poursuivons la découverte des relations entre la Tunisie et l'Italie au Moyen Age.

Celles-ci furent transmises de Bagdad à Damas, avant de gagner l'Egypte. Kairouan, capitale de l'Ifriquiya les connaissait à son tour un demi-siècle plus tard. Sur la trace des Aghlabides, nous retrouvons au IXème siècle à Palerme, leur capitale sicilienne, la filière de la technique précitée. Une précision utile: fabriqué d'abord dans les ateliers princiers, le papier ne tarda pas à donner naissancce à une industrie artisanale florissante, si florisante qu'elle finit par traverser le détroit de Messine, fut adoptée par Salerne, se développa à Fabriano où l'on peut encore de nos jours observer la permanence des anciens procédés de fabrication.

Le papier ne s'arrêta pas en chemin. Précurseur de ces grands voyageurs que sont les livres, il poursuit sa marche conquérante jusqu'a Naples sous les rois normands. L'Italie du Nord à son tour lui fera bon accueil, mais ce qui nous remplit d'admiration c'est son entrée en Germanie, la partie de Gutenberg.

On se défend mal de penser: si le papier n'avait pas suivi le périple que nous venons d'évoquer et à la date que nous savons, l'invention de l'imprimerie aurait-elle vu le jour?

Un fait s'impose à nous qui arrête le débat: l'introduction du papier par

comtemporain[1].

Ahmed ben Kacem al Temimi al Bouni. Médecin né à Bône. Il a voyagé en Orient. Il a écrit un livre intitulé: les médications justes portées à la connaissance des gens intelligents, Il est mort en 1103/1726 .[2].

Mohamed ben Marzouk al Tilimsani. Médecin, auteur d'une brochure où par son titre et son contenu, il attire l'attention sur l'impuissance. Cette brochure existe en manuscrit à la Bibliothèque Nationale de Tunis sous le No 17970. Nous ignorons les dates de sa naissance et de sa mort.

Souhnoun ben Othman le soignant. Médecin, il vivait à la limite du dixième siècle. On lui connaissait un poème sur l'astronomie. Sa tombe était connue à Ouencheris.

Médecins venus d'orient:

Abou al Abbas al Jed d'Aspahan, Venu en Ifriquis (Tunisie) dans la deuxième moitié du XIIIème siècle pendant le règne de l'émir Hafidh al Mustancer, il s'est rendu ensuite à Bougie.

Médecins venus d'andalousie:

Abou al Qacem al Amaoui connu sous le nom de **ibn Andaras**. Il était de Murcie. - Arrivé à Bougie en 660/1261. Il a enseigné la médecine. Ses cours étaient suivis par des médecins illustres. Il a participé à une controverse sur le problème de «l'Espèce» et critiqué les médecins qui répondaient aux clients avec précipitations et sans réfléchir, pour montrer leur savoir. - Appelé par al-Mustanser il partit pour Tunis où il fit partie des médecins de l'Emir après avoir été interrogé par un jury de médecine. - Il a écrit des livres auxquels a collaboré son élève et biographe Ahmed al chubrini[3] .

---

(1) Al Hafnaoui T.I. P. 132.

(2) Recueil des auteurs T. I. P. 49 et 75.

(3) Cunwan al-Diraya imp. Alger 1997.

hôpitaux ont été recensés, leur emplacement déterminé, leur organisation intérieure et leur ressources spécifiées. Plusieurs pages ont été consacrées (en appendice) à la médecine arabe en Algérie et au Maroc. C'est un aperçu de la médecine arabe en Afrique du Nord qui mérite d'être développé.

Ce livre, de 300 pages, abondamment illustré est écrit, dans un style simple sans recherche ni affectation. Il est très compréhensible et doit avoir sa place dans les bibliothèques privées et publiques.

* * *

Médecins d'Algérie

Ali ben Mohamed. Il habitait à Annaba (Buna) Saint et méritant, il tétait **Fakih** du corps. possédait beaucoup de livres. Bon copiste mort en 346/957.

Fakih est pris ici dans le sens de connaisseur du corps, de ses maladies et de leurs traitement par analogie avec Fakih en matière de religion. Il existait à Kairouan au IVème siècle de l'Hégire beaucoup de médecins qui portaient ce nom[1].

Abdallah ben Youssef al Wahrani de la ville d'Oran. Perspicace en mathématique et en médecine. Il était honnête. Disciple des Kairouanais. il vivait vers 429/1037[2].

Omar ben Ali Ben Badhoukh de la Qlâa des Beni Hammad (Constantinois) Il était médecin, expert dans la connaissance des médicaments simples et composés. Il recherchait les livres de médecine, les étudait, vérifiait des essais par les symptômes des maladies et la médications signalés. Il donnait ses consultaions dans une boutique. Il avait fait un long séjour à Damas. Mort en 575/1179 à un âge avancé. - Parmi les livres qu'il a laissés, citons: Commentaire du Canon d'Avicenne.

Commentaires sur les chapitres d'Hippocrate (les aphorismes), les fleurs délicates en médecine. - Un livre sur le coït[3].

Ali ben Thabet Tilimsani . versé en histoire et en médecine. Né en 762/1370 . mort en 829/1426. Il était l'auteur de plusieurs livres[4].

Katib ben Abdesselem Tilimsani : S'est instruit à Bougie et au Caire. Il excellait en médecine. Né en 710/1310. Sa famille habitait à al Oubbad près de Tlemcen. Il est cité par Ibn Khaldoun dont il était le

(1) Al-Madariq T 3 - P. 165, Ro Ms BNT.
(2) Histoire Générale de l'Algérie T I - P. 360.
(3) Kachf al Dhounoun T.I. P. 1552. Oyoun al Anbâ P: 220.
(4) Nail al Ibtihaj P. 207.

HISTOIRE DE LA MEDECINE ARABE EN TUNISIE

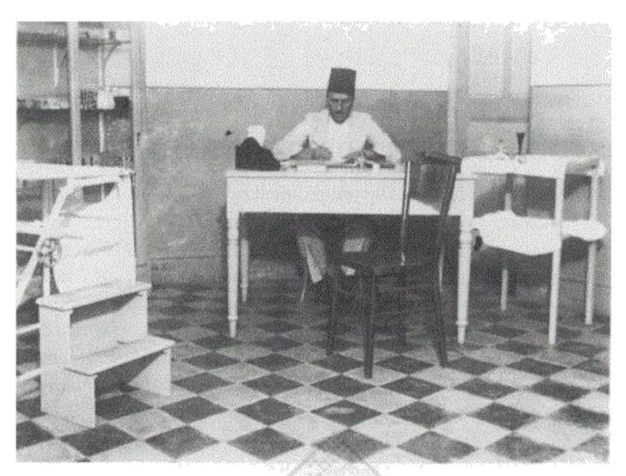
Par le Docteur Ahmed ben Milad

Nous savons que le Dr. A.B. Milad qui a présenté à nos congrès plusieurs aspects inédits de l'histoire de la médecine arabe en Tunisie, s'était consacré à l'étude de cette branche de l'Histoire depuis plusieurs années. Sa thèse de doctorat en fait foi. Il vient de présenter un travail d'ensemble, exhaustif, sur la période allant de l'occupation arabe à l'occupation française. C'est un panorama descriptif mais aussi critique, puisque l'esprit populaire a mêlé la légende à la réalité en ce qui concerne la personnalité de certains auteurs. Ainsi Ibn Omrane n'a pas été crucifié pour avoir refusé de soigner l'émir Ibn Al Aghlab, mais pour avoir refusé de lui fabriquer du poison, et Aziza Othmana n'a pas créé d'hôpital... etc.

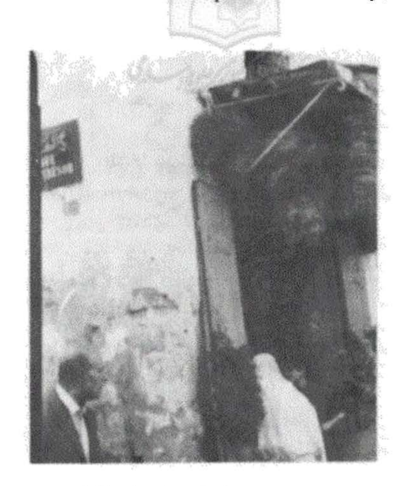
C'est égalemet en lisant avec attention les manuscrits de Sqolli que l'auteur a montré que ce médecin du XIVème siècle a dû ausculter les tuberculeux, et fait des autopsies, précédant en cela laennec, et décrit les stades du trachome six siècles avant Mac Callon, C'est également au XIIIème siècle qu'un médecin tunisien, Ahmed Ibn al Hacha a créé un lexique de médecine arabe, le premier du genre. Le X^e^ siècle avait eu ses grands médecins tels Hibat allah qui herborisait au djebel Zaghouan et Ahmed Dahmani qui soignait la siphylis avec succès avec des pilultes de mercure additionnées d'opium. Les œuvres que ces médecins nous ont léguées attestent de leur autorité et, infirment la thèse de ceux qui croient que l'essor de la médecine arabe s'est arrété à Bagdad et en Egypte au XIVème siècle.

Si les manuscrits des derniers siècles se trouvent en Tunisie, ceux de Kairouan sont dispersés en Europe et ailleurs, il a fallu au Docteur Ben Milad de parcourir les capitales pour les recenser et les étudier.

Outre les auteurs et leurs œuvres, l'état sanitaire du pays n'a pas été oublié. la part de la peste qui couvre dans les manuscrits toutes les maladies épidémiques, la variole exceptée, a été particulièrement étudiée. Les



Le Docteur B. Miled au dispensaire d'Ibn El Jazzar



L'herboriste de Souk et Blat

dissection du corps hummain pour la recherche scientifique. L'absence des autopsies avait été un handicap pour le progrès de l'anatomie, malgré l'existence des hôpitaux chez les Arabes.

Un autre handicap, non moins sérieux, était la «théorie des humeurs» qui décidait de la thérapeutique, que les Arabes avaient empruntée aux Anciens et qu'ils ont léguée aux Européens: ni les uns, ni les autres ne lui avaient trouvé de théorie de rechange jusqu'au XXe siècle.

La chirurgie.

Sans la connaissance exacte des organes, la chirurgie ne pouvait être entreprise. Seules, l'incision des abcès, la réduction de fractures et les pansements des plaies étaient possibles. Le traité «Ettasrif» du médecin andalou Aboul Kacem Ez Zahraoui n'est pas plus éloquent. L'extraction de la pierre de la vessie n'était qu'une illusion.

Voici l'opinion de deux chirurgiens français du début du siècle à ce sujet:

Velpeau déclarait: «est criminel le chirurgien qui ouvre un ventre», et Nélaton promettait une statue d'or à qui vaincrait l'infection post-opératoire.

La chirurgie n'a pu donner des résultats qu'avec l'anesthésie et l'antisepsie pastorienne.

La phytothérapie ou le traitement par les plantes.

La phytothérapie a été la base de la médecine arabe; le nombre de plantes et leurs variétés sont considérables. Ibn al Baytar cite plus de 3.000 plantes dans son livre.

Ibn al Jazzar cite aussi dans son livre «al I'timâd» plus de 250 noms de plantes. Il est certain qu'il n'en connaissait que certaines espèces, celles qui croissaient en Tunisie et qu'il employait dans sa pratique journalière.

INTRODUCTION

On a soutenu que la médecine arabe a puisé ses éléments dans la médecine grecque. Cela est vrai; une science ou une civilisation ne naissent pas du néant. La médecine arabe n'etait pas l'œuvre des Arabes seulement; c'est une œuvre collective de persans, d'andalous, d'arabes, d'ifriquyens etc... Elle n'est pas sacerdotale. Comme toutes les sciences, elles est laïque. Ce qui a uni tous ses auteurs, c'est la langue arabe.

Certains ont prétendu que la langue arabe est une langue morte, comme le grec ou le latin. Cela est faux. La preuve en est qu'elle ne cesse de croître, de s'enrichir continuellement de termes nouveaux tirés de ses propres racines. Son vocabulaire est riche, il recouvre toutes les branches de l'activité littéraire, artisanale, administrative, maritime, agraire, etc... Sa grammaire, inspirée et codifiée à partir du Coran, est devenue universelle sur tout le territoire de l'Empire arabe. La langue Arabe a été et reste le ciment entre tous les peuples musulmans, quelle que soit leur nationalité. Ceux qui la dénigrent sont ceux qui l'ignorent. Ils en ignorent la richesse, la finesse et la beauté.

On a reproché à la médecine arabe de n'avoir pas fait de progrès depuis le XIIe siècle. Il faut dire que les manuscrits existants n'ont pas été analysés minutieusement. C'est la lecture attentive du manuscrit du Damascain «Ibn Nafis»; qui a permis à Meyerhoff de découvrir «la petite circulation». On lisant attentivement le manuscrit d'El Mokhtar El Ferissi de Mohamed Es-Sqolli on constate que ce médecin diagnostiquait les lésions tuberculeuses par l'auscultation et classait les symptômes du trachome en quatre stades selon leur apparition, constatations qui n'ont été entrevues en Europe qu'aux 18e et 20e siècles.

La recherche et l'étude minutieuse des manuscrits peut nous donner encore d'agréables surprises.

Ces découvertes n'auraient pas été faites, il est vrai, sans les autopsies. et si celles-ci n'avaient pas été avouées par leurs auteurs pour des raisons d'ordre social, il n'est pas exact que la religion musulmane est hostile à la

الفهرس

القسم الفرنسي



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
Cellulair: 009613-638535 : خلوي / Tel: 009611-350331 :تلفون
فاكس: 009611-742587 :Fax / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم : 1999/9/2000/354

التنضيد : كومبيوتايب - بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص . ب . 10 - بيروت

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
P. B. : 113-5787- BEIRUT

HISTOIRE DE LA MEDECINE ARABE EN TUNISIE

Durant dix siècles

PAR

DR. AHMED BEN MILAD



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

HISTOIRE DE
LA MEDECINE ARABE
EN TUNISIE

Durant dix siècles